

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي  
جامعة محمد الأمين دباغين - سطيف 2  
كلية الآداب واللغات  
قسم اللغة والأدب العربي

أطروحة  
مقدمة لنيل شهادة  
دكتوراه العلوم

التخصص: نقد أدبي

إعداد الطالبة: صافية دراجي

عنوان الأطروحة

تلقي الخطاب القرآني في ضوء علم اللغة النصي  
جزء "تبارك" وجزء "عم" أنموذجا

لجنة المناقشة:

رئيسا	جامعة قسنطينة 1	أستاذ	أ.د. عزيز لعكايشي
مشرفا ومقررا	جامعة سطيف 2	أستاذ	أ.د. عبد الملك بومنجل
ممتحنا	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة	أستاذ	أ.د. ناصر لوحيشي
ممتحنا	جامعة سطيف 2	أستاذ محاضر "أ"	د. مسعود بودوخة
ممتحنا	جامعة سطيف 2	أستاذ محاضر "أ"	د. عبد الرحيم عزاب

السنة الدراسية: 2015 – 2016



## إهداء

إلى بهجة الحياة وأنسها وفرحها..

أبي وأمي.. أدامهما الله سراجا ينير دروبنا وتاجا فوق رؤوسنا..

إلى اللذين ملأ حياتي فرحا وسرورا..

زوجي الغالي وابنتنا فراح.. أدامهما الله شمساً ونورا..

إلى الشموع التي تقاسمت معنا براءة الطفولة وأحلام الشباب..

إخوتي وأخواتي وإلى أبنائهم.. حفظهم الله جميعاً..

إلى من يستوطن وجودهم شرايين القلب..

الحاضرون والغائبون في زحمة الحياة أو عالم الخلود..

أهدي هذا العمل..

صافية

# مقدمة

مقدمة:

مع مطلع القرن العشرين ظهرت حركة نقدية واسعة نتيجة ظهور مدارس لسانية وأدبية كان لها دور فعال في بروز مفاهيم وأطروحات واصطلاحات جديدة مست كل أشكال الخطاب. وبدأت الثورة العلمية في مجال اللغة والأدب والنقد مباشرة بعد ظهور اللسانيات البنوية مع رائدها "دوسوسير" الذي فتح المجال على أفق بحث واسع في هذا المجال.

ومن اللسانيات البنوية انطلقت كل أشكال المقاربات النقدية متجاوزة النظرة التقليدية الكلاسيكية بحثا عن العلمية، فبدأت ملامح تحليل الخطاب تبرز مع "هاريس" وبعض من اللسانيين البنويين الذين عملوا على نقل مبادئ اللسانيات المتصلة بتحليل الجملة من تقطيع وتوزيع وتصنيف ووظائف الربط وضبط المكونات المباشرة وغير المباشرة إلى إجرائها على تحليل النصوص، ثم تطورت النظريات واتسعت لتعتمد البنوية على مفهوم البنية في بحثها عن العلاقات التي تحكم انتظام اللغة داخل النص، أما الشكلانية فترى أن الأدبية تتجسد من خلال المحيط النصي، واعتمدت الوظائف على مفهوم السياق، واعتمدت التوليدية والعرفانية على مفهوم الإنتاج. وهناك من كان يدعو إلى دراسة العلامة مهما كان شكلها واعتبارها ووجودها سواء العلامة اللغوية أو غير اللغوية مع المنهج السيميائي مع التأكيد على مبدأ المحايثة عند أغلبهم. وهناك من يعتقد أن الخطاب يفهم بالنظر إلى متلقيه مع نظرية الاستقبال والتلقي، وزمرة من اللسانيين يرون أن الأساس في الخطاب هو استقرار الظواهر المميزة بحثا عن

أشكال الانزياح والعدول في تطوير للنظرية البلاغية القديمة مع المنهج الأسلوبي. كما اعتمدت التداولية على مفهوم المقاصد.

لتصل النتائج في الأخير إلى التأكيد على أن هذه المقاربات كلها ناقصة، حيث الاهتمام بمجال وإهمال آخر لن يؤدي الغرض المطلوب من العملية النقدية في قراءتها للخطاب، الذي يحدد باعتباره تشكيلة كلية يستلزم الغوص فيه الإحاطة بكل جوانبه تتبعاً لتمفصلاته وتمظهراته وملاساته.

وقد ظهر علم النص تجسيدا لهذه المطامح العلمية، وصارت المقاربات والنظريات السابقة كلها تعمل وتشتغل متداخلة في مجاله وتحت لوائه.

علم النص إذن فرع معرفي ظهر كاتجاه جديد في الدرس اللساني الحديث في النصف الثاني من ستينات القرن العشرين، يهدف إلى الانتقال من تحليل الجملة إلى تحليل النص باعتباره الوحدة الطبيعية للتفاعل اللغوي بين المتكلمين والتي لا تضمها وحدة أكبر منها.

لكن وعلى الرغم من الثورة التي أحدثتها إلا أنه يعاني من مشكلات أساسية لعل أهمها وأكثرها جلاء مشكل المصطلح والمفهوم الذي يقوم عليه، فقد أطلقت عليه تسميات عديدة منها: علم النص ومنها لسانيات النص ومنها نحو النص، ومنها علم لغة النص، ومنها نظرية النص، ومنها النحو الوظيفي، وهي مصطلحات متقاربة، ومتشابهة، ومتداخلة، ومتغايرة في الآن ذاته. والتسمية الأقرب إلى الأذهان هي علم النص الذي يتضمن مفاهيم المصطلحات

الأخرى، فهو اهتمام بنحو النص أولاً، ووظيفة الخطاب، وهو استقرار للمقاصد، وإنه مبحث تداولي بالنظر إلى علاقة اللغة بمتلقيها، كما ينظر إلى بنيات النص في قراءة داخلية للبنيات النصية الصغرى والكبرى، ثم هو أساساً نظر في كيفية تحقق المعنى وترايطه من خلال مفاهيم الانسجام والاتساق النصي.

وإضافة إلى هذه المقاربات التي يعتمد عليها علم النص مجتمعة فهو يستعير مفاهيمه واشتغاله من تخصصات أخرى: أبرزها العلوم النفسية والاجتماعية وفلسفة اللغة. وهذا ما يزيد الدراسة ثراءً وتشعباً وتشابكاً، أي أنها مرتبطة بعدة فروع أكاديمية تتكامل لتحقيق دراسة شمولية في مجال تحليل الخطاب وتتجلى كينونته في علم النص.

إن ديدن العلوم الاستفادة من بعضها البعض، وسنة البشرية استنطاق المعرفة السابقة بنقدها وزيادة ما نقص إليها والإبداع فيها، فالعلم لم يكن يوماً ملكاً للأفراد إنما هو ملك للجماعة، والحضارة تأخذ من المفاهيم والأفكار ما تراه واجبا لبناء ذاتها ولبناء نهضتها الفكرية، أو لإعادة قراءة تراثها بواسطة هذه الآليات التي لها جود في الذاكرة الإنسانية، معارف يكرر بعضها البعض ويتجاوزها دوماً في بحثه عن الحقيقة العلمية. فلا يعني قراءة الموروث، أو استنطاق الذات اعتماداً على المنتوج الغربي ذوبان في الآخر، أو إقصاء للأنا إنما هو إقرار وتسليم بأن العقل البشري الذي أعطي ملكة التفكير يستطيع تمييز الأشياء، ويقدر عطاء الفكر البشري عموماً مهما كانت توجهاته العقائدية والإيديولوجية في كل زمان وفي كل مكان، والاستفادة من خبرات الآخرين لا يعني بالضرورة هدم مكتسبات الذات.

فمن التحديات الكبيرة التي مر ويمر بها تحليل الخطاب في العالم العربي والإسلامي ذلك الرفض من قبل طائفة من النقاد والمفكرين الذين يرون فيه مسا للذات ومحاولة طمس الهوية والقفز على التراث العربي والإسلامي، وإنها رؤية تستوجب إعادة النظر بوعي ومنطق دون تعصب، فاستفادتنا من غيرنا وقت ضعفنا واستفادة غيرنا منا وقت ضعفهم هو أمر طبيعي جدا، فهي سنة بشرية لا يمكن دحضها، وإلا بقينا على عتبات الماضي ننشد التأخر عن الركب الحضاري العام، فالقصد من استخدام الأدوات المعرفية التي يمتلكها الآخر هو مسايرة كل أشكال التطورات العلمية في ميادينها المختلفة. ثم هو قراءة للذات والتراث بآليات فكرية منهجية تنشُد الدقة ووضوح الرؤية وصرامة القياس بما تأخذه النظرية من مفاهيم وإجراءات عملية وجهت الفكر اللساني نحو نظريات تخدم اللغة والأدب والنقد والفكر والفلسفة والمنطق. وإن كان لمعظم المناهج منطلقات إيديولوجية ومرامٍ مذهبية فيستوجب ذلك التمهيد والغريزة قصد القبول أو الرفض، ثم إن كل معرفة لا تقصد خدمة العلم يكون مآلها مع الزمن الاندثار لتستبدل بمحاولة أخرى يكون لها من العلمية ما يخولها لأن تقبل على مدى أوسع وتنسب على مساحة أكبر.

إن الميزة التي تميز علم النص عن بقية المناهج الأخرى أنه لا يجعلك تخضع لإجراءاته خضوعا آليا، ولا يطلق سراحك تماما لتسير في ركب من دون وجهة، ودون معلم واضح، فهو بحيويته وديناميكيته وبإجراءاته يفسح للمحلل طريقا للتعامل مع الخطاب بحرية تحدها حدود نحوية ومقصدية مرتبطة بالسياق.



نؤكد على أن البحث في هذا المجال من المغامرات الشاقة والخطيرة خضناها ونحن نتوجس خيفة من العثرات، ليس لدقة المنهج، وتوسعه واستعانه بعلم ومعارف مختلفة ومتباينة فقط، إنما لكون النص المعاین خطاباً قرآنيًا.. والنص القرآني تحيط به القدسية، وتحوم به هالة التفرد والتميز، فكان لزاماً أن نحسب حساب كل فكرة قبل الخوض فيها. رغم أن اختيار المنهج واختيار النص المعاین يخضع لقناعات علمية وانتمائية، فلا يمكن أن نفصل الباحث في مجال العلوم الإنسانية والأدبية واللغوية عن انتمائه العقائدي والفكري.

ثم أني لست الباحثة الوحيدة التي يغريها صوت القرآن وترانيمه العذبة، فقد كبرت مع كتاب الله قبل أن أعرف معانيه، كانت تستهويني لغته ويغريني جرسه الموسيقي، فأقرأ وإن كنت لا أفهم أغلب ما أقرأ، لكن قلبي كان مشدوداً نحوه، ولما كبرت وصرت أفهم بعضه وليس كله وأقرأ معه التفاسير التي تقريني منه، أدركت أن علمنا محدود، لا يمكنه أن يشمل جميع ما في القرآن الكريم، وأفهامنا لا تستوعب كل تلك المكونات التي يحويها، أدركت كما أدرك من سبقني أن ألفاظه أفصح الألفاظ، ومعانيه أعذب المعاني، نص لا يفوقه أي نظم مهما كانت صفتها، كتاب يتميز عن كل جمال لفظي آخر عرفته القريحة البشرية. فضلاً عن كونه قوام مبادئنا، ومرتكز حضارتنا.

هذه الدواعي دفعت بي دفعا لأن أجعل منه نقطة اهتمامي، أمنحه جهدي وأهبه خلاصة تفكيري، أحببت أن أغوص فيه لأفهم كيف أنه بحق كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا ينفذ بكثرة القراءة ولا ينفذ بكثرة التدارس.

ثم إننا قرأنا بعضا من أقوال المستشرقين الذين يرون أن القرآن الكريم غير منسجم، ولا يخضع للاتساق، فهو أشتات مواضيع، لا علاقة تربط ما بين السور، ولا علاقة تربط بين الموضوعات التي تحويها السورة الواحدة، وإنه يصدم القارئ بالخروج المفاجئ عن الموضوع لينتقل إلى موضوع آخر لا صلة له بالموضوع الأول. كما أنه يكرر المواضيع وهذا لا طائل من ورائه، فأحببنا أن يكون لنا إسهام لدحض هذه الرؤى من خلال ما اشتملت عليه الدراسة من تتبع لمظاهر الاتساق والانسجام في الخطاب القرآني بعد استنتاج البنيات التي تحويها البنية الكلية للخطاب كله.

سنحاول في هذا البحث النظر في مدى قدرتنا على تطبيق إجراءات علم النص على الخطاب القرآني: كيف نستخلص بنيات النص القرآني، وما مدى اتساقه وانسجامه حسب المعايير الغربية للاتساق والانسجام، ثم ما هي السلطة التي يفرضها الفعل الكلامي على المتلقي في الخطاب القرآني؟

وقصد الإجابة عن هذه الأسئلة قمنا بتوزيع الدراسة على مدخل وثلاثة فصول.

يشتمل المدخل على تحديد مفهوم علم النص، وتاريخ ظهوره والدوافع المؤدية إليه.

ويتضمن الفصل الأول الذي يحمل عنوان: النظام النصي القرآني خطاب تواصلية،

مبحثين اثنين:

أولهما يتناول بالدراسة والتحليل السياق القرآني والوحدة النصية العامة، استنادا إلى ثلاثة أركان أساسية هي: صورة الخطاب، وأقطاب الإرسال والموضوع العام للخطاب القرآني المتمظهر في جزأي تبارك وعم.

وثانيهما حديث عن بنيات النص القرآني وترسيمة توزيعها. وقسمنا هذا المبحث بدوره إلى ثلاثة مطالب متعلقة بنمط توزيع البنيات الصغرى، ونمط تشكل البنيات الكبرى، ثم اكتشاف للبنية الفوقية التي يتمحور حولها الخطاب كله.

وتتبعنا في الفصل الثاني مظاهر الانسجام والاتساق النصي في مبحثين اثنين وهما: الانسجام وقواعد ترابط البنى الكبرى، والاتساق وقواعد ترابط البنى الصغرى.

ثم قسمنا المبحث الأول إلى مبحثين فرعيين بالنظر إلى الداخل والخارج نصي، فاستقرأنا مع المبحث الفرعي الأول الانسجام بالنظر إليه كملمح بنوي، متتبعين فيه ثلاثة عناصر أساسية وهي: العنوان، والمعرفة الخلفية، ومبدأ التجاور. كما تتبعنا مع المبحث الفرعي الثاني الانسجام كوجود جوهري داخل نصي وتوقفنا عند أربعة عناصر هي: الاستدلال، والتكرار، وقاعدة الربط بين الأفكار، وقاعدة التدرج في المواضيع.

وكان المبحث الثاني من الفصل الثاني المتعلق بدراسة الاتساق ومظاهره فكان بدوره استنطاقا لثلاثة أشكال من الاتساق شكلت المباحث الفرعية للمبحث الرئيسي وهي: الاتساق الدلالي، والاتساق التركيبي والاتساق المعجمي.

أما الفصل الثالث الذي يحمل عنوان الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية فقد استقرأنا فيه البعد التداولي للخطاب القرآني. وقسمنا الفصل إلى مبحثين رئيسيين يتفرع كل مبحث إلى مباحث فرعية.

حاولنا في المبحث الأول دراسة الأفعال الكلامية الجزئية التي تجسد سلطة الإلزام متتبعين المظاهر التي شكلها الفعل الكلامي في ارتباطه بموضوعات القرآن في ثلاثة محاور أساسية هي: التأمل في عظمة خلق الله، وإقرار حقيقة البعث، وميزان الأخلاق الفاضلة. ودرسنا في المبحث الثاني فيه الفعل الكلامي الكلي وإخلاص العبادة لله وحده مركزين على سلطة الأمر المباشر، وسلطة الفعل الكلامي المضمر.

ختمنا البحث بتقديم حوصلة شاملة للنتائج المهمة التي توصلنا إليها استنادا إلى تحليل واع ومنضبط قدر المستطاع.

تنوعت مصادر الدراسة ما بين القديمة والحديثة، العربية والأجنبية، فمن المؤلفات العربية اعتمدنا خاصة على الكتب الآتية:

. علم لغة النص: لسعيد حسن بحيري.

. لسانيات النص: لأحمد خطابي.

. دينامية النص: لمحمد مفتاح.

. نحو النص - نقد النظرية وبناء أخرى: لعمر محمد أبو خرمة.

ومن الكتب المترجمة كان اعتمادنا الأكبر على:

. " تحليل الخطاب لـ" براون ويول " ترجمة: محمد لطفي الزيتوني ، ومنير التريكي .

. " النص و السياق " لـ" فان دايك " ترجمة : عبد القادر قيني .

. علم النص لـ" فان دايك " ترجمة سعيد حسن بحيري .

. النص والخطاب والإجراء لـ" روبرت دي بوجزند " ترجمة تمام حسان .

ومن المؤلفات الفرنسية اعتمدنا على:

Quand dire c'est faire J. L. Austin لـ" أوستين "

Dire et ne pas dire O Ducrot لـ" ديكرود "

Problème de linguistique générale لبنفنيست Benveniste

كما اعتمدنا على بعض التفاسير، أهمها:

- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور .

- التفسير المنير لوهبة الزحيلي .

واستلزمت الدراسة الاعتماد على بعض مصادر التراث العربي ككتاب "دلائل

الإعجاز" لـ"عبد القاهر الجرجاني"، و"مفتاح العلوم" لـ"السكاكي".

لقد سعينا سعيا أكيدا بعمل دائم ومتواصل قصد إعطاء الأفضل وتقديم إضافة معرفية طموحة وجادة، وإنا لندرجو أن يثري هذا العمل - على بساطته - المكتبة العربية.

وفي الأخير أتقدم بتشكراتي الخالصة للأستاذ المشرف الدكتور عبد الملك بومنجل الذي أبدى اهتماما بالبحث وأثراه بتوجيهاته ونصائحه ودقته المتناهية، كما أشكره على تشجيعه المستمر لي ومراعاته الدائمة للظروف التي مررت بها فترة إنجازي لهذا العمل.

كما أشكر مكتبة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية التي فتحت أبوابها لي طيلة مسار إنجازي لهذه الرسالة، وأشكر على الخصوص عاملات المكتبة اللائي لم يبخلن علي يوما بتقديم أيدي المساعدة.

بجاية في 2015/05/18

# مدخل

1 - لسانيات النص - التجاوز والشمولية

1.1 - في تحديد المفهوم

1.2 - النشأة والتطور

2 - لسانيات النص - البديل للاستقراء النصي

لم تتمكن المناهج المحايدة ولا المناهج الأحادية النظرة ولا تلك الموغلة في التوسع الخارج نصي (المناهج السياقية) قراءة النص قراءة وافية والإحاطة بجوانبه كلها استقراء للدلالات الكامنة فيه. إذ إن النظر إلى النص من جانب واحد فقط لن يوصل إلى نتائج دقيقة. كما أن كفاءة القراء تتباين كما تتباين طاقات النصوص، ولا يوجد شيء يسمّى التفسير النهائي للنص أو الخطاب.

يرتبط بقاء الخطاب البشري واستمراره بما يقدمه من قراءات متعددة، من خلال قراءات تختلف قدراتهم فتختلف نتائجهم، لكنه يحتفظ بجزء من كينونته في كلّ تفسير، فبصمة القارئ لا تغيب تماماً حتى وإن لم يكن النص من إنتاجه، لكن يكفي أن يعطيه شيئاً من كينونته حتى يطبعه على الخطاب. لكن النص القرآني لا يتجاوز التفسير الأول الذي وُضع له، فكل تفسير، وكل قراءة لن تقبل إن لم يكن هناك عودة إلى التفسير الأولي الذي ينبع من أول قراءة له، فالخطاب القرآني محدود بحدود السياق المرتبط بأسباب النزول.

ولا يمكن في إطار هذه النظرة أن نقبل بسهولة نداء "بارط" بموت المؤلف، وتلك الحرية اللامحدودة التي وهبها للقارئ حين رفض النظرة التقليدية التي ترى أنّ المؤلف هو الأصل في النص ومنبع معناه، وصاحب السلطة في تفسيره<sup>1</sup>. ولا يمكن أن نقبل النظرة السياقية التي تحكم على النص من خلال المحيط النصي استناداً إلى نفسية المبدع أو تاريخه أو مجتمعه. كما أن النظر إلى النص نظرة آلية اعتماداً على تقنيات محددة (آليات يفرضها منهج معين) نطبقها على كل الخطابات يجرد النص تجريداً يوغل به في عوالم تفرغه من حياته وتشوه روحه، ويصير التعامل مع الخطابات تعاملاً مع الخطاب الواحد، كما هو الشأن مع السرديات، في تتبعها لبنية المحكي الزمانية والمكانية والشخصيات، كذلك هو الشأن مع السيميائية السردية ومدرسة باريس.

<sup>1</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص. المفاهيم والإجراءات، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان 1997، ص 165.



إن علم النص من خلال ما يمتلكه من أدوات إجرائية، استفاد من كل الممارسات اللغوية واللسانية والمناهج النقدية ليتجاوزها سيراً بها نحو الكمال العلمي. حيث ظهر بعد ظهور سلسلة من المناهج العلمية المعترف بها، والتي فيها من النقائص ما وجب البحث عن بديل لها.

## 1- لسانيات النص - التجاوز والشمولية

### 1- 1 - في تحديد المفهوم

قبل تحديد مفهوم "علم اللغة النصي" يجب بدء التفريق بين بعض المصطلحات المتقاربة والمتداخلة والمتغايرة في الآن ذاته، وهي: علم النص\*، وعلم اللغة النصي\*\*، والتداولية. فعلم اللغة النصي هو النحو الواسع الذي يهتم بالنص. فإذا كان النحو التقليدي هو نحو جملة، لا يتجاوز تعامله نمط الجملة في تركيبها وبنائها، فإن نحو النص أو لسانيات النص هو نحو النص بالمفهوم الواسع. و"موضوع إشكالية المعنى هو النص وليس العلامة، وتعريفه بأنه تأويل متحرك وليس ساكناً<sup>1</sup>، إنه يتجاوز النظر في المبنى إلى المعنى، وإن المبنى عنده شكل يُستنبط من خلاله المعنى. فلسانيات النص تبحث في الآليات والإجراءات التي تصنع نصية النص، والاهتمام بالنص يقتضي الاهتمام بما يحيط بهذا النص في دراسة الإجراءات التي تحدث عنها "روبرت دي بوجرند"<sup>2</sup> من اهتمام بالمقصدية والمقبولية والإخبارية والتناص والاتساق والانسجام.

أما التداولية فهي منهج ينظر إلى استعمال اللغة أو علاقة اللغة بمستعملها. وفي مسعاها هذا تُحدّد المقصدية كأهم دعامة من دعائمها. لهذا نجد من يقترح ترجمة المصطلح الفرنسي Pragmatique بـ "علم

\* ما نعتقده أن علم النص إجراء نقدي لساني يضم لسانيات النص والتداولية، لكن أغلب الباحثين والمترجمين يستخدمون علم النص مرادفاً للسانيات النص ونحو النص وعلم اللغة النصي.

\*\* هناك من يترجم المفهوم الفرنسي linguistique textuel بلسانيات النص، وهناك من يتبنى مصطلح نحو النص، وهناك من يعتمد مفهوم علم اللغة النصي، وهناك من يعتمد مصطلح تحليل الخطاب.

<sup>1</sup> فرانسوا راسي : فنون النص وعلومه، ترح: إدريس الخطاب، ط1، دار طوبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب 2010، ص60.

<sup>2</sup> روبرت دي بوجرند: النص والخطاب والإجراء، ترح: تمام حسان، ط2، عالم الكتب، القاهرة 2007، ص8.

المقاصد" بدل مصطلح التداولية، مادام أساس التداولية هو استنباط المقاصد، وفي هذا الصدد يرى"فان دايك" أن لسانيات النص والتداولية هما إجراءان من إجراءات علم النص، يقول "سعيد حسن بحيري" متبنياً رأي "فان دايك": "ليس علم لغة النص إلا نظرية جزئية من نظريات النص"<sup>1</sup>. فعلم النص هو العلم الأكبر الذي تندرج تحت طياته لسانيات النص (نحو النص) الذي ينظر إلى النص نظرة نحوية - دلالية والبحث عن مظاهر الاتساق والانسجام من أولوية أولوياته.

كما يظهر أن لسانيات النص يوجهها النحو، لا سيما النحو الوظيفي. أما التداولية فتتفرع إلى النص نظرة نقدية - دلالية. أما المقصدية فهي أساس لكلا الإجراءين نحو النص والتداولية، وحين نتحدث عن المقصدية فنحن نتحدث عن المعنى ومعنى المعنى بمصطلح البلاغة العربية.

لكن الملاحظ عند أغلب الباحثين العرب تبنيهم للمفهوم الذي يقر أن علم النص مرادف لمفهوم علم اللغة النصي، أما التداولية فهي إجراء آخر لساني لا تربطه بعلم النص علاقة سوى علاقة الاعتماد اللساني. وهذا يحتاج إلى إعادة نظر. مع العلم أن التداولية تطلق على ثلاثة إجراءات هامة هي نظرية التلفظ التي جاء بها "بنفست"، ونظرية "الحجاج" لديكرو، ونظرية الفعل الكلامي لـ"أوستين" و"سيرل"، ولكل إجراء من هذه الإجراءات الثلاثة أبوابه في استقراء المقصدية النصية للخطاب المقارب.

تشارك لسانيات النص مع التداولية في بحثها عن المقصدية النصية من خلال الداخل والخارج نصي. أي من خلال السياق النصي والسياق الخارج نصي. والمنهجان يندرجان تحت لائحة علم أوسع يهتم بالنص نحويًا - دلاليًا - تداوليًا - سيميائيًا، وهو ما يسمى بعلم النص. فيأخذ من كل مجال بقدر فيتحاور مع النحو ومع الأدبية والبلاغة والأسلوبية وغيرها من العلوم. يقول "فان دايك" في هذا الصدد: "إن علم اللغة وعلم

<sup>1</sup> سعيد حسن بحيري: علم اللغة النصي، ص 84.

النص يمكن أن يتطابقا إذا أمكن أن يتسع علم اللغة وأن يتشعب نظريا وتجرىيا وأمکن أن يصف الملامح النصية المذكورة ووظائفها وآثارها"<sup>1</sup>.

يحاول علماء لغة النص استخدام نهج مماثل للنهج الذي أتبع في وصف الجملة، ولكن مع اتساع في التصور بتخطي الجوانب النحوية، لإبراز جوانب أخرى يختص بها النص. فالنص أكبر وحدة لغوية، ولا يمكن أن يدخل أو يحتضن في وحدة لغوية أكبر منه، وهو بذلك يخالف تحديد اللغوي الأمريكي "بلومفيلد" وتلامذته للجملة بأنها أكبر وحدة في التحليل والوصف.

استفادت لسانيات النص من بعض منجزات الأسلوبية والبنوية وتجاوزت التحليل الجزئي. فالبحوث الحديثة اتكأت على مصطلح "البنية" structure واكتشفت به التنظيم الداخلي للوحدات التي تشكل بنية النص وعلاقتها<sup>2</sup>.

تم توسيع مفهوم النص من خلال مفهوم التماسك. والتماسك النصي ذو طبيعة نحوية، كما يتضمن في الوقت نفسه جوانب تتعلق بموضوع النص وجوانب دلالية وتداولية أيضا. والتماسك يكون دلاليا - محوريا مجرد وحدات النص، وهذا ما يطلق عليه البنية العميقة للنص، وبين هذه البنية والقضايا المتفرقة أي مفاهيم الجملة ومضامينها علاقات منطقية - دلالية محددة<sup>3</sup>. فالنص مجموعة من الأحداث الكلامية التي تتكون من مرسل للفعل اللغوي ومتلق له، وقناة اتصال بينهما، وهدف يتغير بتغير مضمون الرسالة وموقف اتصال اجتماعي يتحقق فيه التفاعل.

<sup>1</sup> فان داياك: علم النص . مدخل متداخل الاختصاصات، ترج وتعق: سعيد حسن بحيري، ط1، دار القاهرة للكتاب، القاهرة 2001، ص23.

<sup>2</sup> نوال لخلف : الانسجام في القرآن الكريم - سورة النور أنموذجا، دط، منشورات كنوز الحكمة، الجزائر، 2012، ص 17.

<sup>3</sup> سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، ص109.

يتجاوز بعض الباحثين في تحديدهم للنص الإطار الشكلي إلى الامتداد الثري له بتداخله مع نصوص أخرى، فينطلق "درسلر" من المعادلة التي تعني أنه من الممكن أن يتكون النص من جملة فقط أو من جملة + رابطة + نص، حيث يمكن أن يمتد بعد ذلك في إطار هذا النظام، أي يمكن أن يكون للنص معنى مختلف في النظام نفسه. وبهذا يكون له تركيبة مشكلة من عدة نصوص. ويقصد بالامتداد ونتيجته ما تحدته عملية التناص Intertextualité. فالتناص يعني الأخذ من مجموعة نصوص أخرى، تتقاطع في فضاء المنتج الجديد نصوص عديدة، مما يجعل بعضها يقوم بتحديد بعضها الآخر، ليتجسد وفق وحدة معقدة من الخطاب، لا يعني الكتابة فحسب وإنما يفهم منه أيضا عملية إنتاج في عمل محدد، ولا يمكن إنتاج نص من عدم حسب نظرية التناص.<sup>1</sup> وكما تقول "كرستيفا": "يتموقع النص في الواقع الذي ينتجه عبر لعبة مزدوجة، تتم في مادة اللسان وفي التاريخ الاجتماعي"<sup>2</sup>.

يسعى علم النص إلى إيضاح كيفية تلقي الأفراد أو الجماعات لتلك "المضامين" واستيعابها من خلال هذه الأبنية النصية الخاصة، وكيف تؤدي هذه المعلومة إلى بناء الرغبات والقرارات والأفعال، أي تنظر إلى كيفية انبناء السلوك العام في الممارسة الاجتماعية.

وتتحدد قراءتنا العلمية للنص في بعض الأسئلة التي تفرض نفسها على المحلل وهو يقترب من الخطاب المدرس، فيتساءل باحثا عن الإجابة عن أي شيء تدور حوله الفقرة؟ ويأتي سؤاله بعد رؤية لكل أشكال الصور المصغرة، من اعتماد اللفظة الواحدة من خلال البنية الدلالية لها، ثم اعتماد البنية الصرفية، وأخيرا البنية النحوية التي تنظر في تركيب الكلم بعضه مع بعض لتشكيل الجملة. وبعد هذا يصل الدارس إلى السؤال المشروع حول الفقرة وموضوع النص. يقول "فان دايك": "وأخيرا يمكننا أن نتساءل عن أي شيء تدور حوله

<sup>1</sup> سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، ص.ص 110، 111.

<sup>2</sup> جوليا كرسيفا: علم النص، ص 9.

الفقرة ككل. ونعني بذلك موضوع النص، وهو مصطلح لا يتحدد بالنسبة للقضايا المفردة والعلاقات بينهما، بل بالنسبة لتتابعات كاملة فقط. ويتحدّد الموضوع من خلال مصطلحات الأبنية الكبرى للنصوص<sup>1</sup>. ففهم موضوع الفقرة أو استخلاص معنى البنية الكبرى عند "فان دايك" يتم عبر تفكيك الوحدات الصغرى، مع التأكيد على فهم معنى بنيتها. أو كما يقول "فرانسوا راستي": إن معنى النص ينتج عبر مسار الأشكال الماكرودلالية *Macrosémantique* والتي لها دلالتها الذاتية عبر دورتها وعبر التقييمات التي ترتبط بها، وعليه فحسب "راستي" إن معنى النص لا يستنبط من متواليه من القضايا. وفهمه لن يكون أمرا هينا<sup>2</sup>.

لكن ينبغي التأكيد أن التعامل يكون مع النص فقط، فالمعنى يتجسّد فيه بغض النظر عن طوله، إذ إن "الجملة ليست في الحقيقة أكثر من سلسلة من المفردات"<sup>3</sup>. والمفردات لا تشتغل في التواصل إن لم يُحقق لها السياق تحوّلها إلى نص. يقول "تمام حسان" في مقدمة ترجمته لكتاب "النص والخطاب والإجراء" لـ"روبرت دي بوجرند": "ولعلّ أكبر المآخذ التي توجّه إلى المنهج التراثي في تناول النصوص هو الطريقة التي كانت النصوص تُشرح بها. كان الشُّراح يبنون نصوصهم على المفردات"<sup>4</sup>. فيعتقد "تمام حسان" أن الأمة العربية كانت أمة مفردات ومعجم، ولم تكن أمة نص (خطاب). بمعنى أن اهتمام العرب كان بالدلالة على حساب المعنى. وإن كنت أعتقد أن البلاغة العربية في علم المعاني اهتمت بالنص بمفهومه كنص، واهتمت بالخطاب في علاقته التفاعلية، واهتمت بالمعنى الذي يقتضي بالضرورة التعامل مع النص سواء أكان النص جملة واحدة أو أكثر. فحين يقول "عبد القاهر الجرجاني": هو طويل النجاد" والقصد طويل القامة، و"كثير رماد القدر" ويعني كثير القرى، وفي المرأة: "نؤوم الضحى" والمراد أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها. فقد أرادوا في هذا

<sup>1</sup> فان دايك: علم النص، ص71.

<sup>2</sup> فرانسوا راستي : فنون النص وعلومه، ص69.

<sup>3</sup> فان دايك: علم النص، ص 73.

<sup>4</sup> روبرت دي بوجرند: النص والخطاب والإجراء، ص.ص 4،5.

كله معنى ثم لم يذكره بلفظه الخاص به ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود<sup>1</sup>. وهذا الفهم للنصوص لا يتم إلا داخل سياق معين. فحتى وإن كنا نتفق مع "تمام حسان" أن التراث العربي اهتم أكثر بالمعجم والوحدات المعجمية فقد أنتجوا ثروة معجمية زاخرة، إلا أن اهتمامهم بالوحدة اللغوية المفردة لا يُلغى ما كان لهم من رؤى نصانية تستحق الاهتمام والتبجيل. ولعلّ التوجهات الفكرية للعرب لاسيما مع "عبد القاهر الجرجاني" و"السكاكي"، و"القرطاجني" هي توجهات تنظر في النص وليس في المفردة الواحدة.

لكن البحث النصي الحدائثي تجاوز تلك النظرة المحدودة للغة إلى ذلك الفصل الحاد بين مستوياتها، فلا يمكن الاستهانة باللغة العادية، أو إهمال شأنها، إذ قد تتضمن مدلولات ثرية لا نجدها في أشكال أخرى من التعبير. وهكذا يتميز الوصف النصي عن الوصف البلاغي والأسلوبي، وهذا يعد خاصية جوهرية ومبدأ أساسي، أي شمولية النظرة واتساع أفق البحث اعتمادا على نماذج ثرية، تتجاوز حدود النماذج البلاغية والأسلوبية<sup>2</sup>.

إن الجملة لا تعبر ما دامت جملة فقط، والكلمة المفردة لا تعبر باعتبارها كلمة مفردة، إنما الذي يحقق وظيفة دلالية وأداء تبليغيا هو النص بغض النظر عن حجمه: طوله وقصره، فحين تصير الجملة نصا يصير لها وظيفة تبليغية، وحين تصير الكلمة نصا يصير لها كذلك أداء تواصليا.

و"السانيات النص مجال لفظي من مجالات السيميوطيقا يتناول كل المدى الممتد ما بين النصوص ذات الكلمة المفردة، إلى نصوص لها من الطول ما للكوميديا الإلهية. والصفة المميزة للنص هي وقوعه في

<sup>1</sup> عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، نقد علي أبو زقية، دط، موفم للنشر، الجزائر 1991، ص79.

<sup>2</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص60.

الاتصال"<sup>1</sup>. والمقصود بالكلمة المفردة الكلمة التي تقع في موقع سياقي تتحدد فيها الوظيفة التواصلية ككلمة "قف" في إشارات المرور، فهي رغم كونها كلمة مفردة ظاهريا فإنها تشكل نصا كاملا في وضع سياقي محدد، تؤدي دورا كاملا، بل أكثر من ذلك، إذ لها من القوة الإنجازية ما يجعلها فعلا كلاميا ناجحا بالقوة.

لقد تجاوز النظر في علم اللغة النصي إلى أنّ الكلمات "ليس لها معانٍ إنما استعمالات". يقول "فان دايك": "يرى علم النص أن مهمته تتجلى في وصف الجوانب المختلفة لأشكال الاستعمال اللغوي وأشكال الاتصال وتوضيحها"<sup>2</sup> وإن هذه الاستعمالات تخرج بها من محيط اللغة الساكن إلى محيط الكلام المتحرك. كما أن معنى الكلمة يكمن في استخدامها"<sup>3</sup>، فلا أساس لحياة اللغة خارج الاستعمال، وأساس الدلالة هو تحقيقها لفعل التواصل.

إن الدلالة إما أن تكون سياقية نسقية أولا تكون. ولا تكون العلامة اللغوية إلا بالدلالة، وكل علامة مهما كان حجمها إنما تكون دلالتها دلالة سياقية - نسقية فهي تتحدّد تحديدا نسبيا بالموقع الذي تحتله، ولا يوجد مكان لما يسميه بعض النحويين كلمات فارغة وأخرى مملوءة، كما أن الدلالة المعجمية إنما هي دلالة سياقية<sup>4</sup>. و"القراءة في نظامها الثابت هي عملية تفسير ما هو أعلى ألا وهو النص"<sup>5</sup>. فتحقق التواصل لا يكون إلا بالنص بغض النظر عن شكله.

<sup>1</sup> روبرت دي بوجرند: النص والخطاب والإجراء، ص72.

<sup>2</sup> فان دايك: علم النص، ص11.

<sup>3</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص25.

<sup>4</sup> محمد الشاوش: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية. تأسيس نحو النص، مجلد 1، ط1، المؤسسة العربية للتوزيع، بيروت. تونس، 2001، ص34.

<sup>5</sup> عبد الجليل مرتاض: في عالم النص والقراءة، دط، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ص101.

يمتاز التحليل النصي عن غيره باستقائه مقولات غير لغوية تشكّل أركاناً جوهرية في بناء النظرية النصية، ويشكل فيها تصور تفكيك النص إلى مكوناته الجزئية ثم إعادة بنائها بصورة كلية أساساً من أسس بناء نظريته.

ترى "جوليا كرسيفا" أن النص أكثر من مجرد خطاب أو قول، تقول في هذا الصدد: "النص جهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان بواسطة الربط بين كلام تواصلية يهدف إلى الإخبار المباشر وبين أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه أو المترامنة معه، فالنص إذن إنتاجية"<sup>1</sup>. إن النص حسب "كرستيفا" موضوع لعديد من الممارسات السيميولوجية التي يعتدّ بها على أساس أنها ظاهرة عبر لغوية. بمعنى أنها مكوّنة بفضل اللغة، لكنها غير قابلة للاختصار في مقولاتها. وبهذا فإن النص جهاز عبر لغوي يعيد توزيع نظام اللغة. ثم إنه عملية إنتاج للأدلة والمعاني والصور السيميائية المتعددة.

إن الامتداد المعرفي واتساع أفق علم النص وتوسعه الدائم وتداخله مع علوم أخرى كان نتيجة ضمه لقواعد ونماذج واستراتيجيات اعتمد عليها ثم تجاوزها إلى إمكانات أخرى، أما نظريته الشمولية فهي التي مكنته من الوصول إلى أبعاد معرفية واسعة: دلالية وإشارية وإحالية وإيحائية تستعصي على النظر المحدود. ثم استعان علم النص بما يدور فيما وراء اللغة في التحليل والتفسير، واضعاً نصب عينيه مستويات القراءة وأحوالهم النفسية والاجتماعية، وتعدد القراءة وأشكال التواصل، ودرجات الفهم، والاستيعاب، وطرق التذكر والاستعادة، وإمكانات التأليف، وكيفيات الترابط الذهني وغير ذلك من إجراءات وعمليات لم يعرف أي علم آخر كيف ينظّم بينها ويفيد منها<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> جوليا كرسيفا: علم النص، ترح فريد الزاهي، مرج عبد الجليل ناظم، ط2، دار طوبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1997، ص21.

<sup>2</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص9.



## 1 - 2 - النشأة والتطور

إن البداية الفعلية لعلم النص كانت في منتصف القرن الماضي، حينما نشر "زيليج هاريس" عام 1952 بحثا بعنوانه "تحليل الخطاب"، ولم تكن هذه المحاولة لـ "هاريس" تأسيسا لعلم جديد بقدر ما كانت تعديلا لنظريته، وخطوة لنقل المناهج البنوية التوزيعية في التحليل إلى مستوى النص<sup>1</sup>.

كما يعتبر عالم اللسانيات المعاصر "هيمسلف" من الأوائل الذين نظروا وأقروا بوجود علم يسمّى علم النص، وهو "من القلائل الذين لهم الفضل في طرح الفكرة القائلة بأن نظرية اللغة هي نظرية النص"<sup>2</sup>.

وهناك من الباحثين من يقول إن الأمريكية "ناي" Nye أول من أنجز عملا يمثل إرهابا واضحا لعلم النص في أطروحتها للدكتوراه عام 1912.

أما المؤسس الحقيقي لعلم النص باعتباره منهجا له أسس وآليات وركائز علمية حتى غدا محطة هامة في الدراسات اللغوية واللسانية والنقدية والخطابية الحديثة فهو الهولندي "فان دايك" Van Dijk، الذي عمل على تكوين تصوّر متكامل حول علم لغة النص منذ 1972، مع كتابه "النص والسياق". ثم توالى الأعمال والأبحاث بعد ذلك، وظهر أعلام بارزون في هذا العلم من بينهم "جليسون" Gleason، و"هارفيج" Harweg، و"دريسلر" Dresser، و"فاينريش" Fanrich، و"كلاوس برينكر" Klaus Brinker، و"روبرت دي بوجرند" Robert De Beaugrande، وغيرهم<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> جمعان بن عبد الكريم: إشكالات النص . دراسة لسانية نصية، ط1، النادي الأدبي . المركز الثقافي العربي، الرياض . الدار البيضاء، 2009، ص19.

<sup>2</sup> فرانسوا راسي: فنون النص وعلومه، ص89.

<sup>3</sup> جمعان بن عبد الكريم: إشكالات النص، ص20.

فكانت الانطلاقة الفعلية لعلم النص إذن في السبعينيات بعد أن اكتمل بناؤه على أسس علمية، وبعد أن اكتملت ملامحه الفارقة. وإن كان من المستحيل أن ينفصل عن عدة علوم انفصالا كاملا لأنه يرتكز على خاصية التداخل. والعلوم كلها في حلقة حلزونية يكرر بعضها بعضا بزيادة وتجاوز وانتقاد واستمرار.

فعلم النص من أحدث فروع العلوم التي تتولّى استقراء النصوص. هناك من يضمه في سلك اللغويات، فيرى فيه فرعا من فروع علوم اللغة أو اللسانيات، وهناك من يرى فيه إجراء نقديا، عبارة عن محصلة لتطور المناهج النقدية الحداثيّة التي استمدت سلطتها ووجودها العلمي من اللسانيات مع مطلع القرن التاسع عشر.

والحقيقة التي تثبتتها الدراسات أن علم النص ليس أبدا فرعا من فروع علم اللغة، ورغم أن المنطلقات كانت منطلقات لسانية، فهو إجراء نقدي - لغوي في مقارنة الخطابات وتحليلها وفهمها.

ومصطلح علم اللغة النصي لا يخوّله لأن يكون علما لغويا كاللسانيات البنوية، أو التوليدية، أو حتى النحو التقليدي، إذ ندرك أنه مختلف تماما عن هذه المدارس اللغوية التي تُخدم اللغة في حد ذاتها كلغة دون النظر إلى ما تحويه من إنجازات فعلية. فهذا العلم إنما نشأ في أصله منتقدا النحو التقليدي الذي يغفل من مجال بحثه المعنى. وإذا كانت بعض الرؤى تقول إنه أمام إغفال اللسانيات هذا المبدأ الأساسي (المعنى) بات من الضروري أن تبحث المدارس اللسانية عن مجال تُخدم به النص، فإن الغرابة في هذا الفهم أن الدراسات اللغوية واللسانية وظيفتها خدمة اللغة في حد ذاتها كمبدأ أولي، وأقصى مبادئها التعامل مع الجملة كأكبر وحدة تحليلية، في حين قد تولت المناهج السياقية منذ أمد بعيد - رغم ما لها من نقائص - البحث عن معنى النص من خلال السياق.

ولتجاوز للنظرة السطحية في التعامل مع الخطاب، حاولت المناهج الحايثة ومن بينها البنوية الأدبية، والسيمايائية فهم المعنى من خلال بحث الأولى في الداخل النصي بإقصاء كل ما له علاقة بالسياق من مرسل

ومتلق، وحاولت السيميائية النظر في كيفية بناء المعنى، وقد أغفلت بدورها جزءا مهما من أساسيات البحث حين أهملت السياق. وهذا ما حاول علم النص تجاوزه بإعادة النظر في كل ما يمكن أن يدخل في تشكيل الخطاب، من أبسط وحدة إلى أكبرها، ومن أدنى مستوى إلى أعلاه، قصد الولوج إلى الداخل النصي من خلال المحيط النصي، ومن خلال البناء النصي. رغم أن "كل الأعمال ستظل لا محالة عاجزة وناقصة إذا لم يكن القارئ نفسه مزودا بالأدوات المعرفية وليس فقط بالأدوات الإجرائية، لأنه يجب أن يفرق بين ما هو ملك عام وما هو ملك خاص وبين ما هو علمي وما هو عملي"<sup>1</sup>.

تعرض علم اللغة النصي صعوبات جمة إلا أنه تمكن من إعادة الربط بين مستويات اللغة لإظهار العلاقات القائمة بينها، وكيفيات التفاعل، والتأكيد على استحالة استخراج الدلالات من تحليل مستوى بعينه. وقد "عبر أغلب علماء النص عن هذا النوع من الامتزاج في أكثر من موضوع من مؤلفاتهم، مقرين أن علم النص لا يعني أساسا بأشكال ونماذج أسلوبية محددة، بل يعني بوجه عام بتراكيب أشكال الاتصال النصية واستعمالاتها وتحليلها داخل إطار مدمج ومتداخل"<sup>2</sup>.

نتفق إلى حد بعيد مع "سعيد حسن بحري" حين يقول بـ"أن الجوانب اللغوية وغير اللغوية هي التي أثمرت جهود اللغويين في تحقيق التوازن بين اللسانيات ولسانيات النص، بين النحو ونحو النص، تأكيدا على أن نماذج النص لم تنشأ من فراغ، أو أنها مستقلة عن نماذج الجملة، بل إن مكونات نماذج الجملة ما تزال تشكل أجزاء جوهرية في نماذج النص"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> عبد الجليل مرتاض: في عالم النص والقراءة، ص 13.

<sup>2</sup> سعيد حسن بحري: علم لغة النص، ص 26.

<sup>3</sup> سعيد حسن بحري، علم لغة النص، ص 92.

علم النص إذن من العلوم اللسانية الحديثة، متداخل الاختصاصات، أو هو "علم عبر تخصصي" حسب التحديد الشهير لـ "لجوليا كرسيفا"، ما يعني ارتباطه بعلوم مختلفة، واستفادته من معارف متعددة. يدين إلى النحو وإلى اللسانيات، لكنه ليس نحواً وليس لسانيات، ولا يدين لهما فقط، إذ يضم إليه من الحلقات الفكرية السابقة، ويضيف إليها ما يراه مناسباً لفهم النص وقراءته واستنباط مغاليق معناه.

تجاوز علم النص ما كان من مناهج تقليدية ومدارس سياقية بحتة تبحث في النص من خلال الخارج نصي، كما تجاوز المناهج المحايثة التي تقترب من النص من خلال المحيط النصي أي حدود النص فقط. فهو "يستهدف ما هو أكثر عمومية وأكثر شمولية، يتعلق من جهة بكل أشكال النص الممكنة والسياقات المختلفة المرتبطة بها، ويُعنى من جهة أخرى بمناهج نظرية ووصفية وتطبيقية"<sup>1</sup>.

لم يرتبط علم النص ببلد بعينه أو بمدرسة بعينها أو باتجاه محدد<sup>2</sup>. إنه يأخذ من كل مجال بقدر، وغالبا ما نجد رواده لا يتفقون في توجهاته واهتماماته وتصوراتها، وإن كانت هناك نقاط اتفاق مشتركة فهي كونه علما يقعد للخطاب، أو العلم الذي يحاول أن يضع قاعدة نحوية للنص بحثا عن مظاهر الانسجام والاتساق.

والتطور الذي حدث في العقدين الأخيرين من هذا القرن - حسب "صلاح فضل" - "كان سببا في أن تصير مشكلات التحليل النصي وأهدافه الموزعة على العلوم المختلفة موضوعا لدراسة متكاملة جديدة مشتركة بين تلك العلوم التي توصف أساسا بأنها عبر تخصصية"<sup>3</sup>.

تبلورت أهداف الاتجاه النصي مع دراسات متأخرة، حيث قامت برسم حدوده ومناقشة أوجه الخلط بينه وبين العلوم الأخرى المتداخلة معه. ولا يهتم علماء النص بالأشكال البلاغية، لأن اهتمامهم ينصب على

<sup>1</sup> فان دايك: علم النص، ص14.

<sup>2</sup> سعيد حسن بحيري: علم اللغة النصي، ص 1.

<sup>3</sup> صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ط1، مكتبة لبنان ناشرون. الشركة العالمية للنشر، مصر. لبنان، 1996، ص318

أبنية وأساليب تقوم بوظائف بلاغية<sup>1</sup>. و"ليس من نهمهم أن يتعمدوا انتقاء الأشكال واستخراجها من هذا النسيج اللغوي لتسليط الضوء عليها إذ إن وجودها وفعاليتها مرهون بهذا النسيج الكلي للنص"<sup>2</sup>.

لم يعد مفهوم النص متعلق باللغة، وإن كانت اللغة أدواته، فقد تطور مفهومه بتطور المفاهيم والرؤى والإيديولوجيات وتعقد الحياة ودخول الآلة إلى محك الحضارة والحداثة، وحسب "فرنسواز راستين" فإن "مفهوم النص تطور بإيقاع كبير مع الرقمية"<sup>3</sup>. وتحليل النص لا ينحصر في مقولات اللغة رغم أنه مشكل منها. إلا أنه يراعي جوانب لا تتمثل في الواقع اللغوي الفعلي، بل توجد في الواقع الخارجي الذي يعبر عن مقولات غير لغوية، أي مقولات خارج النص.

يعتبر المحللون النص عملية إنتاج، بل يلحون على هذا المفهوم. ولا يعتبرونه وصفاً أو سرداً لحقائق اللغة فحسب، بل يترك مساحة كبيرة من الحرية للمفسرين كي يقدموا قراءتهم من خلال عمليات تفكيك الأبنية اللغوية الفعلية، وتمثل أبنية دلالية كبرى تجمع بينها، وتخلق توالداً مستمرا. باختلاف النظر إلى أوجه التعالق من الدوال والمدلوات.

"قد تعني فروع العلوم المختلفة بالنصوص، ولكن تهتم بها على أنها مصادر لمعلومات ذات طبيعة مضمونية معينة، وطبيعة شكلية محددة، في حين يُعنى علم النص بمضمون النصوص على أنها ليست إلا نتيجة لقواعد دلالية وتداولية، كما يركز على ظروف إبداع تراكيب النصوص وتأثيراتها"<sup>4</sup>.

من الطبيعي النظر إلى اللغة على أساس أنها تتأثر في صياغة المعنى بتكاتف العناصر الداخلية والخارجية، فهي كائن اجتماعي يتأثر بالمتغيرات النفسية والاجتماعية للأفراد والجماعات. لذا فللخروج بمعنى ما

<sup>1</sup> سعيد حسن بحيري: علم اللغة النصي، ص 71.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

<sup>3</sup> فرنسواز راستين : فنون النص وعلومه، ص 112.

<sup>4</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص 120.

لا بد من تقصّي كل جوانب الظاهرة اللغوية للحكم عليها، لإبراز المعنى الذي تشكله تلك الظاهرة بمعطياتها الداخلية، أي السياق اللغوي (سياق التلفظ)، والمعطيات الخارجية (سياق الموقف أو سياق الحال).

ليس ضرورياً أن تكون اللغة لفظاً، فقد تتشكل خارج الألفاظ، ورغم ذلك فإنها ستؤدي وظيفة الاتصال الموكلة إليها فتشير بوضوح للمعنى المراد<sup>1</sup>، فكل ما يحقق وظيفة التواصل فهو لغة.

أما بلغة السيمياء فهي علامة غير لغوية تحقق الاتصال والتفاعل في المجتمع، فالسيمائيون يميزون بين العلامات اللغوية والعلامات غير اللغوية في عملية التواصل، واللغة عندهم علامة كما أن كل نقطة في الكون عبارة عن علامة، فالإنسان علامة، والفراغ علامة واللون علامة واللغة علامة. أما التداولية فهي تستعين بالعلامة غير اللغوية لفهم المواقف، فالتداولية وبإيجاز تدرس علاقة العلامات بمستعملي هذه العلامات. ثم لم تلبث أن حلت كلمة "نصوص" محل "علامات"، بحيث أصبحت التداولية تُعنى بتحليل العلاقة بين النص ومن يستخدمه، في حين يُعنى النص بتوضيح الشروط المحددة والقواعد التي تضمن صيغة الأقوال جيداً. وتتم الدلالة بالشروط التي تجعل هذه الأقوال مفهومة وقابلة للتفسير سواء فيما يتصل بالمعنى أو المشار إليه<sup>2</sup>.

يعتبر التراث اللغوي محطة هامة توقف عندها علماء النص ملياً، ونظروا إليه نظرة علمية فاحصة، واستنبطوا منه تصورات كثيرة ومتعددة، ثم أعادوا صياغتها وتوظيفها بحيث تنتقل بين المستويات، فمن مستوى استخدام محدود، إلى مستوى غير محدود يكون منطلقاً لإبراز جوهر اللغة ووظيفتها محاولاً التعمق في فهم الظاهرة اللسانية<sup>3</sup> ما يفرض لأن تكون دراسة اللغة دراسة نصية من منطلق "أن الناس لا تنطق حين تنطق ولا تكتب حين تكتب جملاً أو تتابعاً من الجمل، ولكنها تعبر عن الموقف اللغوي الحي من خلال حوار معقد

<sup>1</sup> فاطمة الشيدي: المعنى خارج النص، دط، دار نينوى، دمشق، سورية 2011، ص.ص 12، 13.

<sup>2</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص 125.

<sup>3</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص 36.

متعدّد الأطراف مع الآخرين"<sup>1</sup>. ولقد كان جزءا من هدف "وتكنشتاين" تأكيد تنوع وظائف الاتصال التي تؤديها اللغة، وشعاره "لا تبحث عن المعنى بل ابحث عن الاستخدام، فهناك علاقة جوهرية بين المعنى والاتصال"<sup>2</sup>.

هناك صلة وثيقة بين البلاغة وعلم النص، بل تعتبر البلاغة تمهيدا أصيلا لعلم النص، فلا يمكن فهم إجراءاته بمعزل تام عن البلاغة التي لها حضور في أغلب الدراسات والمناهج الحديثة كالأسلوبية والتداولية في مبحث الحجاج. يقول "فان دايك": "يمكن أن نعد البلاغة السابقة التاريخية لعلم النص إذا ما تأملنا التوجه العام للبلاغة القديمة إلى وصف النصوص ووظائفها المتميزة. إلا أنه لما كان اسم البلاغة مرتبطا غالبا بأشكال ونماذج أسلوبية معينة وأشكال ونماذج أخرى فإننا نؤثر المفهوم الأكثر عمومية لعلم النص"<sup>3</sup>. فمهمة البلاغة هي البحث في خصائص الكلام وفي علاقتها بقواعد الانتظام التي تقدمها قوانين اللغة، ولا يفسّر التفرد إلا من خلال علائق محددة بالانتظام. وتتوجه البلاغة إلى المستمع أو القارئ لتؤثر فيه، وتلك العلاقة ذات خصوصية في البحث اللغوي النصي، إلا أن العلاقة العكسية لا تقل عنها أهمية، وهي غير متفردة في ذلك، لأن عملية الاتصال تجمع العلاقة بين أطراف الاتصال الأساسيين (نص، منتج، متلق) وكيفيات التفاعل بينها.

يعد علم النص الوريث الشرعي للبلاغة التي تقوم بتوجيه المتلقي بحيث يتعرف على المرسل، سواء أكان متكلمًا أو كاتبًا<sup>4</sup>.

استفادت النظريات الحديثة التي تهتم بنماذج إنتاج النص من مفاهيم واقتراحات البلاغة القديمة والوسطى والتي تنظر إلى النص باعتباره نصا ينتج في سياق محدد، يقوم على مبدأي المناسبة والغرض. وكما هو

<sup>1</sup> المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

<sup>2</sup> جون لاينز: اللغة والمعنى والسياق، ترج عباس صادق الوهاب، مرج يوبيل عزيز، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، 1987، ص34.

<sup>3</sup> فان دايك: علم النص، ص 23.

<sup>4</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص7.

معلوم فإن الدراسات النصية الحديثة ضمت الأفكار الجوهرية للبلاغة، ثم توسعت فيها، لذا نرى وجوه اتفاق متعددة بين التوجه البلاغي والتوجه اللساني، بل عادة ما يصعب الفصل بين معطيات الاتجاهين، فنحسب بعض المباحث البلاغية إنما هي نصية، وبعض المباحث النصية بلاغية في صميمها<sup>1</sup>. "وليست محاولة علم النص في جوهرها إلا السعي المستمر لضم هذه العمليات في إطار محدد بعد أن تبعثت بين عدة علوم، ركز كل منها على جانب بعينه مهملا الجوانب الأخرى"<sup>2</sup>.

## 2 - لسانيات النص - البديل للاستقراء النصي

حاولت النظريات النقدية منذ القديم تقديم اقتراحات تقترّب من خلالها إلى معاني النص، وإن كان لتلك النظريات جدواها إلا أن المقاربات كانت دوماً محدودة بحدود الضوابط التي تتحكم في المنهج المتعامل معه، فبعد السلطة الريادية للمناهج السياقية التي تحكمت على ساحة النقد لقرون عدة، ظهرت المناهج المحاينة

<sup>1</sup> المرجع نفسه، ص 167.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، الصفحة نفسها.



بعد الثورة اللسانية استفادت منها وتجاوزتها، لكن ظلت كل تلك المناهج - رغم ما لها من علمية - محدودة بسبب محدودية زوايا النظر التي تبنتها كل نظرية، وظل الاقتراب من المعنى - الذي هو صلب أية عملية نقدية - اقترابا محدودا له نقائصه التي اقتضت النظر إلى علم آخر أكثر إماما وإحاطة، وينشد التكامل المعرفي، فكان علم النص علما لسانيا ذا توجه نقدي، يجمع الشتات الذي يُعتقد أنه لا يجتمع. علم يكسر النظرة الأحادية التي تفصل الدراسات الأدبية عن الدراسات اللغوية، ليفرض نفسه على الساحة النقدية واللسانية العالمية بإجرائه العلمي والصارم، ويكون البديل الأمثل عن كل أشكال الدراسات التي تضع ذلك الحاجز الوهمي بين ما هو أدبي وما هو لغوي، إنه يقرّر إقرارا واضحا أن الخطاب لغة، وأن اللغة هي أداة تواصل تفرض نفسها لأن تكون خطابا، وأن دور اللغة إنما هو فرض التواصل، وتحقيق الدلالة، ولا يتأتى لها ذلك إلا إذا كانت في شكل نص.

والأساس من دراسة اللغة بأي شكل من الأشكال هو فهم المعنى واستنباط المقصد وتحقيق الدلالة. فكان هذا المسعى الرائد في مجال الدراسات الحداثيّة يعطي الضوء الأخضر لكي تتحد الدراسات اللغوية والأدبية في علم يسمى علم النص.

إن الأساس الذي بموجبه يُعتد بنصيّة النص، من وجهة نظر المتخصصين في المجال هو وجود النص - كمجموعة جمل - باعتبارها وحدة تخضع لقواعد الترابط النصي. فما يحقق نصية النص أشكال ومعايير عديدة لكنها محددة، أهمها على الإطلاق الترابط النصي من خلال مظهري الاتساق والانسجام.

اختص علم النص بتحديد المشترك النصي الذي يميز النصوص المختلفة، كما اختص بإبراز السمات التي تميز نصا عن آخر، وفي هذا استقراء لأوجه الاختلاف الموجودة بينها، استقراء دقيقا، مع العمل على إيجاد العلاقات التي تحكم حركة الانتقال بين المستويات. والتأكيد على أن النص حدث تبليغي يؤدي دلالة، ويكون

تفاعلا واستمرارا تواصليا يطبعه نظام من العلاقات بين المفردات وبين المعاني، وبين المتخاطبين وبين أطوار خطة الكلام<sup>1</sup>.

أما المعنى الكلي للنص فهو أكبر من مجموع المعاني الجزئية للمتواليات الجمالية التي تكوّنه، ولا تنتج الدلالة الكلية له إلا بوصفه بنية كبرى شاملة. فالنص إذن يُنتج معناه بحركة جدلية، تتفاعل أجزاؤه باستمرار. ويُنظر إلى ذلك الانسجام الداخلي بين الدلالات الجزئية<sup>2</sup>. أي إنه "نظام فعلي تتجسّد فيه خيارات مستقاة من النظم المفترضة التي تعدّ اللغة أوضحها وأهمّها"<sup>3</sup>.

كثيرا ما يختلف الباحثون حول الهدف من تحليل النصوص، وذلك لاختلاف النظريات التي أسست لمقاربة أجناس وأصناف وأشكال مختلفة من النصوص، وهذه النظريات أُسّست على فلسفات مختلفة، تحاول تقديم إجابات حول تساؤلات ما تلبث أن تشير الباحثين بعد فترة<sup>4</sup>، وهذا ما يؤدي إلى ظهور نظرية على أنقاض نظرية سابقة عليها، رافضة لها، أو مكملة لبعض إجراءاتها التي تعتقد أنها ناقصة.

وكان حدّ النصّ إنه حدث اتصالي إيذانا بإدراج دراسة النصوص في إطار نظرية الاتصال، إذ أن الدور التوصيلي أساس التفاعل الاجتماعي.

وأهم علم ينظر إلى علم لغة النص على أنه علم يقوم على أساس اتصالي بوجه عام يبحث في إمكانات التأثير الاتصالية للنصوص الباحث "كומר" الذي يؤسس تعليلاته للمنطوقات اللغوية على أساس

<sup>1</sup> محمد الديدوي: الترجمة والتواصل - دراسة تحليلية عملية لإشكالية الاصطلاح ودور المترجم، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب . لبنان، 2000، ص15.

<sup>2</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص75.

<sup>3</sup> محمد الديدوي: الترجمة والتواصل، ص15.

<sup>4</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص 166.

نظرية الحدث الكلامي<sup>1</sup>، "فالاستعمال اللغوي ليس إبراز منطوق لغوي ما فقط، بل إنجاز حدث اجتماعي معين أيضا في الوقت نفسه"<sup>2</sup> وهذا هو الأساس الذي قامت عليه النظرية التداولية.

لم تتمكن المناهج الحدائية - رغم سعتها - من تحليل النص تحليلا شموليا، فإجراءاتها جميعها جزئية، لا تعبر عن فحوى الخطاب، ولا تصل إلى فهم الدلالات المبطنة والمقاصد النصية، لذلك كان التفكير في منهج أكثر صرامة، وأكثر علمية الممثل في لسانيات النص الذي يقوم على القراءة العلمية للنص والقائم على عنصري التواصل والتماسك النصي، وبهذا فعلم النص يجمع بين المناهج النقدية الحدائية، فهي جميعا تشترك في العنصر اللساني وتتكامل بحيث تصيب الخطاب في كليته<sup>3</sup>.

يرى "فان دايك" أن فهم النص يمر عبر استنطاق محددات السياق، أي قراءة النص المصاحب للنص الأصلي المحدد في الظروف التي بعثت به إلى الوجود، من دوافع سياسية واجتماعية وتاريخية وثقافية وفكرية، وفي كل هذا اهتمام بالمرسل صاحب الأثر، فعلاقة النص بالسياق علاقة وثيقة، لا يمكن فهم الأول بمعزل عن الثاني، كما يتطلب فهم النص في مجال علم النص على استثمار الأبعاد التداولية التي تتمظهر أساسا في الفعل الكلامي الذي يعطي أسسا وقواعد تجسّد مبدأ التعاون في فهم الخطاب. يقول "فان دايك" في هذا الصدد: "إن العلاقة بين النص والسياق تجري ضمن ما تجري من خلال تبعية متبادلة بين تتابعات الجمل وتتابعات الفعل الكلامي"<sup>4</sup>.

من مداخل فهم نص معين فهم الخصائص الأسلوبية وتمييزها، ما يعلن فعليا تميز نص عن آخر، إذ الأفكار تتماهى ويُعاد ذكرها، و"المعاني مطروحة في الطريق"، لكن الصيغة التي بها تقال تلك المعاني، أي

<sup>1</sup> سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، ص.ص 159، 160.

<sup>2</sup> فان دايك: علم النص، ص 117.

<sup>3</sup> أحمد مداس: لسانيات النص - نحو منهج متكامل، ط1، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، 2007، ص 5.

<sup>4</sup> فان دايك: علم النص، ص.ص 146، 147.

الأسلوب هو الذي يميز النصوص عن بعضها البعض من جهة، ومن جهة أخرى يحدد الدلالات المنطوية تحت ركام الكلمات التي تنتظم في نسق إخباري معين. يقول "فان دايك": "إنه في علوم النص الأخرى يُعنى بالطريقة التي يمكن أن توجد المنطوقات وبخاصة أسلوبها، سيرا لأغوار الخصائص المستمرة المندرجة تحتها الخاصة بمستخدم اللغة"<sup>1</sup>. فالفروق الموجودة هي فروق أسلوبية، أما المعاني فهي ذاتها، والاختلاف في طريقة القول وليس في القول ذاته.

تتسم اللغة المكتوبة خاصة الأدبية منها بعلاقات داخلية متشابكة، لذلك كان الاهتمام بتناولها تناولا ألسنيا بعدما أثبتت تطبيقات علم اللغة الأدبي فشل النحو التقليدي في الكشف عن خصوصية النصوص الأدبية، هذه النصوص التي تحمل تفاعلات داخلية مميزة، ومعاني مبطنة ودلالات عميقة لا تستنبط من خلال المظهر السطحي الذي يرسم النص الأدبي، إنما يستوجب الكشف عن خصوصيته دراسة لسانية تحيط بكل جزئياته، وتخضعه لآليات التفسير<sup>2</sup>.

من بين الأسئلة التي أثرت حول قراءة النص وتفسيره وفهمه كيفية استخراج معنى النص من بنية النص ذاته دون اللجوء إلى النص المصاحب أي السياق المحيط بالإنتاجية، مع الإقرار بعدم وجود معنى واحد فقط للنص، ثم كيف يدخل المؤلف في العملية الإنتاجية ليصير شريكا لصاحب الأثر في إنتاج المعنى، والتساؤل عن مدى تحقق المقصدية في النص، وهل المؤلف هو منبع المعنى فيه، أم أن للقارئ دوره الفعال أيضا، أم أنها عملية متبادلة بين المنتج والقارئ حيث يكون المؤلف هو المنتج الأول والقارئ هو المنتج

<sup>1</sup> فان دايك: علم النص، ص 178.

<sup>2</sup> ابراهيم خليل: في اللسانيات ونحو النص، ط1، دار المسيرة، عمان، الأردن 2007، ص.ص 201، 202.

الثاني<sup>1</sup>، وكانت هذه العناية الشديدة بعد سلسلة من التساؤلات التي أدت إلى الوصول إلى هذا المنهج الشمولي في الطرح والرؤية، رغم اختلاف وجهات نظر رواده حوله.

لكن الأساس العام في تجاوز بعض الأنماط المعرفية السائدة وتحقيق التداخل بين ما هو لغوي وأدبي كان نتيجة حتمية لتساؤلات منهج علم النص، ونتيجة حتمية للتناقض التي عانت منها المناهج السابقة عليه، سواء المناهج النقدية أو المدارس اللسانية.

إن مهمة علم لغة النص تتجاوز المهام التقليدية المقتصرة على تنظيم الحقائق اللغوية التي تعنى بالمستويات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية من خلال وصف ظواهرها وتحليلها، فقد صارت تهتم بـ"أشكال الاتصال اللغوي وأطرافه وشروطه وقواعده وخواصه وآثاره، وأشكال التفاعل، ومستويات الاستخدام وأوجه التأثير التي تحققها الأشكال النصية في المتلقي وأنواع المتلقين وصور التلقي وانفتاح النص وتعدد قراءاته"<sup>2</sup>. وبهذا يحقق المنهج البعد التكاملي باستيعابه لأقطاب الإرسال، والسياق الذي يحقق التواصل بين النص والمتلقي، ويحقق في الآن ذاته المقصدية التداولية التي تستنبط من خلال الدلالات الخفية التي تفهم من خلال الضمني من القول.

إن لغة النص لغة متفاعلة، متحركة، تخلق أبنية جديدة، وتستوعب مضامين جديدة تستلزم وجود قراءة حيوية تكون في مستوى هذا الإنتاج، قراءة علمية فاحصة لها القدرة على إبراز طاقة النصوص الضخمة، والقيام بعمليات الوصف والتحليل والتفسير، وهذه العملية المعقدة لا تقل أهمية عن عملية الإنتاج النصي.

وكما يقول "سعيد حسن بحيري" "إن إنتاج النص مرتبط بزمن محدد أما تلقيه أو التأثير الذي يحدثه فلا يرتبط بزمن معين. بل تحدث تلك العملية في أزمنة عدة وتظل تنتج تفسيرات تتعدد بتعدد القراءات،

<sup>1</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص 162.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص.ص 162، 163.

وتغلق حين يعجز القارئ عن النفاذ إلى داخله، ويظل عند السطح"<sup>1</sup>. واللغة هي المدخل إلى العوالم الكامنة فيه، فاللغة جزء مهم في هذه البنية تتعرض للتحويل. وتعلمنا اللغة في المؤسسة نكتسب معها بنياتها المصاحبة لها والمنتجة بواسطتها، ونسهم بدورنا في إعادة إنتاج ثوابتها، ونحن نكتب أو نفكر بواسطتها، وعن هذا الطريق تتولد عندنا خلفية نصية معينة لها معاييرها وقيمها التي تميزها عن النصوص الأخرى، وبواسطة هذه الخلفية نحكم على النصوص ونقومها. لكنه بتعدد خلفياتنا النصية، ولا سيما بتفاعلنا مع خلفيات نصية تختلف نوعيا عن خلفيتنا الأصل يحدث التصارع بين الخلفيتين اللتين نملكهما، وتحاول الخلفية النصية الجديدة بفرض نفسها علينا، وقد تنجح في زحزحة خلفيتنا الأولى، وهكذا مع كل تفاعل مع مجموعة من النصوص لها معاييرها وقيمها المميزة والخاصة بها لوحدها.

إن فعل القراءة هو الذي يصنع الإنسان، ويوجه تفكيره نحو تكوين الشخصية التي هو عليها الآن، والمختلفة عن شخصيات الآخرين غيره. وفعل القراءة هو الذي يجعلنا جميعا نختلف عن أسلافنا، تغير اضطراري بمساندة عامل الزمن، ويحدث هذا التغير بشكل تدريجي ومعقد. "إن تكوين الخلفية التي يحكم بها صاحب اللغة على النصوص يتغير بتغير الزمان والمكان، وهذا ما يفسر تعدد القراءات، ليس من خلال تعدد القراء فحسب، بل من خلال قارئ واحد بعينه، إنه في كل قراءة للنص قد يجد معنى غاب عنه في قراءة سابقة ولا تتحقق لحظة التفسير إلا حين يلتقي تفاعل لغة النص بتفاعل القارئ"<sup>2</sup>، وهي عملية ليست سهلة، وليست مستحيلة لكنها تتطلب قارئاً يقظاً متنبهاً، حيث يتمكن بمدركاته الحسية، واعتماداً على معايير نصانية، وقدرة استنتاجية وتحليلية واستدلالية وتأويلية على فهم المعطيات النصية، وفي هذه الحالة فقط يقع ذلك التفاعل وتتوطد العلاقة بين النص والقارئ، والنص لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، إنه يدفع بك دوماً نحو اكتشاف جديده، والغوص في عمقه. ويعطيك مع الزمن دلائل حياته.

<sup>1</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص 168.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص.ص 168، 169.

إن أكثر ما ينطبق عليه هذا الفعل في الإثارة القرآنية هو النص القرآني، الذي لا يزال العلماء يكتشفون لآلته، وفي كل زمن يجدون فيه ما لم يجده الأولون، مصداقا لقوله تعالى: "قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا" الكهف/ الآية 109.

إن القراءة التي تؤمن أن النص منتوج مغلق على ذاته صارت تقليدية، ومرفوضة بسبب النتائج المحدودة التي تتوصل إليها، فهي تنظر إلى النص مكتملا، وتبحث فيه جملة أي "تقوم على أساس تقديس البنية النصية الكبرى وقيمتها، وبواسطتها نقرأ النص ونتلقاه، لكن الخلفية النصية المفتحة جديدة ومتجددة لأنها ترفض الثبات والمطلق، تتجاوز النص وهي تتلقاه ولا تسعى إلى الحكم عليه أو محاكمته وفق الجاهز عندها في خلفيتها النصية وإلا أصبحت بدورها منغلقة، وإعادة الفهم لا تشير بالضرورة إلى فهم سابق خاطئ"<sup>1</sup>. ويقال إن النص الحي هو "النص الذي تنتهي من قرائنه ولا تنتهي"، حيث يعرض نفسه دوما في واجهة إعادة قراءة بما يمتلكه من حيوية تسامر الزمن، إنه يرفض الانغلاق على نفسه، وعلى قارئ واحد مقصود يعطيه الحياة التي يريد لينهي بذلك حياته المتجددة، لأن النص ملك للقراء في شتى الأزمنة والأمكنة. ملك للجمهور الكوني الذي يحتضن الإبداع والإنتاج والعطاء الفني في شتى الظروف والأزمنة. وإذا كان علم اللغة النصي يقربنا إلى نتائج تقترب كثيرا من الدقة، ويوصل في أغلب الأحيان إلى استشفاف المقاصد الخطابية فإن اللغة إنعتاق في غالبه عن عالم المحدودية التي تغلفه.

كما أن تفسير النص يحتاج إلى معرفة عميقة وشاملة، لا يقتصر دور القارئ على تفسير البنيات اللغوية، إنما يتجاوز ذلك إلى "إدخال معارف وتصورات ومقولات تثري عملية التفسير وتكسبه قدرات تتعلق بإجراءات التحليل، مثل الاختيار والربط والتعميم وإعادة تكوين الجزئيات"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص 169.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 170.

يرى "فان دايك" أن المعنى يمكن الوصول إليه عن طريق التفسير الواقعي للنصوص، ويستخدم مصطلح تفسير عند الغرب كما يقر بذلك "فان دايك" في علم الدلالة والتداولية، أما في النظرية العربية فيتعلق مصطلح التفسير أكثر ما يتعلق بالدراسات القرآنية. أي بفهم النص القرآني. ويخضع مفهوم التفسير إلى قواعد علم اللغة النصي إحاطة بالسياق الذي يدرك من خلال "أسباب النزول".

من أشهر الأعلام الغربيين الذين اهتموا بوضع نحو للنص "هاليداي" و"رقية حسن"، "فان دايك"، "براون" و"يول"، "روبرت دي بوجراند"، ولكل من هؤلاء الأعلام الثلاثة آلية تختلف عن غيره، لكنها تلتقي جميعا لتكمل بعضها البعض.

يرى "هاليداي" و"رقية حسن" أن النصية تتجسد في النص حين يتحقق فيه الترابط الذي يعتانه بالاتساق، ووسائل الاتساق عند هذا الثنائي إحصائية وأخرى استبدالية، مع تفريع كل وسيلة إلى أنواعها<sup>1</sup>.

يهتم الباحثان بالكيفية التي يتماسك بها النص وهو ما يعتانه بالاتساق، والمتابعة الدقيقة لجهدهما أثبتت اهتمامهما إضافة إلى مظاهر الاتساق بما يميز النص عن اللانص، لهذا يميز الباحثان بين "الكل الموحد الذي يشكّل نصًا وبين الجمل غير المترابطة التي توصف بالانصية"<sup>2</sup>، إيمانًا منهما أن النص له ما للجمل من قواعد ترتبه وتحدده وتموقع وجوده ضمن قواعد نحوية كبرى، مع العلم أن جهدهما كان في مجال لسانيات النص.

يحصّر الباحثان أدوات الاتساق في الإحالة، والاستبدال، والحذف، والوصل، والاتساق المعجمي الذي ينقسم إلى تكرير وتضام. وهي إجراءات قواعدية - وصفية دقيقة، تحدّد فعلا النص، لكن دون أن

<sup>1</sup> أحمد خطاي: لسانيات النص - مدخل إلى انسجام الخطاب، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، 1991، ص.ص 11، 12.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص12.



تتجاوز إلى مقاصد القول. ولهذا يعتبر جهد هذا الثنائي في مجال النحو النصي البحث، لا يمت بعلاقة إلى الاستعمال اللغوي والقواعد التداولية المتحكمة في الأداء.

أما "فان دايك" فينطلق من نظرتة إلى النص باعتباره "وحدة متكاملة"، ويقدم أشكال الاطراد أي صور الانتظام التي تنتج عن الاستخدام الاتصالي، ويعمل "فان دايك" على معالجة أشكال نصية متباينة في سياقات تفاعل اجتماعي مختلفة، والدراسة العميقة للسياقات النفسية والاجتماعية تحتل مركزا أساسيا في اهتمامه.

وحسب "سعيد حسن بحيري" ينبغي فهم وإدراك واستيعاب أوجه الفرق بين الدراسات النصية والدراسة الأسلوبية من جهة، وبين الدراسات النصية ومختلف المقاربات الأخرى من جهة ثانية. وأساس البحث هنا الاطراد والتتابع، بمعنى الاهتمام بالعناصر التي تتشابه وتتكرر في مقامات نصية مختلفة، ولا يُهتم بأشكال الانحراف، كما يراعى النص ككل ولا يبالى إطلاقا بالجمل النصية أو أجزاء النص إلا باعتبارها محطة يجب المرور عليها وصولا إلى البنية الكلية أو البنية الكبرى التي تعتبر الموضوع العام الكلي للنص المعالج<sup>1</sup>.

يرى "فان دايك" أن استيعاب النص لا يتعلق بفهمه والاحتفاظ به وتذكّره فحسب، بل بعمليات إدراكية أخرى "كوضع الروابط بين معلومات من نص ما والمعارف والمعلومات التي نمتلكها من قبل لزيادة معرفتنا أو تصحيحها. وفضلا عن ذلك فنحن قادرون على الإجابة عن أسئلة متعلقة بنصوص، ولنا القدرة على وصف أو تعديل نصوص، أو تلخيصها أو التعليق عليها. نستطيع بمساعدة معلومات نصية أن نحل مشكلات أو نوجّه أفعالنا على نحو آخر، مثلا من خلال إرشاد الاستعمال"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص 100.

<sup>2</sup> فان دايك: علم النص، ص 259.

إن ما يُقرأ من معلومات يُخزّن في الذاكرة القصيرة المدى إلى أجل، وإن لم يكن من المنطقي أن يعيد السامع صياغة ما يسمعه إعادة حرفية، لكنه يستطيع أن يعيد صياغة النص بأسلوبه من خلال ما يذهب إلى الذاكرة الطويلة المدى محتفظا بالبنية الكبرى، ولا يتم هذا الفعل إلا من خلال ربطه بما قرأه، بمعارفه الخلفية، والبديهيات المعرفية والمرجعيات الفكرية التي تحكم تفكيره، وعلى هذا الأساس يكون تعامله مع النص وتعالقه بالخطابات التي يتعامل معها فهما وتحليلا وقراءة. يقول "فان دايك": "لذلك نفترض أن تلك المعلومات العابرة تُخزن في ذاكرة المدى القصير لوقت معين مادام يوجد مكان في ذاكرة المدى القصير هذه، ومع ذلك فمحتوى الجملة، أي بنيتها الدلالية يجب في العادة أن تقع لمدة أطول تحت التصرف لإنشاء علاقات الربط النحوي والتماسك الدلالي بالمعاني السابقة واللاحقة للجملة، بل لبناء معرفتنا على المدى الأبعد في الوقت ذاته أيضا. لذلك ينقل على الأقل جزء من تلك المعلومات إلى ذاكرة المدى الطويل ولهذا يطلق على ذاكرة المدى الطويل ذاكرة دلالية أو تصويرية أيضا"<sup>1</sup>.

يهتم "فان دايك" في مجال بحثه بالذاكرة ويراهما أساسية في تحقيق عملية التواصل، إذ إن المعارف تكتسب ثم تخزن في الذاكرة ليسترجعها الإنسان بعد ذلك ويحقق بها وظيفة التعامل والتفاعل الاجتماعية. كما يرى "فان دايك" أنه يجب أن يهتم مستخدم اللغة بـ "الفهم الأفقي للمكان والزمان والظروف، ويحصل المرء من خلال العالم الممكن الذي يزعم فيه شيء ما، على مدخل إليها وهو عالم يصير من جهته متاحا للسامع تارة أخرى من خلال النص البرغماتي الفعلي الذي يبلغ المتكلم من خلاله شيئا ما. ويفترض السامع أيضا أن الأحداث تقع في المكان ذاته متلاحقة بإيجاز"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> فان دايك: علم النص، ص 265.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 289.

وسَّع "فان دايك" التحويلات ليصف العمليات المعرفية التي تنتج النصوص. يقول: "يعني المرء في تخصصات علمية مختلفة بوصف النصوص إلى جانب أشياء أخرى أيضا، يحدث هذا انطلاقا من وجهات نظر مختلفة ومن خلال معايير كثيرة. وفي بعض الحالات يهتم المرء قبل أي شيء بأبنية النص المختلفة، وفي حالات أخرى يمتد الانتباه إلى وظائف النصوص وتأثيراتها"<sup>1</sup>.

لم تقتصر جهود "فان دايك" على البحث في النص إنما وسع مداركه وتوجه بجهوده نحو ربط النص بوظائفه وتأثيراته، مع استعانتة بمختلف العلوم والمعارف.

وأول ما يمكن ملاحظته على أعمال "فان دايك" "كسر الحاجز الذي يفصل علم الأدب عن علم اللغة، ثم كسر الحاجز الذي يفصل علم اللغة عن مختلف العلوم والمعارف"<sup>2</sup>.

كما أدخل في نظرياته عناصر مهمة تتعلق بقيمة المنتج وحضور المتلقي، واختلاف المعارف والاهتمامات، وأشكال الاتصال، وعمليات التلقي والتذكر والتماusk الجزئي والتماusk الكلي للنص، وأشكال الانزياح، والعلاقات الداخلية بين المتتاليات الجمالية، والترابط بين الأبنية الصغرى والأبنية الكبرى الكلية. فعلم النص "يستهدف ما هو أكثر عمومية وأكثر شمولية فهو يتعلق من جهة بكل أشكال النص الممكنة، وبالسياقات المختلفة المرتبطة بها ويعني - من جهة أخرى - بمنهج نظرية ووصفية وتطبيقية"<sup>3</sup>.

إن مستخدمي اللغة يخزنون في الذاكرة بنية نصية وأثناء عملية استيعاب النص تحدث مجموعة من التحويلات الدلالية. وحسب "فان دايك" هناك مجموعة من العمليات الدلالية لها دور عند استيعاب النص وفهمه، وهذه العمليات هي:

<sup>1</sup> فان دايك: علم النص، ص10.

<sup>2</sup> نوال لخلف: الانسجام في القرآن الكريم، ص26.

<sup>3</sup> فان دايك: علم النص، ص14.

1 - الحذف. 2. الإضافة. 3 - إعادة الترتيب. 4 - الإحلال. 5- إعادة التأليف<sup>1</sup>.

يعتقد "فان دايك" وجود مفاهيم كلية قادرة على إبراز التماسك النصي، يتوصل إليها في رأيه من خلال ما أطلق عليه "البنية الكبرى للنص"، وهي بنية تجريدية كامنة تمثل منطق النص أو ما يطلق عليه "غويماس" "البنية العميقة الدلالية والمنطقية". فالأول يرى أن وصف التمثيل الدلالي للجمل يظل غير مناسب دون توضيح الأبنية المجردة التي تضمنه أو تشكل أساسا له. ومن ثم يجب أن تُبحث العلاقات التداولية للأداء اللغوي بصورة مقبولة على أساس نحو النص ونحو الجملة أيضا، فلا يتحقق تواصل مستخدمي اللغة على أساس الجمل، بل يتحقق على أساس النصوص في الأغلب، وإن كان من الممكن ألا تتكون إلا من جملة واحدة أو كلمة واحدة.

كما يرى "فان دايك" أن مسألة وصف الحدث تذكر بوصف الجمل والنصوص المركبة التي لها معنى مقامي ومعنى عام أيضا، ولذلك يفترض وجود نية وقصد عامين سابقين إلى جانب المقاصد المقامية للأحداث الجزئية، ويطلق "فان دايك" على ذلك القصد العام خطة Plan، وتربط خطة ما مسار الأحداث الجزئية المختلفة فيما يتعلق بالنتيجة النهائية المحددة التي ينبغي أن تتحقق<sup>2</sup>. ومن أهم الأسس التي تحدث عنها "فان دايك" باستفاضة وجعلها قاعدة تقوم عليها نظرتة للنص أن فهم نص معين يقتضي الاهتمام بالدلالة والتداول، ولا يمكن الاستغناء عن أحد الطرفين.

<sup>1</sup> فان دايك: علم النص، ص310.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص125.

فُتَعْنَى الدلالة بثلاثة مسائل: الترابط، والانسجام، والبنيات الكلية، في حين يُعْنَى التداول بالأفعال الكلامية<sup>1</sup>. كما ركّز "فان دايك" على مفاهيم منطقية مهمة مثل حديثه عن معرفة العالم والعوامل الممكنة والإطار.

أما "براون" و"يول" فقد ألفا معا كتابهما الشهير "تحليل الخطاب". وللكتاب أهمية كبيرة في مجال علم النص بما له من أفكار رائدة ومفاهيم عميقة، ومنطق سليم.

إن تحقّق المعنى حسب "براون" و"يول" يتم من خلال السياق، وقد عالج الثنائي هذه القضية في طرحهما موضوع "دور السياق في عملية الفهم"، ويعتقد الثنائي أن الأدوات الإشارية مثل "هنا"، "الآن"، "أنا"، "أنت"، "هذا"، "ذاك" وغيرها يستوجب فهمها المعرفة على الأقل بھوية المتكلم والمتلقي والإطار الزمني والمكاني للحدث اللغوي<sup>2</sup>.

والسياق حسب "براون ويول" سياق نصي وسياق موسّع. وقد برهن الثنائي من خلال سلسلة من التجارب التي قدمها أن فهم النصوص لا يتوقف على معرفة أنظمة اللغة وقواعدها فحسب بل يتوقف أيضا على الاعتماد على معارف غير لغوية تتصل خاصة بالسياقات التي تقع فيها النصوص<sup>3</sup>.

هناك فرضية علمية تقر بوجود رابطة محددة بين "موضوع الخطاب" و"محتوى الخطاب"، فموضوع الخطاب يشمل العناصر المهمة الموجودة في محتوى الخطاب، ولو أمكن عرض عملية تصوير محتوى الخطاب في شكل سلم هرمي للعناصر الموجودة في الخطاب – كما يقول "براون ويول" لاعتبرنا العناصر الواقعة في أعلى السلم مرشحة تلقائيا لأن تكون المكونات الأكثر أهمية في موضوع الخطاب، ولو أمكن كذلك إثبات قدرة

<sup>1</sup> محمد خطابي: لسانيات النص، ص 27.

<sup>2</sup> براون ويول: تحليل الخطاب، ترح وتعلق: محمد لطفي الزليطني ومنير التركي، دط، النشر العلمي والمطابع. جامعة الملك سعود، دس ، ص 35.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص 87.

النّاس على تذكر هذه العناصر العليا في السلم أكثر من غيرها فإن ذلك قد يكون دليلا على أنّ ما نحمله في رؤوسنا بعد قراءة النص هي تلك العناصر التي تمثل موضوع الخطاب"<sup>1</sup>.

إن أول ما يميز جهد الباحثين تقسيمهما لوظائف اللغة إلى وظيفتين: وظيفة تعاملية دورها نقل المعلومات، ووظيفة تفاعلية تهدف إلى تأسيس وتعزيز العلاقات بين الأفراد والجماعات. يقولان في هذا الصدد: "أما الوظيفة الأولى التي تؤدّيها اللغة والمتمثلة في التعبير عن المضامين فنسميها وظيفة تعاملية، وأما الوظيفة المتمثلة في التعبير عن العلاقات الاجتماعية والمواقف الشخصية فنسميها وظيفة تفاعلية"<sup>2</sup>.

ميز الشائبي "براون ويول" بين النصوص المكتوبة والنصوص المروية، ثمّ ميزا بين الجملة والقول بالنظر - بعد ذلك - إلى العلاقة بين الكلام والكتابة، والعلاقة بين الجملة والقول. ويؤكدان في كل مرة على دور السياق وأهميته في عملية الفهم.

كما قسّما في هذا الصدد السياق إلى سياق الخطاب، وسياق المقام، والسياق الموسّع. فيتحكم سياق الخطاب (أي السياق النصي) في استنباط مقاصد الخطاب بما ينضوي تحت اللائحة من إحالة وافترض، ومعاني ضمنية، واستنتاجات. كما ينضوي في لائحة سياق المقام (أي السياق الخارج النصي)، كل الظروف المحيطة بإنتاجية الخطاب من باث وملتق ودوافع مختلفة تؤدي إلى بث رسالة الخطاب المعين. أما مفهوم السياق الموسّع فهو الذي يثبت مبدأ الفهم المحلي ومبدأ القياس وهي مفاهيم مستقاة من المنطق.

يقر "براون ويول" في المقدمة التي وضعها لكتابهما "تحليل الخطاب" أن مقارنتهما لتحليل الخطاب إنما هي مقارنة لسانية. إذ يصرحان بما يلي: "أما نحن فمقارنتنا لتحليل الخطاب في هذا الكتاب مقارنة لسانية

<sup>1</sup> براون ويول: تحليل الخطاب، ص.ص 124، 125.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص.1.

بالدرجة الأولى، فنحن نعالج فيه كيفية استعمال الناس اللغة كأداة للتواصل، وكيف يؤلف المتكلم رسائل لغوية يوجهها إلى المتلقي، فيقوم هذا بمعالجتها لغويا على نحو خاص لتفسيرها... غير أن اهتمامنا موجه بالدرجة الأولى إلى ما يسعى عالم اللغة الوصفي تقليديا إلى تحقيقه، وهو أن يكشف عن طرق استعمال القوالب اللغوية في عملية التواصل"<sup>1</sup>.

أما "روبرت دي بوجراند" فيرى أن دور لسانيات النص "تزايد أهميته باطراد في دراسة اللغة مما يشير إلى تحوّل في الفكر، وإن لسانيات النص إنما صارت مجالا لفظيا من مجالات السيميوطيقا، يتناول كل البعد الممتد بين النصوص ذات الكلمة الواحدة، إلى نصوص لها من الطول ما للكوميديا الإلهية، وما يميز النص هو صفة الاتصال"<sup>2</sup>، أي أن المفردة الواحدة أو الجملة الواحدة لا تهدف إلى إقامة التواصل في حين يهدف النص إلى تحقيق هذه الصفة، وهذا هو أساس اللغة.

ركز "روبرت دي بوجراند" حديثه - كسابقه - على السياق، مؤكداً أن التواصل عبر اللغة لا يمكن أن يكون بمعزل عنه، أي أن النص لا تتحقق نصيته إلا بوجود سياق يتفاعل فيه الخطاب، سواء السياق النصي (سياق البنية)، أو سياق المقام (سياق الموقف)، يقول في هذا الصدد: "ينبغي للنص أن يتصل بموقف يكون فيه، تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات والتوقعات والمعارف وهذه البيئة الشاسعة تسمى سياق الموقف، أما التركيب الداخلي للنص فهو سياق البنية"<sup>3</sup>. وما يميز نصية النص هو نظام الترابطات.

<sup>1</sup> براون ويول: تحليل الخطاب، ص ي.

<sup>2</sup> روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص 72.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص 91.

وقد حدد "بوجراند" القواعد السبعة وينعتها بالمعايير التي تحدّد نصية النص، وهي المعايير التي صارت أساسا يعمل به ويهتم به في مجال علم النص، ولا يختلف الباحثون المهتمون بهذا المجال في هذه المعايير وهي: السبك والانسجام (الالتحام)، القصد، القبول، رعاية الموقف، التناص، الإعلامية (الإخبار).

ويؤكد على ارتباط هذه المعايير بعضها ببعض في قوله: "ولكن يظهر من النظرة الفاحصة أنه لا يمكن لواحد من هذه المعايير أن يفهم دون التفكير في العوامل الأربعة جميعا: اللغة والعقل والمجتمع والإجراء. ومرة أخرى تظهر الحاجة الشديدة الإلحاح في البحث في تكامل العلوم"<sup>1</sup>.

يثبت "روبرت دي بوجراند" أن المعايير النصية السبعة مرتبط بعضها ببعض ومرتبطة بعضها باللغة وبعضها بالعقل وآخر بالمجتمع، وبعضها الآخر بالإجراء. وهذا يؤكد ما قاله عن ارتباط العلوم بعضها ببعض من جهة، وعن ارتباط علم النص بحقول معرفية مختلفة، واستفادته من أغلب المعارف السابقة عليه وأخذه من المناهج النقدية السياقية والعلمية منها.

إن علم النص بما يملكه من إجراءات لسانية نصية، وإجراءات تداولية جدير بأن يعدّ علم العصر الذي ينعت بالتكاملي، فيأخذ بكل الأدوات اللسانية والبلاغية والدلالية والتداولية ليقترّب من النص، ليس فقط بحثا عن النصية إنما قراءة للمعنى، وفهما للمقصد، واستنباطا للدلالة. وهو المسعى التي عملت جل المناهج على تحقيقه لكنها باءت - إلى حد كبير - بالفشل بسبب قصور الأدوات والمنطلقات. فكان علم النص المنهج البديل الذي يجعلنا نطمئن إلى نتائجه.

<sup>1</sup> روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص 106.



## الفصل الأول: النظام النصي القرآني خطاب تواصلية

### تمهيد

#### 1 \_ السياق القرآني والوحدة النصية العامة

1 - 1 - صورة الخطاب

1 - 2 - أقطاب الإرسال

1 - 3 - الموضوع العام (المقاصد المباشرة)

#### 2 \_ تحديد بنيات النص القرآني وترسيمة توزيعها

2 - 1 - توزيع البنيات الصغرى

2 - 2 - تحديد البنيات الكبرى

2 - 3 - البنية الفوقية وهيكلية النص

## تمهيد

إن النص لا تُعرف له قيمة إلا باعتباره خطابا تواصليا، هنا نقرّ بانتفاء صفة التمييز بين المصطلحين: نص - خطاب، إذ في علم النص كل نص خطاب، وكل خطاب نص، مادام الأساس هو التواصل والتفاعل. والخطاب حسب "بنفنيست" هو كل قول يفترض متكلما وسامعا مع توفر قصد التأثير بأي وجه على المتلقي<sup>1</sup>.

يعتبر النص القرآني خطابا أساسه التفاعل لما يبعثه من رسائل تشريعية محددة. مقارنته تستدعي حتما سياق القول الذي يحيط به، وممارسته تخضع بالضرورة للمدركات البديهية، كما أن قراءته تستلزم إقامة علاقة وثيقة مع الظروف الخارجية المحيطة بالإنتاجية النصية. وهو مما لا خلاف فيه رسالة تواصلية متواصلة وفق سيرورة زمنية، لا يحدّها زمان ولا مكان، ليس بالنظر إلى الطابع القدسي الذي يحيط بها فقط، بل بالنظر إلى عالمية الرسالة التي يحويها، وسريان مفعولها الدائم وعلى طول مسار الوجود البشري، دون أن يفقد الخطاب حيويته ومفعوله وتأثيره. والحقيقة المطلقة أن القرآن الكريم نص خالد، متفرد، مميز، من حيث شكله، وأسلوبه، ونظمه.

إن وحدة الخطاب القرآني العامة وبنيته الرئيسية تتمحور حول بعث رسالة التوحيد، إلا أن الشارة التوحيدية تضم رسالة محتواة ظاهرة وضمنية، تتمحور حول إعادة رسم خارطة التفكير البشري، وتوحيد الذهنية الإنسانية العالمية على هدف واحد، هو الإقرار بألوهية الله ووحدانيته. ولا يعني هذا أن اللغة هي التي تكيف النص القرآني وفق منظورها، بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يكيف الوسائل اللغوية لتعبّر عن الخطاب القرآني، فاللغة العربية مثلها مثل بقية اللغات، إنما هي أداة تخضع للاستخدام المقرون بالسياق الذي يوجه الدلالة ويحددها ليمنعها من التخبط في التأويلات الخارج نصية المموهة والتي قد لا تمت للخطاب بصلة سواء الخطاب المقدس أو الخطاب البشري.

<sup>1</sup> E.Benveniste : Problème de linguistique générale, Gallimard, Paris , 1966, P17.

## 1 - السياق القرآني والوحدة النصية العامة

يعتبر السياق من أهم المحطات التي توقف عندها الفكر النقدي الحديث والمعاصر، مؤكداً أن الخطاب مهما كان شكله إنما هو نص في موقف. والنص لا يُعرف له معنى إلا في علاقته بالسياق الذي شكل لوحده مع المدرسة النقدية الحديثة نظرية كاملة تسمى "نظرية السياق" مع رائدها "فيرث".

يقسم "فيرث" السياق إلى قسمين:

- السياق الداخلي ويتمثل في العلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية بين الكلمات داخل تركيب معين.

- السياق الخارجي: يتمثل في السياق الاجتماعي أو سياق الحال وما يحتويه، ويشكل الإطار الخارجي للحدث الكلامي<sup>1</sup>.

إن السياق هو جملة العناصر المكونة للموقف التواصلية، تضم المرسل والمتلقي وكل من يدخل في تشكيل الموقف التواصلية، إضافة إلى الظواهر المحيطة بالإنتاجية كالظواهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ودور السياق حسب "مانغينو" لا يمكن أن ينكر بالنسبة إلى القارئ الذي تصده النصوص بمئاتها ليظل باحثاً عن الحقيقة عبر سراديبها المظلمة<sup>2</sup>. وهذا ما اصطاح عليه "عثمان أبو زنيد" بالوحدة النصية العامة والتي جعلها تحيط بسبعة معايير هي أسس الشفرات الاستقرائية الداخل والخارج نصي ورتبها وفق التسلسل الآتي: قائل النص، موضوع النص، لماذا قيل النص، لمن قيل النص، متى قيل النص، وكيف ألقى النص أي البحث عن الشفرة المعتمدة في سلك التواصل. ويؤكد "عثمان أبو زنيد" أن النص وحدة معنوية سياقية وتقوم علاقته بالجملة على الإجراء والإنجاز<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> حسام أحمد قرج: نظرية علم النص - رؤية منهجية في بناء النص النثري، ط2، مكتبة الآداب - القاهرة، 2009، ص.ص 22، 23.

<sup>2</sup> D.Mainguenu : Eléments de linguistique pour le texte littéraire, Bordas, Paris, 1990, P10

<sup>3</sup> عثمان أبو زنيد: نحو النص - إطار نظري ودراسات تطبيقية، ص28.

يشكل مصطلح السياق مع النص مظهرين للعملية نفسها، فهناك نص وهناك نص آخر مصاحب له. وتشتمل فكرة "ما يصاحب النص" على عناصر لغوية وغير لغوية في البيئة العامة التي يظهر فيها النص<sup>1</sup>. و"تكمُن أهمية سياق الموقف في أنه يفسّر أموراً لا يستطيع السياق اللغوي وحده تفسيرها ويضم إليه مجموع العلاقات القائمة بين المشتركين في الحدث، ووسيلة التواصل والمكان والمحيط الثقافي بكل ما يفرضه من أعراف وتقاليد"<sup>2</sup>.

إن السياق هو الذي يفعل التواصل، والتواصل تحقيق للدلالة، وإيصال للمعلومات والأفكار بين الأفراد والجماعات، تنجزه لغة يتفاعل فيها المرسل والمتلقي ضمن دورة كلامية رسمها "سوسير" وأعاد بناءها "جاكسون". وقد أكدّا في الدورة التخاطبية أنّ الرسالة لا تكون فاعلة إلا إذا اقتضت سياقاً تحيل عليه وتكون للمتلقي قدرة على استيعابه.

مع "جاكسون" بدأ الفصل بين مقولات الجملة باعتبارها الركن الأساسي في اللسانيات البنوية التي تأخذ في اعتبارها الجملة كمادة للدراسة وبين مقولات النص أي استقراء النصوص والوحدات الكبرى. فاللغة أداة تواصل وصورة معنى، وهي مؤسسة واسعة لها سلطتها في اتخاذ القرار وتغيير القرار كما يقول "فان دايك"، ولا تتجسد قيمة هذه اللغة إلا بوجود برمجة، يكون الإنسان بالضرورة طرفاً فيها كي يقع فعل التواصل، دون أن نغفل في هذا المجال معايير النصية التي من خلالها يقال عن نص ما إنه نص. وهي المعايير ذاتها التي تصنع حركة حضور الإنسان وتفاعله وانفعاله داخل مجتمع محكوم ببرمجة معينة في خضم مجموعة من الأعراف والطقوس والعادات التي تصقل تواجده الاجتماعي وتُسهم في تشكيل شخصيته التي تستوعب مجمل التغيرات الواقعة والمحيطية من خلال تأثير سلطة نصية محددة<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، ص.23.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

<sup>3</sup> فان دايك، علم النص، ص.37.

إن الفرد جزء من الكيان الجمعي، والخطابات تُحقق حضورها كسنن تواصلية من خلال الأرشيف الواسع المحيط بهذا الفرد، والمتحكم في إنتاجه، وهو ما يسمى بالسياق الخارج نصي أو سياق المقام. أسماء البلاغيين العرب مقتضى الحال، فقالوا في هذا الصدد قولتهم المشهورة التي حدّدت مسار كل أشكال الدراسات البلاغية القديمة: "لكل مقام مقال" فأكدوا على ضرورة مراعاة مقتضى الحال.

أما السياق النصي فيعين على كشف معنى الكلمة من خلال المعارف السابقة المشتركة بين المتكلم والسامع، هذه المعارف التي تمكن المتلقي من تأويل ما يقصده المتكلم<sup>1</sup>. فوجود أقطاب التواصل في العملية الإنتاجية اللغوية ضرورة تستوجبها حتمية تحقّق الدلالة وضرورة الإفصاح عن مدلولات الخطاب التواصلية.

إن نصية النص لا تتحقق إلا بحضور مقام معيّن. والمقام هو العالم الخارجي عن اللغة، وكل ما له صلة بالنص وبالحدث اللغوي، ويتمثل أساسا في الظروف الاجتماعية والنفسية والثقافية للمتكلم والمشاركين في الخطاب<sup>2</sup>.

يرى كل من "هاليداي" و"رقية حسن" أن مصطلحي السياق والنص متلازمان، فهما مظهران لعملية نفسها، ولكل نصٍ نصٌّ آخر مصاحب له، هو السياق Contexte.

تشمل فكرة ما يصاحب النص العوامل اللغوية وغير اللغوية في البيئة العامة التي يظهر فيها النص، إضافة إلى وجود السياق المصاحب أو سياق الموقف بعناصره الثلاثة التي تسهم مجتمعة في تفسير النص وهي: حقل الخطاب وأدوار الخطاب ولغة الخطاب.

أ - حقل الخطاب: يشير إلى طبيعة الحدث الذي ينطلق منه الخطاب، أو طبيعة النشاط الاجتماعي المتصل بالكلام ويتلاقى حوله المشاركون. وهو ما يوازي مفهوم المناسبة في البلاغة العربية، فمقام التهنة يختلف عن مقام الشكر ومقام المدح يختلف عن مقام الذم.

<sup>1</sup> عبد الواحد حسن الشيخ: التنافر الصوتي والظواهر السياقية، ط1، مكتبة وطبعة الإشعاع الفنية، مصر 1999، ص30.

<sup>2</sup> عبد المنعم خليل: نظرية السياق بين القدماء والمحدثين- دراسة لغوية - نحوية - دلالية، دط، دار الوفاء، الإسكندرية، 2007، ص81.

ب - أدوار الخطاب: ويشير إلى طبيعة العلاقة بين المشاركين في الخطاب وحالتهم النفسية وأدوارهم الاجتماعية، والعلاقات الدائمة والمؤقتة بينهم وأدوار الخطاب التي يشغلونها في الحوار. إنه العنصر الذي يبحث في العلاقات بين المشاركين في الخطاب أي مجموع المشاركين في الحدث التواصلية من متكلم وسماع ومخاطب، وكيفية تأثير ذلك على النصوص وعلى الكلام، وكيفية كشف النصوص والكلام عن العلاقة بين الأشخاص الذين يشتمل عليهم الخطاب<sup>1</sup>.

ج - لغة الخطاب: وتعني اللغة التعبيرية المستخدمة في الخطاب. هل هي رسمية أو غير رسمية، حوار أو إيحاء ذاتي (دبالوج أو مونولوج)، مكتوبة أو منطوقة، قصصية أو غير قصصية. وتشير كل تلك الملامح إلى الدور الذي يمكن أن تؤديه اللغة في الاتصال من إقناع أو تفسير أو تعليم أو نهي، وتحدد بالاختيارات المرتبطة بالمعاني النصية مثل موضوع الخطاب والمعلومات المقدمة فيه ونماذج أشكال التماسك.

## 1 - 1 صورة الخطاب:

النص القرآني كتاب الزمن كله، والمكان كله والبشرية كلها، ليس بنص عصر، أو جيل، أو مصر ثم ينتهي بانتهائه، لا يقبل التحديد الزمني والمكاني، لأنه يتضمن كلمات الله الباقية وهداياته المستمرة<sup>2</sup>. "أراد الله - سبحانه وتعالى - ألا تضعف قوة هذا الكتاب، وأن لا يكون في أمره على تقادم الزمن خضع أو تطامن، فجاءت هذه القوة فيه بأسبابها المختلفة على مقدار ما أراد، وهي قوة الخلود الأرضي التي خرج بها القرآن مخرج الشذوذ الطبيعي، فلا سبيل عليه ليد الزمن وحوادثه مما تبليه أو تستجده، إنما هو روح من أمر الله تعالى هو نزله وهو يحفظه"<sup>3</sup>.

يتحدّد الخطاب القرآني بدءاً بكونه خطاباً موجهاً تحكمه وظيفتان أساسيتان: الوظيفة التعاملية باعتباره رسالة موجهة تحمل أهدافاً دينية عقائدية تشريعية واضحة، قصد إقامة توازن كوني من خلال ما يحمله

<sup>1</sup> عزة شبل محمد : علم لغة النص - النظرية والتطبيق، ط2، مكتبة الآداب، القاهرة 2009، ص.ص 8 و9.

<sup>2</sup> عبد الرحمن بودرع: الخطاب القرآني ومناهج التأويل - نحو دراسة نقدية للتأويلات المعاصرة، ط1، مركز الدراسات القرآنية - الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، المغرب 2013، ص.24.

<sup>3</sup> مصطفى صادق الرفاعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط8، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005، ص.25.

من سلطة مقدّسة مجسّدة من خلال فعل كلامي قوي وصریح يتراوح بين الأمر والنهي لواجب الالتزام الديني، بمساحات ترغيبية وترهيبية في الآن ذاته. كما يتحدّد الخطاب القرآني باعتباره خطابا تفاعليا، والتفاعل: Interaction هو وظيفة اللغة المتمثلة في التعبير عن العلاقات الاجتماعية والمواقف الشخصية<sup>1</sup>.

أما "محمد مفتاح" فيعرّف التفاعل بأنه العلاقة القائمة بين المرسل والمتلقي، الفردي أو الجمعي، الموجود بالفعل أو بالقوة، أي سواء كان المتلقي مقصودا أو ضمنيا، وهذه العلاقة القائمة بين الطرفين بإمكانها أن تسلب سلطة المرسل المطلقة على إصدار خطابه وتدخله دائرة القواعد الضمنية لتجعله يكتيف خطابه على قدر عقل متلقيه، ليحصل التفاعل، وكسب استمالة المتلقي<sup>2</sup>.

إن فهم النص والإحاطة بدلالاته المنفتحة أو المغلقة تستلزم الإحاطة بالسياق من كلّ جوانبه. إنه يسهم بشكل مباشر في بناء النص وما يحتويه من معاني ومضامين. بل إن موضوع الخطاب هو صورة للخطاب تتحكم فيه ظروف الإنتاج. وهذه الظروف هي فعل انعكاسي لدلالة السياق في شقه الأساسي، وهو السياق الخارج النصي (سياق المقام).

يعتبر القرآن الكريم سياجا منيعا أمام متغيرات الحياة، وتبدلات القيم. إنه "النص الأعلى في مكوناتنا الثقافية، وهو مقدس عند أكثر العرب، يحدّد علاقتهم بالكون والحياة قبل الموت وبعده، فتنظم العادات والتقاليد والأعراف على مبعده أو مقربة منه، فهو المكوّن الأصيل لركائز العربي في التعاطي مع الجديد والمستجد، لذلك لا يمكن أن يكون القرآن الكريم الذي شكّل منظومتنا الثقافية، على مدى قرون من الزمن غير صالح لأن نستند إليه في قراءتنا لواقعنا وأمراضه وأفكار الآخرين ومناهجهم"<sup>3</sup>.

فالقرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة التي لا يزيدها التقدم العلمي إلا رسوخا في الإعجاز. أنزله الله - عز وجل - على رسوله الأكرم - صلى الله عليه وسلم - محمد بن عبد الله يحمل مقصدا أساسيا واضحا

<sup>1</sup> براون ويول: تحليل الخطاب، ص1.

<sup>2</sup> محمد مفتاح: دينامية النص - تنظير وإنجاز، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب 2006، ص51.

<sup>3</sup> سعيد كموني: الخطاب القرآني - القرآن مرجعية للخطاب النهضوي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، 2008، ص11.

وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور ويهدي إلى الصراط المستقيم<sup>1</sup>. غيّر المفاهيم وهذب الأفكار ومارس - بما يملكه من سلطة مسحا شاملا لكل ما هو سائد جاهلي ينافي الفطرة ويدعو إلى الانحراف والضلال.

إنه - كما يقول "الزرقاني": "كتاب هداية وإعجاز، من أجل هذين الغرضين نزل، وفيهما تحدث، وعليهما دل"<sup>2</sup>. وقد قام على سياسة راشدة، استهل بنهي أمة قريش عن الشرك، وعمل على إحياء عقيدة التوحيد في قلوبهم وعقولهم وأرواحهم، أخبرهم عن البعث والحساب والجزاء، أقنع العقول بما له من براهين البعث بعد الموت، وحجج الحساب، والمسؤولية والجزاء. ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة إلى العبادات، فبدأ بفرضية الصلاة التي أمر بها قبل الهجرة، وختم بفرضية الحج.. حج البيت من استطاع، وقد زجرهم عن بعض العادات زجرهم عن الكبائر، ثم نهاهم عن الصغائر، في شيء من الرفق، وتدرج في تحريم ما كان مستأصلا فيهم كالخمر<sup>3</sup>.

تناول القرآن الكريم الحياة الدنيا، سبلها وغاياتها وواقع الناس فيها، وما ينبغي أن يكونوا عليه من الصور المثالية التي ترفع من القدر، وتعلي من القيمة، تناول ألوانا من تاريخ البشرية في صراعها الطويل والمزير مع الرسل والانبياء، كيف جاهدوا من أجل تهذيب غرائز البشر، كيف جاهدوا من أجل محق الوثنية والشرك والباطل، عالج ألوانا نفسية متعددة المنازع منذ عهد بعيد من التاريخ ليتصور الإنسان نفسه كيف كان وكيف يكون وكيف ينبغي أن يكون<sup>4</sup>.

فالخطاب القرآني خطاب رباني لذا فهو يكتسب أهمية خاصة، "لأنه مختلف عن أي خطاب على وجه البسيطة في أي زمان، وإن كانت أدواته التعبيرية معروفة لدى العرب، متداولة في أشعارهم وأخبارهم وخطبهم وكلامهم لكن الأداة التعبيرية (اللغة) لا توجب التشابه أو التقارب في نظم النصوص التي تنظم بها

<sup>1</sup> مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، ص5.

<sup>2</sup> عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، تحق: هاني الحاج، دط، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، ص38.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص73.

<sup>4</sup> فتحي أحمد عامر: المعاني الثمانية في الأسلوب القرآني، دط، منشأة المعارف، الإسكندرية، دس، ص. 21.



لأن الباث مختلف في قدراته التعبيرية وأساليب نظمه وفنون تكوينه للجمل والأساليب<sup>1</sup>. إنه دستور الإنسانية، أساسه الأول هداية البشرية إلى الدين القويم. فلم يترك الله سبحانه وتعالى الإنسان في هذه الحياة يستهدي بما أودعه فيه من فطرة، بل بعث إليه رسولا يحمل كتابا سماويا متفردا يتعبد به ويدعو فيه إلى عبادة خالق الكون المتفرد بالألوهية والعبودية، الخالق الواحد الفرد الصمد، كتاب بشر وأنذر وأقام الحجّة، فإما أن يكون لك أو عليك. وقد جاء القرآن الكريم وافيًا بجميع مطالب الحياة الإنسانية على الأسس الأولى للأديان السماوية<sup>2</sup>. وهو آخر الكتب السماوية المنزلة صفته التعجيزية الإعجازية تظهت من خلال مظهر التحدي، حيث تحدى هذا الكتاب "كتاب العرب الأول" الإنس والجن عامة، والعرب خاصة لأن يضاوه فيدعوا على منواله ويأتوا على غرار نظمه ففشلوا في التحدي - وهم ليسوا أندادا لله كي يتحداهم - لكنه خطاب المعقول لضعف العقول وقلة السعة بمدارك الخالق.

إن اللفظ عربي، والتركيب عربي، والصوت عربي، لكن النص القرآني فوق مدارك العرب والعجم، حيث النظم مختلف، والأسلوب مختلف، والتأثير قوي، والمعنى عميق، والبيان غريب عجيب. حير أرباب الفصاحة والبيان، تأملوه مليا، ونظروا فيه طويلا، فما زادهم إلا إقرارا بالعجز، وتأكيذا على إعجازه. و"كان لتنزل القرآن حالة واحدة وهي نزوله منجما، مفرقا على مدى أقل من ربع قرن من الزمن من أجل تثبيت فؤاد النبي - صلى الله عليه وسلم - وتقوية قلبه، وإلهاب مشاعره وتسليته ومؤانسته، ثم من أجل التدرج في تربية الأمة دينيا وفكريا واجتماعيا وعلميا وعمليا، مع محاكاة الحوادث ومجاراة الطوارئ المتجددة في حياة النبوة وذلك يقتضي بيان حكم الله تعالى في الوقائع والأحوال التي تحدث للأمة"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> كريم حسين ناصح الخالدي: الخطاب النفسي في القرآن الكريم - دراسة دلالية أسلوبية، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2007، ص16.

<sup>2</sup> مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، ص 13.

<sup>3</sup> ينظر: خالد عبد الرحمن العك: تاريخ توثيق النص القرآني، مرج: حسين خطاب، ط2، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1986، ص - ص 17 - 23.

ذكر بعض العلماء أن تسمية الكتاب المنزل على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - بالقرآن وهي تسمية مميزة و مختارة له من بين الكتب السماوية الأخرى لكونه "جامعا لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، ثم إنه يتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص، بحيث يكون تعريفه حدا حقيقيا. والحد الحقيقي هو استحضاره معهودا في الذهن أو مشاهدا بالحس كأن تشير إليه مكتوبا في المصحف أو مقروءا باللسان فتقول هو ما بين الدفتين، أو تقول هو من: " بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين... " إلى قوله: "من الجنة والناس" ويذكر العلماء تعريفا له يقرب معناه ويميزه عن غيره فيعرفونه بأنه "كلام الله المنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - المتعبد بتلاوته"<sup>1</sup>.

إننا لم نجد كتابا بشريا أو سماويا تحومه الدراسات الغزيرة كما وجدنا ذلك في القرآن الكريم، والتعريفات الكثيرة كلها تنضوي تحت لائحة اعتباره الكتاب المقدس، المنزه، آخر الكتب السماوية، متعبد بتلاوته، نزل على قلب سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وصلنا عن طريق التواتر.

وفي "البرهان" أن الله تعالى "سمى القرآن بخمسة وخمسين اسما منها: الكتاب، القرآن، النور، الهدى، الرحمة، الفرقان، الشفاء، الموعظة، الذكر، الكريم، العلي، الحكمة، الحكيم، المهيمن، المبارك، الحبل، الصراط المستقيم وغيرها"<sup>2</sup>.

وفي "الإتقان" أن القرآن إنما سُمي كتابا "لجمعه أنواع العلوم والقصص والأخبار على أبلغ وجه، والكتاب لغة الجمع، وسمي مبينا لأنه أبان، أي أظهر الحق من الباطل، وأما القرآن، قال جماعة هو اسم علم غير مشتق، خاص بكلام الله، فهو غير مهموز، وقال قوم ومنهم "الأشعري" هو مشتق من قرنت الشيء بالشيء، إذا ضمنت أحدهما إلى الآخر، وسمي به لقران السور والآيات والحروف فيه. وقال "الراغب" لا

<sup>1</sup> مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص.ص 16، 17.

<sup>2</sup> بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحق أبي الفضل الدمياطي، دط، دار الحديث، القاهرة 2006، ص.ص

193، 192.

يقال لكل جمع قرآن، قال وإنما سمي قرآنا لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة، وقيل لأنه جمع أنواع العلوم كلها"<sup>1</sup>.

إن كل خطاب يعكس بشكل ضمني المعتقدات العميقة للعصر<sup>2</sup>، والقرآن الكريم الذي أنزل من أجل أن يغيّر المعتقدات السائدة، عبّر بشكل ولو ضمني عن معتقدات زمن النزول، فيكفي أن يكون التحدي بياناً لفهم طريقة هذا التصوير. وقد واکب في نزوله الوقائع والأحداث، وهو ما نقصده بالسياق المقامي للنص المشتمل على عناصر ثلاثة وهي زمن الخطاب، وأطراف الخطاب (المخاطب والمخاطب) الرسول وعلاقته بالمخاطبين. وسياق التخاطب وأحوال المخاطبين.

آيات أسباب النزول مناسبة تماماً لسياق الحال الذي نزلت فيه من جهة، وهي مناسبة لسياق السورة التي توجد فيها من جهة أخرى. فالقرآن نص واحد متسق متماسك الأجزاء متلاحمها، ولو قرأ القارئ النص القرآني بمعزل عن معرفة أسباب النزول لما لاحظ أي تفاوت أو تباين أو اختلاف في انسياب الخطاب أو تلاحم أجزائه"<sup>3</sup>.

رغم أن القاعدة الفقهية تؤكد على أن "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" إلا أن العلماء والباحثين اعتنوا أيما عناية بمعرفة أسباب النزول، فمنحوه حقه من الدراسة المستقصية الدقيقة لشدة حاجتهم إليه في تفسير القرآن، وتشددوا في تقبل الروايات المتعلقة بالآية أو السورة وسبب نزولها، فأخذوا على عاتقهم مسؤولية ضرورة التأكد من صحة الرواية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو عن الصحابة، فأخبار الصحابة في هذه المسألة إذا كان صريحاً لا يكون بالرأي، بل يكون له حكم المرفوع، فلا يحل القول في أسباب

<sup>1</sup> جلال الدين السيوطي: الإلتقان في علوم القرآن، ج1، تحق محمد أبو الفضل إبراهيم، دط، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 2008، ص.ص 146، 147.

<sup>2</sup> O.Ducrot : Dire et ne pas dire , Principes de sémantique linguistique HERMANN , Paris, 2005, P13

<sup>3</sup> خلود العموش : الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، ط1، عالم الكتب الحديث - جدار للكتاب العالمي، إربد - عمان، 2008، ص.85.

النزول إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب، ولقد كان السلف يتورعون أن يقولوا شيئاً في ذلك دون تثبت<sup>1</sup>.

ولا يعني هذا أن النص القرآني أنتج لزمن محدد، لأن النص الحي هو النص الخالد، فكيف لا يكون هذا شأن خطاب مقدّس وهو القرآن الكريم. إن من أهم خصوصيات النص القرآني أنه رسالة لهداية البشرية، وأنه آخر كتاب سماوي تتلقاه البشرية، لذلك فهو يفرض على المتلقي تقبله عبر مسار الزمن، ثم هو كتاب يحمل أسراراً في الوجود، وأسرار الشرائع والأحكام، ويعطي حلولاً سارية المفعول في كل مجالات الحياة، فضلاً عن كونه رسالة في التوحيد، لذلك فإن له سلطة على واقع الاستعمال البشري لم تنقص منذ تاريخ النزول. يقول "إسلام محمود درباله" في هذا الصدد: " لا يعني هذا أن يلتمس الإنسان لكل آية سبباً، فإن القرآن لم يكن نزوله وفقاً على الحوادث والوقائع، أو على السؤال والاستفسار، بل كان القرآن يتنزل ابتداءً بعقائد الإيمان وواجبات الإسلام، وشرائع الله تعالى في حياة الفرد وحياة الجماعة"<sup>2</sup>. ومن فوائد معرفة أسباب النزول حسب "السيوطي": "معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، وتخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، والوقوف على المعنى وإزالة الإشكال، فسبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن"<sup>3</sup>.

يجوي الخطاب القرآني على قدرات إيحائية، وشحنات تأثيرية تجعل الألفاظ تتفجر والجمل تشع، والأساليب تثير هزات تأثيرية على القلوب والمشاعر، تتسق الألفاظ في صياغتها وأصواتها وطرائق نظمها ويجانس بعضها بعضاً. يتضمن موضوعات أساسية كثيرة تعبّر عن نظرة حياتية متكاملة للإنسان والمكان

<sup>1</sup> إسلام محمود درباله: موسوعة علوم القرآن وآداب حملته، ط1، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، ص.ص 150، 151.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص152.

<sup>3</sup> جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج1، دط، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2008، ص.ص 82، 83.

والزمان. والمتدبر في كتاب الله يمكنه الكشف عن تلك الموضوعات والمضامين لأنه خطاب واضح لا يقصد اللبس، ولا يتعمد الإبهام<sup>1</sup>.

القرآن إذن وحي من الله، حملة الملك جبريل - عليه السلام - إلى - محمد صلى الله عليه وسلم - بلغة العرب، وهو من جنس الوحي الذي في كتب الرسل الأولين، فهو استمرار للخطاب الإلهي إلى البشر، وهو تجربة روحية، تتلخص في تلقي الوحي، وإنه من جهة أخرى رسالة تجعل حاملها من المنذرين المبينين للناس ما هو الحق وما هو الباطل. وهكذا تنضاف إلى التجربة الروحية تجربة أخرى اجتماعية إرشادية دعوية.

ومما يلفت نظر الباحث في دراسة الخطاب القرآني أنه في محوريه العقلي أو النفسي يفوق قدرة البشر، فلا يملك العقل البشري أو النفس البشرية إلا الاستجابة والقبول بقوة الحجة العقلية ووضوحها وقدرتها على الإقناع، والتسليم لصحة منطقته. كما ينساب هذا الخطاب على المشاعر والأحاسيس ويلامسها في أعماق مكانتها، ويثيرها خوفا أو طمعا أو فرحا أو حزنا، رضى أو معصية، غضبا أو ارتياحا<sup>2</sup>. و"مهما كثرت البحوث في دراسة نسيج الخطاب القرآني فإنها تظل قاصرة عن وضع التفسير الحقيقي لأثر هذا الخطاب في النفس البشرية لأن القدرة التي نسجتها أكبر من مداركنا لذا تظل محاولاتنا في فهم أسرار هذا الخطاب ظنية لا تبتعد عن كونها اجتهادا"<sup>3</sup>.

القرآن الكريم رسالة لها خصوصية مميزة لأنه خطاب رباني، فهو في ماهيته وشكله ومضمونه وأسلوبه مختلف عن الخطاب البشري (التواصل البشري أو الإنساني)، ومختلف عن الخطاب الآلي (التواصل الآلي). ولأنه خطاب رباني فهو خطاب مقدس يحمل سلطة في ذاته هي قدسيته، وهو السبب الرئيسي الذي جعله

<sup>1</sup> كريم حسين ناصح الخالدي: الخطاب النفسي في القرآن الكريم، ص35.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص17.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص16.

يحتل الرتبة الأولى في سلك كل الخطابات من حيث قيمته وتأثيره، ما جعل الأمة المسلمة تنعت بكونها أمة نص، منه تنطلق وإليه تعود وعليه تعتمد وبه تحكم وتحاكم\*.

إن الجزء المستقرأ في هذا التحليل يندرج ضمن القرآن المكي، و"الصورة النموذجية للقرآن المكي تبدو في قصار السور"<sup>1</sup>. علما أن الخطاب المكي يدور حول الدعوة إلى الإسلام ويحتوي على موضوعات متعلقة بأمر الدعوة من بينها:

الإشارة إلى قدرة الخالق، والرد على مباحكات الكفار، والإنذار بالهلاك كما هو الشأن مع الأمم السابقة، الترغيب والترهيب، القصص القرآني، وصف أهوال يوم القيامة، الحاجة، تسفيه عبادة الأصنام، الحظ على مباشرة الدعوة<sup>2</sup>.

اجتهد العلماء في تتبع منازل الوحي في جميع مراحلها، فتناولوا آيات القرآن الكريم، عينوا وقت نزولها، وحددوا مكانها، وهذه العناية الشديدة كانت من أجل فهم القرآن وتفسيره على الوجه الصحيح، كذا من أجل معرفة الناسخ والمنسوخ، ويعين مسار نزول القرآن على تتبع الطريق الصحيح في الدعوة التي تستدعي التأثر بالقرآن الكريم في أسلوبه وتدرج تشريعاته.

\* هناك من يعتقد أن الخطاب القرآني مثله مثل الخطابات البشرية ودلالته من دلالتها فما هي إلا محصلة لعملية تشكيل نصوص وصنعها من جانبين اللغة والواقع، وكلا الجانبين هام لاكتشاف دلالة النصوص. يقول "نصر حامد أبو زيد" في معرض حديثه عن جدلية النص والخطاب القرآني أن الخطاب القرآني تحول إلى نص يثبت الركوز والثبات أي للاستخدام يقول: "كان القرآن قد تحول إلى "مصحف" إلى أداة للزينة .. هذا التحول لطبيعة النص ومن ثم لوظيفته كان محصلة لمجمل اتجاهات الثقافة المسيطرة. الثقافة الرجعية ثقافة الطبقات التي استندت إلى تأييد المغامرين العسكريين". تحولت النصوص الدينية من موضوعات للفهم والتفسير والتأويل إلى أن تكون أشياء تستخدم للزينة أو لالتماس البركة. هكذا تحول القرآن من "نص" إلى "مصحف" من دلالة إلى شيء". لكن من الثابت الذي لا خلاف فيه أن تدوين القرآن وحفظه في السطور لا يعني تغيير في الوظيفة، وإن كان هناك هذا الشكل فعلا فلا يعني أنه لا يوجد من لا يحفظ القرآن الكريم والواقع يثبت أن عدد حفظة القرآن يتزايد ويما بعد يوم. وإن كنا لا ننكر أن درجة الإيما والحفاظ على كتاب الله والعمل به خاصة لم تبلغ ما كان في عهد النبوة. ينظر نصر حامد أبو زيد: مفهوم النص - دراسة في علوم القرآن، ط4، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1998، ص. 12، 13.

<sup>1</sup> تمام حسان: البيان في روائع القرآن، ج1، ط2، عالم الكتب، القاهرة 2000، ص459.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص. ص. 461، 462.

## 1 - 2 - أقطاب الإرسال

إن محلل الخطاب ومنه الخطاب القرآني، ملزم بأن يراعي تلازم هذه الأركان الثلاثة: مخاطب: يأخذ مبادرة الحديث، ومخاطب: يكون له تأثير في اختيار المخاطب ألفاظه وتعابيره وأسلوبه. وظروف جرت فيها عملية الخطاب مما يؤدي إلى نجاحه أو فشله<sup>1</sup>. والنصوص بالنظر إلى أقطاب الإرسال إنما هي ثلاثة أشكال حددها "زنتسيسلاف واورزنيك" Zdzislaw Wawrzyniak بالنصوص الحوارية الثنائية التي يتحول فيها المخاطب إلى متكلم، ويصير المتكلم مخاطبا، والنصوص الحوارية الفردية الذاتية التي تشير إلى غلبة الشخص المتكلم، وتسمى أيضا النصوص الخاصة بالمرسل. كما توجد نصوص خاصة بالمستقبل، حيث يقع العدد الأكبر من جمل النص من خلال الشخص الثاني<sup>2</sup>.

مع التأكيد على أن الخطاب القرآني يتميز بإستراتيجية بناء خاصة تخضع لمعايير مميزة، وبتركيب متميز يجسد الفنية (الأدبية) في أسمى تجلياتها. يقوم على قاعدة بناء خارجية واحدة يفعلها المرسل الواقعي (الأصل) الذي هو الله سبحانه وتعالى، والمتلقي الواقعي الذي هو شخص الرسول الكريم- صلى الله عليه وسلم- وهو في الآن ذاته مرسل من الدرجة الثانية، أي مبلغ الرسالة، ليدخل الخطاب إلى عالم العموم (في أغلبه) أو سجل الكونية. يتلقاه الجمهور الكوني في كل الأمصار والأقطار والأزمان. تجلّى كل هذا من خلال سياق الموقف وهو ما يسمى بالسياق السابق<sup>3\*</sup>، وهو الموقف الاتصالي بعناصره من مرسل ومتلق وعلاقة بينهما وزمان ومكان النص والظروف الاجتماعية والسياسية المرتبطة به.

<sup>1</sup> محمد مفتاح: دينامية النص، ص 196.

<sup>2</sup> زنتسيسلاف واورزنيك: مدخل إلى علم النص - مشكلات بناء النص، ترج وتعلق: سعيد حسن بحيري، ط1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة 2003، ص 96.

\* ورد مصطلح السياق السابق عند حسام أحمد فرج في كتابه نظرية علم النص، ص 25.

## 1 - 2 - 1 - قراءة في صورة المرسل:

يؤكد الخطاب القرآني وحدانية الله وأنه لا شريك له. وتلك حقيقة تتفق مع مدلول الألوهية، لأن التعدد يفضي إلى الاختلاف والاختلاف يفضي إلى الفساد، فيقول المولى - جل وعلا - عن نفسه: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ" سورة الإخلاص. وفي تفسير "ابن كثير" أن "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" "يعني أن الله هو الواحد الأحد الذي لا نظير له، ولا وزير ولا نديد ولا شبيه ولا عديل، ولا يُطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله عز وجل، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله. وقوله: "اللَّهُ الصَّمَدُ" يعني الذي يصمد إليه الخلق في حوائجهم ومسائلهم. وهو السيد الذي كُمل في سؤدده، والشريف الذي كُمل في شرفه، والعظيم الذي كُمل في عظمته، والحليم الذي كُمل في حلمه، والعليم الذي كُمل في علمه، والحكيم الذي كُمل في حكمته. وهو الذي كُمل في أنواع الشرف والسؤدد، هو الله سبحانه وتعالى، هذه صفته لا تبغي إلا له، ليس له كفؤ وليس كمثل شيء"<sup>1</sup>.

إن المرسل (الباث) ليس بشرا، ليس مخلوقا مما خُلق، أو مما خلق، ليس فردا منا وليس بالشبيه لنا، ولا يمتلك مثل خصائصنا المحدودة، بل هو منشئ يختلف عن سواه لا شبيه ولا نظير. إنه الله - سبحانه وتعالى هو المرسل المتعالي صاحب السلطة المقدسة، أرسل خطابا متبوعا بقصدية عليا هي الإيمان به وبوجوده وطاعته والامتثال لأوامره وألا يشرك به شيء. هيا للمتلقي من الدرجة الثانية الذين هم البشر، ظروف الحياة والاستمرار والتواصل والتعايش. هو ليس كمثل شيء، وعليه فإن الخوض في الحديث عنه هو تجن على الذات الإلهية. إننا نعرفه فقط من خلال ما قاله عن نفسه، وإن أعطى لذاته الكريمة أسماء وصفات إلا أننا لا ندرك كنهها لأنها غائبة عنا "لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ" الأنعام/ الآية 103. نعرفه من خلال أسمائه الحسنى وصفاته العليا، هو السميع البصير لكن سمعه وبصره ليس كمثل سمع وبصر مخلوقاته.

<sup>1</sup> أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي: مختصر تفسير ابن كثير، تعلق: العز بن عبد السلام وآخرون، اختصره: عرفان العشا حسونة، ج3، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2005، ص 713.



اعتنى القرآن الكريم بكشف الحجب عن مدلول مصطلح الألوهية، فكما يقول "سيد قطب" "يعنى المنهج القرآني عناية واضحة بتجلية "حقيقة الألوهية" وخصائصها وتقريرها وتوكيدها وتعميقها وتثبيتها في الضمير البشري، وذلك ليقوم على أساسها ضرورة عبودية الناس لله وحده، وإقامة حياتهم كلها على أساس وحيه ومنهجه وشرعه.. ومن خلال تعريف الناس بتلك الحقيقة يجيء تعريفهم بسائر الحقائق الأخرى التي تنشئ "التصور الإسلامي" الكامل الصحيح، وبكل الارتباطات القائمة بين هذه الحقائق.. مبتدئة ومنتهاة بحقيقة الألوهية"<sup>1</sup>.

فرض علينا إتباع أوامره والانتهاه عن نواهيه. نعرفه من خلال خطابه الذي هو النص القرآني، ومن خلال المتلقي الواقعي (الأول) المتمثل في شخص الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام - هو اللطيف الخبير الحكيم العدل وهو شديد العقاب. صورته غير مجسدة لكننا نؤمن بأنه موجود من خلال خلقه ومخلوقاته.

إن الله هو الفاعل الأول في عملية الوحي، والمدير الأوحده لمسار الإنسان الروحي، والحاضر دائما في تاريخه<sup>2</sup>. هو "الله" وهو الخالق الموجد الواحد الأحد كما يقول عن نفسه بالصورة التي أعطاها لذاته العليا، من خلال النص القرآني. هي صورة الله الثابتة والصحيحة من خلال دلائل ومدركات كونية وثوابت علمية، هي من البديهيات العقلية. ثبات صورته من خلال ما قاله عن نفسه، وما تقوله حقائق الوجود، ثم ما تقوله الطبيعة الناطقة باسمه.. باسم خالق يدبر الأمر ويوقع الوقائع. وإن كان هناك من يجهل هذه الحقيقة لكن "الله" موجود في الوعي الجمعي البشري منذ الأزل.

إننا نعرف الله من خلال ما وصف به نفسه في القرآن الكريم، من خلال أسمائه الحسنی وصفاته العليا، نعرفه من خلال مفهوم الألوهية ومفهوم الربوبية، وهي مفاهيم مستقاة من كتابه الكريم، رغم أن له رسائل أخرى (كتب أخرى)، ورغم أن هناك من يعطيه صفات أخرى، لكن نحن نتعامل مع الخطاب القرآني

<sup>1</sup> سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، ط5، دار الشروق، القاهرة - بيروت، 1997، ص69.  
<sup>2</sup> وجيه قانصوة: النص الديني في الإسلام - من التفسير إلى النقل، ط1، دار الفرابي، بيروت، لبنان 2011، ص26.

وعليه لا نعطيه إلا الصورة التي رسمها لنفسه من خلال هذا الخطاب، بغض النظر عن إيماننا الراسخ بأنها الصورة الحقيقية له باعتبار أن الرسالة التي بعث بها (الخطاب القرآني) هي الوحيدة التي لم تتعرض للتحريف والتزوير.. وهي الرسالة الوحيدة التي بقيت محفوظة بإقرار المرسل ذاته (الله): "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" الحجر/ الآية 9. و"إن قاعدة تفرد الله - سبحانه - بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان، يقوم عليها نظام للحياة يتجرد فيه البشر من خصائص الألوهية والربوبية والقوامة والسلطان، ويعترفون بما لله وحده، فيتلقون منه التصور الإعتقادي، والقيم الإنسانية والاجتماعية / والأخلاقية والمناهج الأساسية للحياة الواقعية، والشرائع والقوانين، التي تحكم هذه الحياة، ولا يتلقونها من أحد سواه، وبذلك يشهدون أنه لا إله إلا الله"<sup>1</sup>.

أراد الله سبحانه وتعالى أن تظل ذاته محجوبة عن خلقه، فلا تدركها الحواس بل تدركها العقول، أما صفاته التي تضمنتها أسماءه الحسنى فهي وصف لجوانب من تلك الذات وما يصدر عنها، تهدي من أراد أن يهتدي، وتير عقله بالأدلة الواضحة لمعرفة تلك الذات على سبيل التصور. وأما رؤيته أو تجسيده فتلك أوهام تخبط فيها كل من ادعى ذلك، أو تصور أنه قادر على رؤية ما ليس منظورا، ولا دليل على ادعائه.

وقد حوى الخطاب القرآني صفات كثيرة أشارت إلى ما اتصف به الإله جلت صفاته، الحي، القيوم الذي لا يموت، لا تأخذه سنة ولا نوم، القوي الجبار، العالم بما كان وما يكون وبما لم يكن لو كان كيف كان سيكون. له ملك السماوات والأرض يدبر الأمر بحكمة يخلق كل شيء بقدر. إنه الله - جل وعلا - العظيم، القوي، الغني، العلي، المتعالي<sup>2</sup>.

وصف الله نفسه، وأعطى صورة لذاته والتي ظهرت في كثير من السور والآيات، صور تشرح صفات الله العلا من خلال معاني أسمائه الحسنى الظاهرة في كلامه المجسد في النص القرآني، ليتعرف الناس على خالقهم ومعبودهم. كما ساهم الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم على تقريب العبد من ربه وذلك

<sup>1</sup> سيد قطب: مقولمت التصور الإسلامي، ص.ص 19، 20.  
<sup>2</sup> كريم حسين ناصح الخالدي: الخطاب النفسي في القرآن الكريم، ص43.

بالتعريف به في كثير مما ورد من أحاديث نبوية، وكان الوحي من أجل "إعلان الله عن نفسه وبناء طرق الاتصال به، الذي لا يتحقق بممارسة البراهين النظرية على وجود الله، بل يفترض أن يحتبر الإنسان الوجود الحي والفاعل لله بمبادرة من الله نفسه"<sup>1</sup>. فأمام التساؤلات والانحرافات الواقعة في فهم معنى الله ومعنى وجوده خالق، وأمام اضطراب المفاهيم حول حقيقة الألوهية كانت رسالة القرآن، وكان وصف الله لذاته ولنفسه مكسرا للاعتقادات الممؤهة والآراء المحرفة، والنظريات الوضعية الخاطئة.

وتظل لهذا المرسل خصوصية لأنه في السماء، والمتلقي في الأرض، لأنه الخالق ولأن الذي يحاول معرفته مخلوق، لأن علمه لا نهاية له ولا حد ولا سعة، وعلم البشر محدود وحواسهم ضعيفة ومداركهم قاصرة، ولأن البشر يجوبون التعامل بمنطق وإن علم الله وتصرفه في أمور الكون يتجاوز المنطق حين يشاء، وقد يكسّر نواميس الكون حين يشاء، كما أن بعض المظاهر من حكمه وحكمته تدخل في أمر الغيب ولا يعلم الغيب إلا الله، لذلك نجد أكثر من يشكك في وجود الخالق هم من لا يؤمن بالغيب، لأن مدارك عقولهم قاصرة على استيعاب معنى الغيب.

## 1 - 2 - 2 - قراءة في صورة المتلقي:

إن وجود الآخر أمر أساسي في بناء الرسالة. وعليه فإن الرسالة الواحدة تُعتبر قولاً ينتظر اكتماله بالقول الذي يمثل الرسالة الأخرى<sup>2</sup>، وهذا ما يجسّد الطبيعة الحوارية لأي خطاب مهما كان شكله. والمتلقي الأول للخطاب القرآني هو الرسول - عليه الصلاة والسلام - الذي تحوّل إلى مرسل من الدرجة الثانية (مبلّغ)، حمل على عاتقه عبء حمل الرسالة وأداء الأمانة، إنه مكلف مثله مثل المتلقي البشري الآخر. و"النص القرآني قد انطوى على مرجعية سلوك الرسول العربي - صلى الله عليه وسلم - في مواجهة مثالب قومه والإنسانية، أو في تعزيز محاسنهم"<sup>3</sup>. تلقّى الرسالة بطرائق عديدة مختلفة عن بقية الارسلات البشرية، إنه

<sup>1</sup> وجيهه قانصوة: النص الديني في الإسلام، ص 26.

<sup>2</sup> حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، ص 33.

<sup>3</sup> سعيد كموني: الخطاب القرآني - القرآن مرجعية للخطاب النهضوي، ص 7.

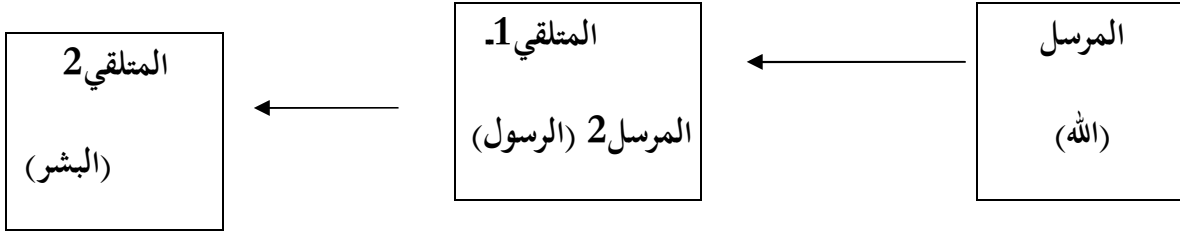
المتلقي الواقعي (الأول) للخطاب القرآني، الرسول محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشي الهاشمي.. تسرد لنا كتب السيرة أنه إنما تربى يتيماً، كان في صغره راعياً للغنم، ثم صار تاجراً في كبره، كان فقيراً ثم أصبح غنياً، عاش العوز وعاش الغنى، كان صادقاً أميناً، محبوباً عند الناس وإن اختلفت الصورة بعد البعث. لكن وجهة النظر المشتركة بين الجميع أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - مؤهل لأن يبلغ رسالة ربه، وصورته الخلقية تظل موضع تقدير واحترام حتى من غير المسلمين.

إن البحث في صورة الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو بحث استرجاعي بعودة الذاكرة إلى الوراثة، حيث أسهبت المكتبة الإسلامية والعالمية في الحديث عنه، إنه متلق له خصوصية معينة، لأنه في الآن ذاته مرسل من الدرجة الثانية. فإذا كانت العلاقة بينه وبين الله هي علاقة [مرسل - متلقي] فإنها بينه وبين بني البشر هي علاقة [مرسل - متلقي] أيضاً، إذ يصير الرسول - عليه الصلاة والسلام - هو المرسل. ويصير العالمين من سكان المعمورة انسهم وجنهم متلقياً.

وللمتلقي الواقعي مبلغ الرسالة خصوصية، ونحن نعطيه صورته من خلال ما عرف عنه في واقع حياته، وما اتفق على صدقه بغض النظر عن الإيديولوجيات المختلفة التي تنطلق من منطلق تعصب فكري، لتوصل مفهوم معيناً، ولأن صورة الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - معروفة عند المسلمين لسنا بحاجة إلى كثير تفصيل.

أمّا عن حضورها من خلال السياق النصي فهي الصورة الأولى المطالبة بالالتزام الديني، وتحقيق مطلب المرسل (الله) على أرض الواقع بتغيير الرؤى المعارضة لمطالب المرسل التي كانت تقر الشرك، وتعيش في جاهلية عمياء من الظلم والغطرسة وإيتاء المحرمات ووأد البنات وغيرها من الصور غير الفطرية وغير المنطقية.

الرسول - صلى الله عليه وسلم - شخصية حاضرة في النص حضوراً أساسياً، فهي رغم مكانتها عند المرسل (الله) فإن هذه المكانة لا تتحدد إلا من خلال التزامه بسلطة الأمر التي وجبت نحوه بتبليغ الخطاب القرآني وفق مبدأ تغيير خارطة الأرض الفكرية والمفهومية.



(شكل 1) ترسيمة الإرسال والتلقي في الخطاب القرآني

نزل القرآن الكريم على النبي - صلى الله عليه وسلم - عن طريق الملك "جبريل" عليه السلام، وهو رسول لجهة إلقائه وحي القرآن إلى النبي<sup>1</sup>، ليكون "جبريل" عليه السلام الواسطة الأولى بين السماء والأرض، متلق ناقل غير مفعّل للحدث، لكنه واسطة و شفرة ناقلة، ليس بمتلق حاضر يوجه نحوه الخطاب، لكنه مرسل نحو الرسول - صلى الله عليه وسلم - خلقه الله وكلفه بحمل الرسائل السماوية لكل الأنبياء والمرسلين.

كان "جبريل" عليه السلام يظهر بأشكال متعددة، "ما يعكس انسجام مضمون الوحي مع عملية الوحي نفسها، ويرمز إلى درجة انكشاف الأشياء وظهورها بحقائقها المتعددة والمباشرة على النبي، يكون فيها جبريل بمثابة واسطة كونية مزدوجة، تمثلت في ظهور أشياء العالم على محمد، وفي الارتقاء بالنبي في معاينة حقائق الوجود ونزع حجب الاتصال بينه وبين هذه العوالم، والتي وصلت إلى ذروتها بالاتصال المباشر بين الله ومحمد<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> وجيه قانصوة: النص الديني في الإسلام، ص37.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص41.

إن علاقة الله بالملك جبريل هي علاقة خالق بمخلوق، مأمور واجب عليه التنفيذ دون أن يعطى قرار التفكير الذي هو من خصوصيات البشر، أما علاقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالوحي فهي علاقة رسول برسول، رسول من الله نحو رسول من الله. فكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع جبريل واسطتين بين السماء والأرض لكن مع الإقرار بالاختلاف بينهما، حيث إن الثاني مسؤول مكلف والأول مجبر مسير.

علاقة الملك جبريل تقترب من السماء أكثر من اقترابها من الأرض، فهو ملك سماوي، أما علاقة الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - فإنها تقترب من الأرض أكثر من اقترابها من السماء، فهو أساسا بشر، لكن جبريل عليه السلام واسطة من السماء نحو رسول السماء، والرسول واسطة من السماء نحو الأرض، أما الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد كان مرتبطا ارتباطا وثيقا مع العالم السماوي، ومرتبطا أيضا بالعالم الأرضي، وهذا معنى كونه واسطة بين السماء والأرض وهو معنى كونه نبي مرسل ورسول الله.

كُلف محمد - عليه الصلاة والسلام - الأخذ من العلم السماوي وتلقي الوحي، ليخاطب به العرب أولا ومن ثم ليخاطب الناس كافة في كل زمان وفي كل مكان. فكانت للنبي الكريم معجزة القرآن الخالدة.. إنها معجزة القرآن التي تتميز عن بقية المعجزات السابقة. يقول في هذا الصدد "أحمد عمر أبو حجر": "معجزة محمد - صلى الله عليه وسلم - من نوع آخر، لم تكن حادثة تقع وتزول من غير بقاء لها إلا بالخبر بل كانت قائمة تخاطب الأجيال يراها ويقرؤها الناس في كل عصر وهي مناسبة لرسالته - صلى الله عليه وسلم - لعمومها في الأجيال فكانت معجزته مناسبة لهذه الرسالة الخالدة الباقية التي لا يحدها زمان بل تبقى إلى يوم القيامة<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> أحمد عمر أبو حجر: التفسير العلمي للقرآن في الميزان، ط1، دار قنينة، بيروت - دمشق، 1991، ص125.

إن "جبريل" عليه السلام مُرسِل ثانٍ وملتقٍ أولٍ، دوره في ترسيمة الخطاب يتحدد فقط في كونه واسطة، أي سننا أو شفرة ناقلة، في حين أن المتلقي الواقعي الأول والمرسل الواقعي الثاني هو النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - يفعل الخطاب ويوجهه ويشارك في دورة التخاطب مشاركة إيجابية فاعلة. أنزل القرآن على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد - صلى الله عليه وسلم - لهداية البشر إلى الدين القويم بعدما كانوا يعيشون حياة ضياع في بيئة تعبد الأصنام لتتقرب بها إلى الله زلفى، كان القوي فيهم يأكل الضعيف، يستعبدون الناس، ويقتلون النساء، ويأتون المحرمات، فقرأه النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - على الناس، ودعاهم إليه، وعلمه لصحابته الذين آمنوا بدعوته فحفظوه في الصدور، ودونوه في السطور وعاشوا يهتدون بهديه ويقتبسون من نوره ويعملون بأحكامه ويتخلقون بأدابه<sup>1</sup>.

ولقد علم الناس أجمعون علما لا يخالطه شك أن القرآن الكريم جاء على لسان رجل عربي أُمي\* ولد بمكة في القرن السادس الميلادي اسمه محمد بن عبد الله، وأن البشرية لم تعرف هذا الكتاب إلا عن طريقه<sup>2</sup>. تقوم عملية الخطاب على ركنين أساسيين: مخاطب ومخاطب ويكوّنان كلا لا يتجزأ خصوصا في الخطاب الديني - التبليغي الذي يهدف إلى التأثير والإقناع، والدعوة إلى الإيمان. ويوجد ركن ثالث يحيط بهما معا، ويؤثر في كل منهما، وهو مقتضيات الأحوال، ذلك أن ظروف مكة التجارية، الحاوية لمعبودات العرب، ليست هي ظروف المدينة، يثرب التي كان فيها قبائل شمالية وجنوبية ويهودية، كما أن ظروفه في مكة ليست هي نفسها ظروفه في المدينة.

<sup>1</sup> غانم قدوري الحمد: محاضرات في علوم القرآن، ط1، دار عمان للنشر والتوزيع، عمان 2001، ص5.

\* حاول د. وجيه قانصوة في كتابه "النص الديني في الإسلام" أن يحلل صورة أمية النبي - عليه الصلاة والسلام - في عنوان يسترعي الانتباه وهو: "كفاءة النبي العلمية" إذ يعتقد أن القول بامية الرسول الكريم إنما هو قول للمتأخرين اضطر المسلمون إلى الذهاب إليه بعد عهد النبوة والخلافة الراشدة ليؤكدوا على إعجاز رسالة النبي ولينبئوا أن ما نزل من الوحي لا يمكن أن يكون من أنشاء النبي لوحده، وفي هذا محاولة لإثبات أن النبي كان رجلا عاديا جدا لم يختار لنفسه النبوة وإنما اصطفاه الله بمشيبته، فتؤدي الرعاية الإلهية دورا هائلا ويؤدي محمد دورا سلبيا، فالنبوة فرضت عليه فرضا، وهو مجرد وعاء للوحي لا أكثر. ويستند "وجيه قانصوة" في هذا الرأي إلى رأي "هشام جعيط" في كتابه "الوحي والقرآن والنبوة"، أما النتيجة التي يخلص إليها "قانصوة" فهي أن النبي ليس مجرد وعاء حامل للنبوة إنما له ملكة ودراية وعلم وتحكم في زمام الأمور وإن كلمة أمي إنما يقصد بها الأمم وليس الذي لا يقرأ ولا يكتب.

ونحن هنا نستعرض آراءهم لأننا نعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم رغم كياسته وفطنته وعلمه الذي علمه له ربه وحكمته فإنه فعلا شخص مختار ومصطفى، وهناك ما فرض عليه فرضا، فهو مكلف بحمل الرسالة وتطبيقها، والله يقول في كتابه الحكيم: "إن هو إلا وحي يوحى" النجم/ الآية 4. ينظر إلى: وجيه قانصوة: النص الديني في الإسلام، ص.ص 46 - 49.

<sup>2</sup> غانم قدوري الحمد: محاضرات في علوم القرآن، ص13

على أن أهم ما يضمن نجاح الرسالة هو مخاطبة الناس على قدر عقولهم، وبما يفهمونه، وهذا ما رعاه الرسول الكريم، الذي كان استوعب النفس البشرية الضعيفة فسايرها وراعاها في خطابه، فكان معلما مريبا، انقاد البعض للرسالة وتقبل الدين الجديد، وكفر البعض الآخر. وقد حصلت ردود الفعل هذه بالمعرفة الخلفية المشتركة، المتجلية في معجم القرآن وتركيبه ودلالته، ومضمونه، ذلك أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، وتحدث عن موضوعات معلومات لدى مخاطبه<sup>1</sup>.

شب الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع أبي طالب يكلؤه الله ويحفظه ويجوطه من أمور الجاهلية ومعايها لما يريد به من كرامته وهو على دين قومه، حتى بلغ، فصار رجلا، أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقا، وأكرمهم مخالطة، وأنسهم جوارا، وأعظمهم أمانة، وأصدقهم حديثا، وأبعدهم عن الفحش والأذى. وفي السنة التي بلغ فيها النبي - صلى الله عليه وسلم - الأربعين من عمره بدأ تحول كبير في حياته لم يكن قد تمّياً له من قبل لكن العناية الإلهية كانت ترعى ذلك التحول وتوجهه نحو النبوة الكاملة التي تنكشف فيها حجب الغيب<sup>2</sup>. فكان امرأ مكتمل المروءة، ورجلا شهما نبيلاً، عفيفاً أوتي مدارك العلم الواسع حتى صار يرى الأشياء بواسطة قوة باطنة، إنها قوة الوحي، وإنه علم من السماء، كما يقول "عبد الواسع الحميري": "نحن نرى الأشياء بواسطة الحس، والنبي - صلى الله عليه وسلم - يرى الأشياء بواسطة قواه الباطنة، ونحن نرى ثم نعلم، والنبي يعلم ثم يرى"<sup>3</sup>.

كانت شخصية الرسول الكريم شخصية حاکمة قائدة بموجب الوحي الرباني كانت شخصية دينية ودينيوية تربّي الحاضر من خلال الرؤية العينية والغائب من خلال الرسالة الوصفية والمقروءة فيما بعد. كان يسوس الدنيا ويبيّن مجتمعاً دينياً ودينيوياً.

<sup>1</sup> محمد مفتاح: دينامية النص، ص 196.

<sup>2</sup> غانم قدوري الحمد: محاضرات في علوم القرآن، ص 16، 17.

<sup>3</sup> عبد الواسع الحميري: في آفاق الكلام وتكلم النص، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 2010، ص 25.



أيقن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن الله تعالى قد اختاره رسولا، فصار يتلقى القرآن عن طريق الملك جبريل - عليه السلام - فحمل أعباء الرسالة وأخذ يدعو إليها، واستمر جهاده ثلاثا وعشرين سنة، اكتمل خلالها نزول القرآن، وترسخت الدعوة والعقيدة في أرجاء الجزيرة العربية قبل وفاته<sup>1</sup>.

كان الرسول محمد - عليه الصلاة والسلام - واسطة بين الخالق والمخلوقين، وهو صوت السماء العليا، هو الخيط الرابط والحبل الذي يشد نور السماء بأنوار الأرض. لذلك ففهمنا للقرآن الكريم يمر عبر تفسير الله تعالى له ثم الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأنه هو المتلقي للوحي والمبلغ عن الله وذلك بالرجوع إليه في حياته وإلى سنته بعد وفاته لأن وظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - هي البيان<sup>2</sup>.

#### - المتلقي من الدرجة الثانية:

إن الرأي الغالب لدى باحثي الإسلام هو التقليل من أهمية المخاطب في تكييف عملية الخطاب، وإن كنا نجدهم يقولون إن الشريعة جاءت لمصالح المكلفين<sup>3</sup>. وكانت الرسالة السماوية لهداية الخلق أجمعين فقد كانوا يعيشون الضياع، ويسايرون حياة لم يفهموا سرها ولا سر وجودهم فيها.

لقد ظل الإنسان منذ بدء وجوده يفكر في أشياء من حوله، يتأمل في مخلوقات الله المختلفة المتباينة، الكبيرة المتناهية الكبر والصغيرة المتناهية الصغر من سماء وشمس وقمر ونجوم وجبال وبحار وأشجار وحيوانات، حيرته نواميس وهالته أخرى، تساءل عن الموت والحياة، حاول أن يعرف أسرار الروح، قضايا وجودية حيرت عقله وشغلت فكره، وانتابه جرائها الخوف والرعب<sup>4</sup>. ف"ظهرت نظرات عقلية وحكم مستوحاة من تجارب الحياة تطورت إلى فلسفات ونظريات معرفية، ورافقتها أديان سماوية تشعبت إلى مذاهب ومناهج مختلفة في التفكير تصب كلها في أمر جوهرى يثير التساؤل: هل وجدت هذه الأشياء عبثا؟ وهل يصح وجودها من غير

<sup>1</sup> غانم قدوري الحمد: محاضرات في علوم القرآن، ص21.

<sup>2</sup> أحمد عمر أبو حجر: التفسير العلمي للقرآن للميزان، ص26.

<sup>3</sup> محمد مفتاح: دينامية النص، ص195.

<sup>4</sup> كريم حسين ناصح الخالدي: الخطاب النفسي في القرآن الكريم، ص36.

موجد؟ ولماذا وجدت؟ وكان كلما نظر في السماء وجد نفسه حائرا وكان كلما ارتقى فكره وتطورت مداركه وازدادت معارفه ازدادت حيرته وكثرت شكوكه<sup>1</sup>. وقد نشأت هذه المعضلة الفكرية بسبب الدلائل المحسوسة والمعقولة والمنقولة التي تؤكد على وجود خالق لهذا الكون بما فيه من نظام عجيب ودقيق يسيّر حياة الإنسان ويحركه. كما أن عظمة الخالق الظاهرة في دلائل خلقه لا تمنع من الحيرة والجدل في ماهية هذا الإله لكونه بعيدا عن مدارك البشر وحواسه<sup>2</sup>.

فنزل القرآن الكريم وحيا على نبي الهدى - صلى الله عليه وسلم - ليخاطب العرب أولا ومن ثم ليخاطب الإنسان في كل مكان وفي كل زمان. مقرا بأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، لذا جاء الخطاب واضحا لهذا المأخذ، لا يجد العقل والإدراك صعوبة في تلقيه وفهمه والإيمان به. هو خطاب وجداني وعقلي في آن معا يخاطب النفس البشرية وحرك فيها نوازع الخير في صراعه مع البشر، وخاطب العقل البشري بقضايا فكرية تحتاج إلى البراهين والأدلة لقبولها والإيمان بها<sup>3</sup>.

خاطب الجمهور الحاضر وقت نزول الخطاب السماوي. جمهور تراوح ما بين الإيجابية والسلبية، فإذا أخذنا برأي "ديكرو" في أن المتلقي هو المستمع المقصود بفعل الخطاب لأنه يدخل في علاقة تضطره للجواب<sup>4</sup>. فالمتلقي الإيجابي هو الذي قبل الرسالة وهم أهله وصحابته وعشيرته الأقربين، أما المتلقي السلبي فهم الذين رفضوا الخطاب القرآني والنبوي زمن البعث، وكذبوا بوجود صلة ما بين الخطاب السماوي (خطاب الله) والخطاب الأرضي الجسد في صورة المتلقي الواقعي (الأولي)، والمرسل من الدرجة الثانية وهو شخص الرسول الكريم محمد - صلى الله عليه وسلم.

<sup>1</sup> كريم حسين ناصح الخالدي: الخطاب النفسي في القرآن الكريم، ص36.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص38.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص15.

<sup>4</sup> O. Dicrot :Dire et le dit, Minuit, Paris, 1984, p42

كما خاطب النبي الجمهور الكوني أي البشرية جمعاء التي تعد داحل ترسيمة الخطاب متلقيا من الدرجة الثالثة، مكلفا مثله مثل المتلقي من الدرجة الثانية الذي حضر زمن البعث. مصداقا لقوله تعالى " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ". سبأ/ الآية 28.

يرى "محمد مفتاح" أننا نستثمر مؤشرات مصالح العباد ومقتضيات الأحوال، لندفع بها إلى أقصاها فنمنح دورا أساسيا للمخاطب يسهم في تكييف الخطاب. ذلك أن القرآن يُبلغ منجما في مدة ثلاثة وعشرين سنة، وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - في هذه المدة يواجه أناسا متعددي المعتقدات ومتنوعي الثقافة ومختلفي البيئة، وتبعاً لهذا الاختلاف يكيف الرسول خطابه الموحى إليه بحسب نوعية المخاطب، إنها عملية تربوية ضرورية، إذ ليس من الحكمة أن يخاطب صحابي جليل كأبي بكر بنفس المستوى الذي يوجه به الكلام إلى من يأتيه حاملتا سيفه قاصدا الشر. ففي المقام الأول هناك معرفة وخلفية مشتركة، فالصحابي القريب من الرسول الكريم لن يجد عناء في التحدث إليه وإلزامه بأمر الشرع بل يكفي معه التلميح حتى يفهم، فيكفي التلميح، أما في المقام الثاني فيضطر الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأن يجتهد ليتحدث، ويحتاج ليقنع، ويحتاج إلى ضرب أمثلة واستفاء واقع. فالمخاطبون في النص القرآني ما كانوا أبدا على مستوى واحد من الفهم والإدراك، وما كانوا أبدا على درجة واحدة في اتصالمهم بصاحب الرسالة<sup>1</sup>.

"المتلقي لا يمكن النظر إليه على أنه متلق واحد وإنما هو قراءة من بين قراءات مختلفة تتعامل مع الخطاب حسب آفاقها ومداركها... لعل هذا من الأسباب المباشرة التي تجعل النص يخرق الزمان والمكان ويجيا مع متلقيه وقارئه"<sup>2</sup>.

انقسم المتلقي من الدرجة الثانية إلى متلق ثان واقعي، وهو بدوره زمرة المؤمن والكافر، أي التلقي الإيجابي، الذي يعني نجاح فعل التواصل والتلقي السلبي والذي يعني فشل فعل التواصل، ما أدى إلى ظهور

<sup>1</sup> محمد مفتاح: دينامية النص، ص 195.

<sup>2</sup> عبد الواسع الحميري: في آفاق الكلام وتكلم النص، ص 118.

الصراعات والحروب والغزوات. لكن في الأخير نجح فعل التواصل في أساسه المبدئي الذي صنع أمة إسلامية من لاشيء. أما في محيط الالتزام بتلك الدعوة فمازالت الأطراف في صراع مابين القبول التام والرفض التام، أو الأخذ بشي وترك أشياء بحسب ما تمليه الرغبات. وهنا لا يمكن أن نتحدث عن النجاح التام للخطاب السماوي ورسالة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - وعدم النجاح لا يعود إلى خلل في الرسالة، بل إلى خلل في المدارك البشرية والقيم التي تشكل الأفراد والجماعات، فضلا عن الجهل، بسبب سيطرة إيديولوجيات دنيوية، فضلا عن سيطرة الفكر المادي، وانتشار الفكر العلماني.

والشأن نفسه مع المتلقي من الدرجة الثالثة أي الجمهور الكوني، حيث تحدد التلقي إيجابا وسلبا، وإن تغيرت أداة الصراع ووجهة النظر من العسكرية إلى الفكرية والسياسية الباردة لكنه يظل صراعا ومنافسة قصد القبول والرفض والبؤرة المتنازع عليها هي مدى مصداقية هذا الخطاب الذي نزل من السماء إلى الأرض.. أو دعوة أهل السماء لأهل الأرض. "المعجزة الخالدة بوصفها رسالة البشر عامة استطاعت أن تنفذ من هذا الطريق إلى خلق منهج للحياة بأوسع معانيها في كل ظروفها التاريخية والحضارية فتستطيع أن تحس روح الإنسانية وفطرتها الأصلية في الوقت نفسه، فالمخاطبون هم البشر جميعا في كل زمان ومكان"<sup>1</sup>.

#### - العلاقة بين الخالق والمخلوق:

يرى "محمد مفتاح" أن الدراسات التي اعتنت بالمقصدية، اهتمت في بداية الأمر بسلطة المتكلم، وكيفية تأثيره على الخطاب، مع توفر الشروط اللازمة لذلك، ما يستلزم التنفيذ دون تردد مثل الأوامر الدينية والعسكرية، ثم قامت دراسات أخرى لتخفف من حدة هذا الاتجاه فأعادت الاعتبار للمتلقي، ورأت أنه لا فرق بين محوري عملية التخاطب إلا من حيث الأخذ بزمام المبادرة، وذهبت أبحاث أخرى لأن تجعل المتكلم لعبة في يد متلقيه يقوله ما يشاء ويؤول حسب رؤيته هو، ويكيف خطابه حسب رغباته ويصير المتلقي ناطقا

<sup>1</sup> أحمد عمر أبو حجر: التفسير العلمي للقرآن للميزان، ص128.

باسم المتكلم<sup>1</sup>. فإذا كان الرأي الأول ينطبق فعلا على الخطاب الديني فإن الرأيين الآخرين بعيدان كل البعد عن الحقيقة، فحتى وإن كان الخطاب الديني يراعي المتلقي فيخاطبه على قدر عقله، إلا أنه من المؤكد أن القرآن الكريم كان قصداً لتغيير خارطة التفكير البشري وإصلاح الذهنيات، وتغيير المعتقد الفاسد الذي كان يسود المجتمع العربي في تلك الفترة والمجتمع العالمي عموماً. فسلطة الأمر هي السلطة التي تجسد تفعيل الخطاب القرآني من أول آية إلى آخرها، حتى وإن كان أغلبه ضمنياً، تنضوي تحت لوائه مقاصد أخرى.

كما يظهر في الخطاب القرآني الصلة الحوارية التي تتلوه من الأعلى نحو الأسفل، في خطاب السماء نحو لأرض - خطاب الأعلى نحو الأدنى - الأمر نحو المأمور. فالأفعال الكلامية المؤسسة المتحركة في سير الحدث هي سلطة عليا، لأن خطاب السماء هو من الخالق صاحب الألوهية والعبودية والأسماء والصفات التي بها نفهم ذاته، وصور ذاته على أنه الخالق البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب... " ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ". الأنعام/ الآية 102. " وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ" الزخرف/ الآية 84. وهو المعطاء لكل شيء. والمتكرم على متلقيه بشتى النعم.

وقد كشف الخطاب القرآني سرا عظيماً، تجلت فيه عظمة الله وقدرته على الاتصال بين الخالق والمخلوق، ومادام هناك اتصال فإن هناك حواراً، وهناك مشاهدة. لقد أوجد الله سبحانه وتعالى نظاماً كونياً لا ندرك كنهه إلا حين تتسع معارفنا وتتطور وسائل الاتصال المعاصرة. لكننا نعلم من خلال قوله تعالى أنه قريب جداً من عباده: " وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ" ق/ الآية 16. يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. والقدرة الإلهية العظيمة هي التي تحيط بكل شيء في السماء والأرض، تضع الإنسان أمام ربه في سره وعلنه، وتجعل المؤمن مرتبطاً بالله سبحانه وتعالى بعلاقة روحية دائمة بربه يناجيه ويستغفره ويدعوه ويصلي له ويخشع أمام مقامه العظيم<sup>2</sup>.

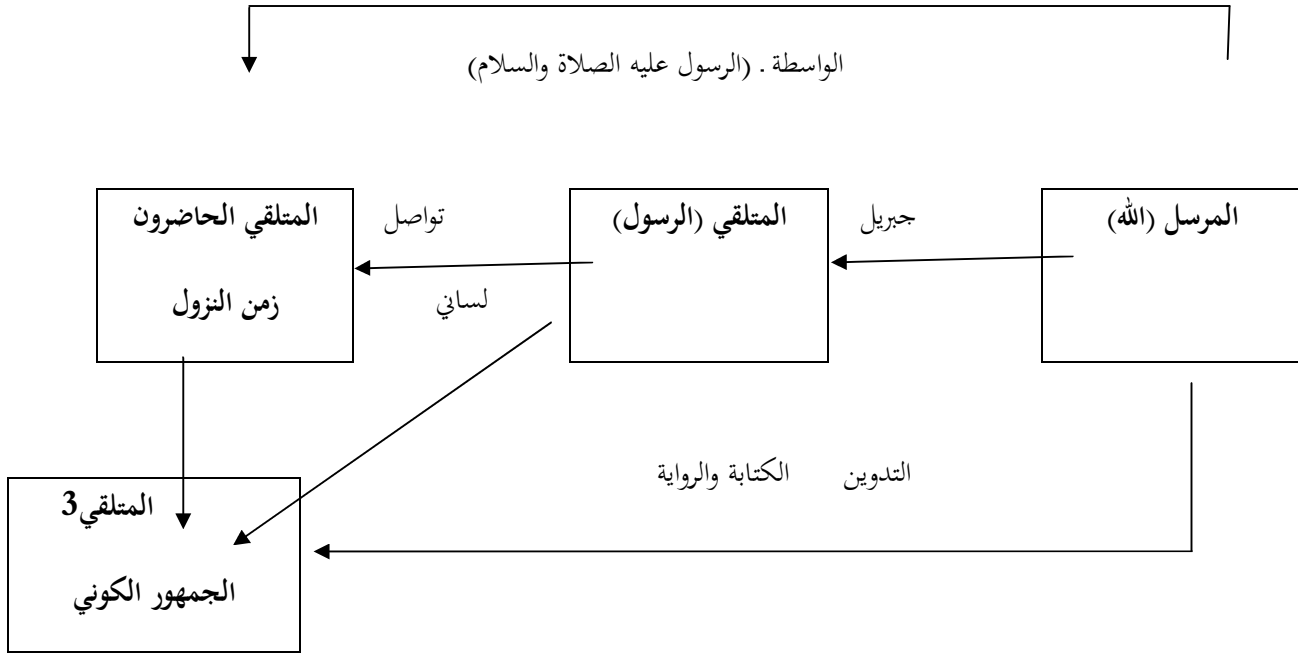
<sup>1</sup> محمد مفتاح: دينامية النص، 46.

<sup>2</sup> كريم حسين ناصح الخالدي: الخطاب النفسي في القرآن الكريم، ص.ص 69-70.

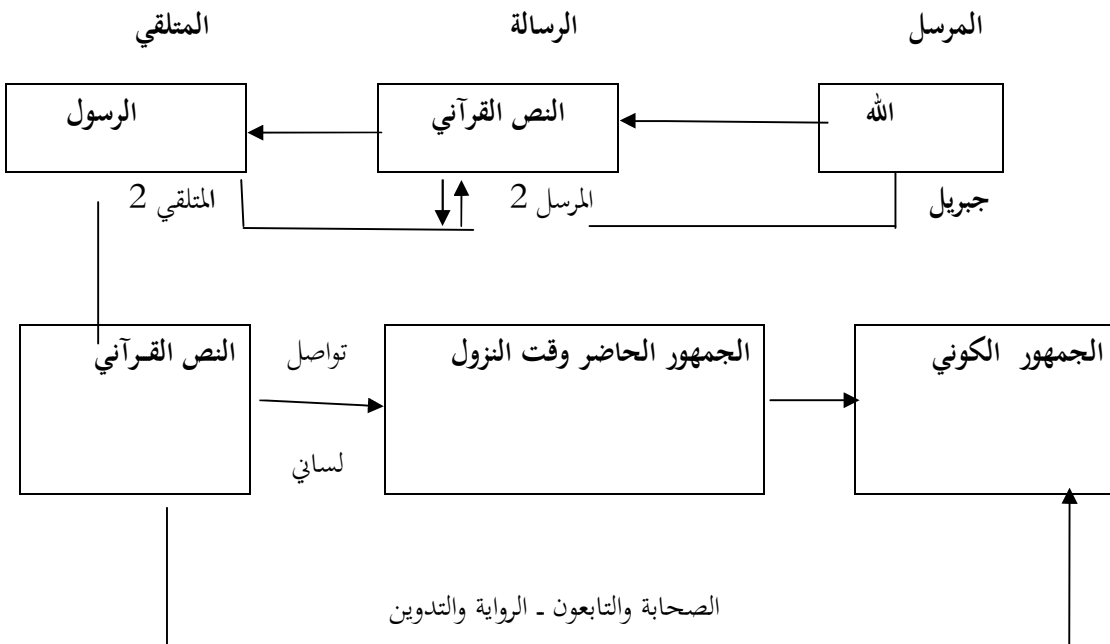
إن معرفة السياق الذي يعين على فهم الخطاب القرآني يتطلب الاعتماد على الخطاب القرآني كله، وعلى ظروف الإنتاج بما في ذلك معرفة الحديث والتفسير والمعرفة بأسباب النزول، لأن العلاقة القائمة بين طرفي الحوار الأصليين وهما أهل السماء وأهل الأرض ليسا من معدن واحد ولا بالصفات ذاتها، فالتواصل يمكن اعتباره تواصلًا روحياً بالنظر إلى المقام أو السياق الخارج نصي. ومادام المرسل الأصلي - الواقعي هو الله - سبحانه وتعالى - وهذا المرسل له هذه الخصوصية، فإنه يجب توخي الدقة والحذر في القراءة النصية لهذا الخطاب المقدس. فالله - جل شأنه - أراد أن تظل ذاته محجوبة عن خلقه فلا تدركها الحواس بل تدركها العقول. أما صفاته التي تضمنتها أسماؤه الحسنى فهي وصف لجوانب من تلك الذات وما يصدر عنها<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> كريم حسين ناصح الخالدي: الخطاب النفسي في القرآن الكريم، ص43.

ويمكن التمثيل لترسيمة الإرسال والتلقي للخطاب القرآني على النحو الآتي:



الرسول (عليه الصلاة والسلام) - الصحابة والتابعون - كتاب الوحي - الكتابة والرواية



### 1 - 3 الموضوع العام للخطاب القرآني (المقاصد المباشرة)

إن مقولات النص تفترض أنه "يوجد عالم خارج النص يشير إليه النص، وعادة ما نشير إلى هذا العالم باعتباره عالماً فعلياً، ولهذا فعندما نقرأ نصاً أو ندخل في عالم النص فإننا نتخيل هذا العالم الفعلي، أو أننا نفهم عالم النص بناء على فهمنا للعالم الخارجي"<sup>1</sup>. فالقضايا التي يتكلم عنها أي نص قد تشكل إطاراً، أي "نسق فرعي مكون من معرفة قائمة على ظاهرة موجودة في العالم محيط، والإطار يشتمل على معلومات متعلقة بأحوال مركبة، وأفعال أو أحداث، كما هي مرتبطة بشروط ضرورية أو محتملة"<sup>2</sup>.

إن مفهوم موضوع الخطاب أو موضوع التحوار حسب "فان دايك" - الذي يرى أن المصطلحين مترادفان - يتعلق ببنية النص وليس الجملة، أي مجموع المركبات التي تشكل بنية كبرى داخل الخطاب، فإذا كانت موضوعات الجمل تتحدد بتوزيع المعلومات على طول انتظام متوالية الجمل، فإن موضوعات الخطاب تورد المعلومات السيمانطقية وتنظمها وترتيبها تراكيب متوالية ككل شامل<sup>3</sup>.

فموضوع الخطاب عند "فان دايك" متعلق بتحديد البنيات الكبرى للخطاب، المتعامل معه، لكن نحن نقصد في هذا الصدد الموضوع العام للخطاب القرآني في شموليته، أما تحديد البنيات فسيأتي لاحقاً. وإذا كانت البنيات الصغرى جزءاً من البنيات الكبرى فإن البنيات الكبرى جزء من البنية الكلية الشاملة التي تعتبر اختصاراً واختزالاً للموضوع العام للخطاب القرآني.

تحدث علماء النص عن النص الكامل والنص الناقص، فالنص الكامل ليس النص الذي يجعل القارئ يمل السماع، إنما يكفي بالضرورة ولا يسترعي الأذهان الحث على شيء لم يقله. أما النص الناقص فيؤدي الفكرة، لكن يترك الكثير من المساحات البيضاء التي تطلب من القارئ ملأها من خلال آليات تأويلية، ورغم خضوعها للمعطيات الاستدلالية إلا أنها قد لا تكون صادقة. أما الموضوع الكامل يمكن استخلاصه وإن لم

<sup>1</sup> عزة شبل محمد: علم لغة النص، ص 193.

<sup>2</sup> فان دايك: النص والسياق - استقطاب البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تراج: عبد القادر قنيني، دط، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان 2000، ص 189.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص 185.



يتم لنا ذلك فلا يعد الخطاب ناقصا بل به خلل، وفي هذه الحالة لا يمكننا أن نعتبره نصا أو خطابا، لأن شرطا من شروط النصية لم تتحقق فيه، وهي بلوغ الإفادة.

لقد أهتم التفسير الموضوعي للقرآن - وهو أحدث المناهج في تفسير القرآن - بتبيان موضوعات القرآن الكريم، ليسهل اكتشاف المضامين النصية للخطاب القرآني، فيكشف المنهج عن العلاقات بين تلك الآيات أو بين التناسب فيما بينها، مع محاولة تأويل ما في النصوص من صور بيانية، لتتسجم مع السياق وهو في حقيقة الأمر عمل يسعى من خلاله المؤول ليكشف الباطن الذي تعبر عنه الصورة تكملة لجانب من جوانب الموضوع. أما البحث عن الأسباب التي نزلت فيها الآيات والسور فهو بحث عن الأجواء الواحدة أو المتماثلة التي نزلت الآيات والسور فيها لتعالج موضوعا واحدا وإن تغيرت بعض أحواله لأسباب زمانية أو مكانية<sup>1</sup>.

يعد التفسير الموضوعي للقرآن قراءة للنص القرآني وعملا على اكتشاف العلاقة بين عنوان السورة أو اسمها من جهة، وموضوع السورة من جهة ثانية، هو جهد يهدف إلى تحديد موضوع السورة تحديدا دقيقا يستهدف استغلال ما في التراث وما في الحديث من إمكانات تعين على ذلك أو على تحديد الأجواء العامة له. كما يعني أيضا بيان خصائص الموضوع وتحديد معالمه واستكناه جوهره ووضعه في سياق معين واكتشاف الهدف الذي يرمي إليه، والتركيز على الفكرة المهيمنة على بقية الأفكار والسيطرة التخيلية والعقلية على البنيات الجزئية التي تشكل ذلك الكل المتكامل الذي يترابط أوله بآخره ويدل آخره على أوله. ومحاولة الفهم العميق للدلالة القائمة بين النصوص والواقع البشري أو بينه وبين الكون<sup>2</sup>.

وكما هو ثابت فإن موضوع الخطاب القرآني هو النص القرآني ذاته لا يتجاوزة إلا ليعود إليه حاملا معجزة خالدة هي معجزة الأسلوب القرآني والنظم القرآني والبيان القرآني. وبلغة الإعجاز وخطاب التحدي

<sup>1</sup> أحمد رحمانى: التفسير الموضوعي، دط، منشورات جامعة باتنة، دس، ص6.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

حمل القرآن الكريم رسالة الهداية إلى خلق الله أجمعين. إذ بواسطة هديه وقيمه وأحكامه تأسست أمة وحضارة اتسعت وتجاوزت حدود الجزيرة العربية، وكونت إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس، واعتمدت في أحكامها، وإستراتيجيتها على النص المقدس (قرآنا وسنة) وجعلته مصدر اعتقاد ومعرفة الغيب ومرجعية قيم وأخلاق وتشريع وحكم، فكانت مرجعية النص أكبر ثوابت هذه الأمة، فهذه الأمة تأسست من خلال النص، تأسست أصلا على مبادئ وتعاليم وأحكام أنزلها الله في نص. وبنى هذا النص حضارة تميزت عن سائر الحضارات بأنها حضارة النص، وظلت في كل مراحلها لا تعرف لها مرجعا فكريا وأخلاقيا واجتماعيا وسياسيا سوى النص، فالميزة الكبرى للمجتمع الإسلامي أنه من صنع الشريعة<sup>1</sup>.

لقد جاء الإسلام ليغير واقع البشرية، ليغير معتقداتها، وتصوراتها، ومفاهيمها، ومشاعرها وشعائرها، جاء لينشئ لها واقعا آخر، غير واقع الجاهلية الذي كانت تعيش فيه<sup>2</sup>

يقول "الطاهر بن عاشور": "إن الغرض الأكبر للقرآن الكريم هو إصلاح الأمة بأسرها، فأصلاح كفارها بدعوتهم إلى الإيمان، وإصلاح المؤمنين بتقويم أخلاقهم وإرشادهم إلى طرق النجاح، وتركية نفوسهم"<sup>3</sup>. إذن فكل ما يأتي من أغراض ومقاصد للخطاب القرآني تبقى أغراضا ومقاصد تابعة للأصل، أو تحديدا للكل. وقد أشار القرآن في عدة آيات إلى صفات شاملة للكتاب أهمها أنه حكيم ومبين. ومن صفاته أنه العزيز والنور والمجيد والعلي وهي جميعها من صفات الله وفيها إيجاء بمكانة الكتاب، ودلالة على انطوائه على صفات جامعة متغلغلة في حقائق آياته وسوره<sup>4</sup>.

يشير القرآن الكريم إلى وحدته التكوينية، كما يشير إلى الوحدة الوظيفية الجامعة لكل آياته، وهي وظائف تتداخل مع غاياته الكلية ودواعي إنشائه. فمن هذه الوظائف: الإنذار والرحمة، والهداية، والذكر،

<sup>1</sup> عبد الملك بومنجل: جدل الثابت والمتغير في النقد العربي الحديث - مسائلة الحداثة، ج1، ط1، عالم الكتب الحديث، اردب، الأردن، ص.ص 23،24.

<sup>2</sup> سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، ص18.

<sup>3</sup> الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج7، دط، الدار التونسية للنشر - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ص376.

<sup>4</sup> وجيه قانصوة: النص الديني في الإسلام، ص.ص 305، 306.

والاعتبار، والشفاء، والخشوع لله، والتفكير، والبيان للناس، والحكم بين الناس، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وتدبر آياته، وهي وظائف تعبر عن العلاقة الجوهرية بين المطلق اللامتناهي والكائن المتناهي، تشير إلى العلاقة الموجودة بين العباد ورب العباد، وتوحد حركة النص القرآني، ليؤدي دورا موحدًا ومشاركًا ومحوريًا ألا وهو "الهداية"<sup>1</sup>.

فموضوع خطاب معين يعني أن القضايا المعبر عنها في فقرة معينة تستلزم على جهة الاشتراك موضوعًا مرتبطًا بتلك الفقرة. فنتساءل بدءًا ما هو موضوع المقطع و"كل الأجوبة ينبغي أن تُقبل بداهة حسب الاتفاق والتواضع"<sup>2</sup>.

فالموضوع الأكبر للخطاب القرآني أن يربط الأمة العالمية به، ويحوّل تفكيرها، ويغيّر نمط اعتقادها ورؤيتها للكون والخلق والبعث والنشور والعباد والعبادة. موضوع الخطاب القرآني هو مس جوانب الحياة من أدق تفاصيلها إلى أشدها تعقيدًا إلى أكبر الرؤى. وكلام الله هو الحق، والنفس البشرية التي فطمت على الفطرة تميل بداهة إلى الحق لأنه أحق أن يتبع وإن الحكمة ضالة المؤمن فأينما وجدها فهو أحق بها.

إن توصيف القرآن في وحدته الجامعة بالحكيم والمبين والعليم بالإضافة إلى الأوصاف الأخرى، يعني أننا لسنا أمام بنية علاقات جامدة أو مغلقة بين عبارات القرآن ومقاطعته وأجزائه، بل أمام كيان حي ناطق ومحاور<sup>3</sup>. وأول ما ينطق به النص القرآني يدعو إلى عقيدة التوحيد، فهي لب الشريعة الإسلامية، وأساس الإقرار بإيمان الفرد، وانضوائه في سلك المسلمين، ولا يقبل إسلام دون الإقرار بوحدانية الله. مصداقًا لقوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا" النساء/ الآية 48. يقول في هذا الصدد "عبد الملك بومنجل": "قام النص القرآني في كل قيمه وتعاليمه وأحكامه على أساس التوحيد، فكان كتاب معرفة قبل أن يكون كتاب أخلاق وعبادة وشريعة،

<sup>1</sup> وجيه قانصوة: النص الديني في الإسلام، ص306.

<sup>2</sup> فان دايك: النص والسياق، ص187.

<sup>3</sup> وجيه قانصوة: النص الديني في الإسلام، ص306.

فكانت الآيات تتوالى داعية إلى توحيده، معرّفة بصفاته، معظمة لقدرته، وجلاله، منوهة بعلمه وحكمته، وكماله، منزّهة لذاته عن الشبيه والند والكفؤ والجهل والنقص<sup>1</sup>.

وما ينبغي معرفته والتأكيد عليه أن الخطاب القرآني لم ينزل ليدلّل على نظرية من النظريات العلمية ولا ليقرّر قانونا من قوانينها، كما أن النظريات العلمية لم توضع لتشرح آيات القرآن الكريم، وتفسره. وإن كان القرآن قد دعا المسلمين إلى الأخذ بالعلوم الدنيوية، والتمكن من النظريات العلمية المختلفة التي تخدمه في تمدنه، لكن لا ينبغي أن نعتبر العلوم الكونية علوم قرآن، لأن هناك فرقا بين الشيء يحث القرآن على تعلمه وبين العلم يدل القرآن على مسأله ويرشد إلى أحكامه، أو يكون ذلك العلم خادما للقرآن بمسأله أو أحكامه أو مفرداته<sup>2</sup>.

ثم إن تكاليف الشريعة كما يقول "الشاطبي" تقوم على حفظ مقاصد متعلقة بالخلق وهي ثلاثة أقسام:

الضرورية: ولا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، فإذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة. ومجموع الضروريات خمسة: حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل. أحدها أن تكون ضرورية، والثاني أن تكون حاجية، والثالث أن تكون تحسينية. فأما الضرورية

الحاجيات: ويفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الضيق الذي يؤدي غالبا إلى الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب.

التحسينية: الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب الأحوال المدنسات، التي تأنفها العقول الراجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق، والعادات<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> عبد المالك بومنجل: جدل الثابت والمتغير، ص 25.

<sup>2</sup> محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ج 2، ص 39.

<sup>3</sup> إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي أبو اسحاق الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، ج 2، ضبط: إبراهيم رضوان، ط 7، دار المعرفة، بيروت، لبنان 2010 ج 3، ص. ص 324 - 327.

ويرتب "الزرقاني" مواضيع القرآن في محور مقاصد القرآن، إذ به يجزم أن شرع الله يقوم على ثلاثة مقاصد رئيسية: أن يكون هداية للثقلين، وأن يقوم آية لتأييد النبي - صلى الله عليه وسلم، وأن يتعبد الله خلقه بتلاوة هذا الطراز الأعلى من كلامه المقدس<sup>1</sup>.

أما موضوع الجزأين "تبارك" و"عم" فنحددتهما بدءاً بمكان النزول، فهذه الأحزاب الأربعة من القرآن المكّي في عمومها، باستثناء سورة النصر والزلزلة والبيّنة. وحسب "الزركشي" وقع اختلاف بين العلماء في سورة واحدة وهي سورة المطففين هل هي مكّية أم مدنية<sup>2</sup>.

أما "السيوطي" فيعتقد أن السورة الوحيدة المدنية من جزأ المفصل هي سورة "النصر". ونجده يحصي في "الإتقان" السور المختلف فيها، وعددها أكبر مما يعتقده "الزركشي"، وهذه السور هي: المعوذتان والإخلاص والكوثر والزلزلة والبلد والمختار أنها مدنية. سورة البيّنة والقدر والتكاثر والليل والفجر والأعلى والأشهر أنها مكّية. أما الماعون والعاديات والمطففين والإنسان ففيها قولان<sup>3</sup>.

ومهما كانت درجة الاتفاق أو الاختلاف يظل القسط الأكبر من جزء "تبارك" و"عم" من القرآن المكّي. والقرآن المكّي كما يقول الدكتور "وهبة الزحيلي": "يعني بأصول العقيدة الأساسية وهي إثبات وجود الله وعظمته وقدرته على كل شيء، والاستدلال على وحدانيته والإخبار عن البعث والحشر والنشور"<sup>4</sup>. فنجد في القرآن المكّي الإكثار من عرض قصص الأنبياء والمرسلين، ونجده يفضح أعمال المشركين، وفي كل هذا دعوة إلى إخلاص العبادة لله وحده، والإيمان بوجوده، والاتعاظ بقصص السابقين. لذلك فثلث القرآن عبارة عن قصص اعتماداً على معجزة البيان، ثم بعد ذلك إقرار للحق بنمط تعبيرى جمالي.

<sup>1</sup> الزرقاني: مناهل العرفان، ص117.

<sup>2</sup> بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقق: أبو الفضل الدمياطي، دط، دار الحديث، القاهرة 2006، ص137.

<sup>3</sup> الحافظ جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج1، دط، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان 2008، ص34 - 37.

<sup>4</sup> وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج29، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت - دار الفكر، دمشق 1991، ص6.

إن موضوع الخطاب القرآني هو إيصال رسالة الحق بطرق شتى وأساليب مختلفة، يهدف إلى ترسيخ عقيدة الإيمان بالله وحده، ونشر العدالة والمؤاخاة والمحبة في أرجاء المعمورة. لقد نزل القرآن وهو يحمل معه رسالة الإسلام، "وجاء الإسلام بأساس للاجتماع والمؤاخاة يكرم في الإنسان عقله وشعوره وإرادته واختياره، فسمما بالإنسانية، وجعل الترابط تعاملًا يقوم على الاختيار الكامل والالتفاف الإرادي حول فكرة ربانية ورسالة عالمية وغاية نبيلة كريمة أوسع من أن تقيدها حدود التراب، وأكرم من أن تحدها روابط الدم وأرفع من أن تثبطها نوازع المصلحة"<sup>1</sup>.

إن خدمة رسالة الإسلام وخدمة كتابها واجب كل مسلم، فالإسلام ليس رسالة إقليمية محدودة بحدود الجزيرة العربية، أو محدودة بأول من احتضن مهد النبوة، إنما هي رسالة للعالمين من البشر، ولإدراك المسلمين لهذا المطلب، ولعلمهم بأن المقصد الأكبر لرسالة الإسلام توحيد الخلق تحت لواء لا إله إلا الله، أي لا معبود بحق سواه. بهذه القيمة وهذه المكانة هرعوا لاستقبال نداء الحق للحفاظ على رسالة موجهة للبشرية جمعاء تحمل المنهج والشريعة، قامت وتقوم على سلطة أمرية تنفيذية. نفذ منها ما نفذ بدرجات متفاوتة حسب ترتيب السلم العقائدي والإيماني لبني البشر. وتوقف النصف الأكبر منها في مفترق الطرق لأسباب عديدة، غالبًا ما تكون أسبابًا سياسية، ودوافع علمانية، رفضت الخطاب القرآني اعتقادًا منها أنه لا يمكن أن تندمج مطالبه بمطالب الحياة المتحررة اعتبارًا أن الإنسان هو القوة الفاعلة في الوجود ولا يوجد موضوع سواه.

إن أقطاب الإرسال وصورة الخطاب وموضوعه تشكل الدائرة النصية المنفتحة على مسار الحثيات التي أدت إلى تفعيل الخطاب القرآني مع محيط التلقي والتفاعل في إطار إستراتيجية نصانية محددة. وكما أقر بذلك علماء النص وحتى النقد الحدائثي يستحيل عزل القارئ عن المحيط الفكري الذي ينتمي إليه.

<sup>1</sup> عبد الملك بومنجل : جدل الثابت والمتغير، ص31

## 2 - تحديد بنيات الخطاب القرآني وترسيمة توزيعها:

إن الإحاطة بالدائرة النصية كما يقول "عثمان أبو زنيد" يمرّ عبر تحديد البنية الكلية للنص بالنظر إلى الدلالة العامة مع إبراز أثر السياق وتحديد البنى النصية الكبرى وذلك من خلال حصر الأركان الهامة، كذا تفكيك البنى النصية الصغرى<sup>1</sup>.

إن النص هو الشكل الأساسي للتنظيم الذي تتجلى فيه لغة إنسانية، فحين يتواصل الناس لغويا بوجه عام فإنهم يتواصلون (يتكلمون - يكتبون) في صورة نصوص، ولما كان التواصل الإنساني فعلا اجتماعيا دائما فإن النص في الوقت نفسه هو تلك الوحدة التي يُنجز بواسطتها النشاط اللغوي بوصفه نشاطا اجتماعيا - تواصليا<sup>2</sup>. فأساس التواصل تحقيق الدلالة، وتحقيق الدلالة يقوم على وجود تفاعل بين أقطاب الإرسال، وتحقيق التفاعل يكون بوجود منظومة معرفية تحيط بقارئ الخطاب. و"النص شكل لتحقيق مقاصد الإبداع والتأثير"<sup>3</sup>، لأن تغيير سلوك معين أو تحقيق درجة الإقناع التي يسعى إليها أي خطاب مهما كان شكله فضلا عن الخطاب القرآني إنما يقوم على مخاطبة الفرد والواقع بدرجات استدرجية للفهم ووعي الآخر. وكما يقول "روبرت دي بوجرند": "النص تجلّ لعمل إنساني ينوي شخص أن ينتج نصا ويوجه السامعين به إلى أن يبنوا عليه علاقات من أنواع مختلفة... النصوص تراقب المواقف وتوجهها وتغيّرها"<sup>4</sup>. علما أن ما يراقب المواقف هو مضمون الخطاب الذي يشتمل على البنيات النصية الصغرى والكبرى. كما يمر فهم الآخر، ونمط بناء العلاقات التي تحدث عنها "روبرت دي بوجرند" عبر إدراك لقيمة البنيات النصية التي تعبّر عن فهم النص وتوضحه.

إن الأبنية الكبرى ذات طبيعة دلالية، لا يبدأ التحليل بها إنما يبدأ التحليل من الأبنية الصغرى، أي من التماسك الجزئي الذي يولد التماسك الكلي، في سلم انتقالي من البنية الصغرى إلى البنية الكبرى، فالبنية

<sup>1</sup> عثمان أبو زنيد: نحو النص - إطار نظري ودراسات تطبيقية، ط1، عالم الكتب الحديث، أربد، 2009.

<sup>2</sup> سعيد حسن بحري: اسهامات أساسية في العلاقة بين النص والنحو والدلالة، ط1، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، 2008، ص19.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص12

<sup>4</sup> روبرت دي بوجرند: النص والخطاب والإجراء، ص92.

الكبرى هي تشكيل دلالي لمجموع الأبنية الصغرى التي تستوعب وتستخلص من خلال التراكيب المشكلة في جمل أو متتاليات من الجمل شريطة ألا ترقى إلى مستوى النص. كما أن الأبنية الصغرى تحتاج إلى قواعد لعمل الربط بينها وبين الأبنية الكبرى، إذ الأمر يتعلق بأبنية دلالية قضوية تتشكل بوصفها سلاسل من قضايا مرتبطة بسلاسل أخرى<sup>1</sup>.

إن النظر إلى القرآن لا يمكن أن يفصله عن وحدته العامة وبنيته الكبرى باعتبارها نصا قرآنيا واحدا موحدا، رغم انقسامه إلى أجزاء وأحزاب وسور وآيات، إلا أنه يظل نصا واحدا يسمى قرآنا، بمرسل واحد ومثلق أصلي واحد، خطاب لا يوجد مثله لا من قبل ولا من بعد. وعلم النص يقر أن النص ينظر إليه في بنيته الكبرى، وفي بنيته الفوقية التي تجسد خطاب الحجاج في مستواه الراقى. لكن الخطاب القرآني يتشكل بدوره من مركبات نصية بسيطة ومركبة تشكل فيه بنيات صغرى تعني بالجزئيات، وبنيات كبرى تكون أكثر شمولا وإحاطة وصولا إلى البنية الكلية التي يتمحور حولها موضوع الخطاب تمهيدا لاكتشاف البنية الفوقية.

## 2-1 - توزع البنيات الصغرى:

ما يميز الخطاب القرآني من حيث الشكل عن بقية الخطابات هو خضوعه التام للبنية اللسانية التي ما فتئ يدعو إليها رواد علم اللغة النصي، فطريقة بناء الخطاب القرآني مع نظام الآيات وأسماء السور والأحزاب والأجزاء يجسد الانقسام إلى بنيات صغرى وكبرى وكلية، وأمام التحليل تسهل عملية اكتشاف هذه البنيات، بل وتكون النتائج المتحققة أقرب ما تكون إلى اليقين والدقة مقارنة مع الخطابات البشرية الأخرى.

والنص العربي عموما - والقرآن الكريم نص عربي - لا يسلك في بنائه واتساقه وانسجامه سبيلا مخالفا للنص الغربي بحيث تعجز أدواته عن مقارنته<sup>2</sup>، بل هو نص منفتح على القراءات العلمية والمناهج الحداثية التي لا تزيده إلا إعجازا وتفردا.

<sup>1</sup> نوال لخلف: الانسجام في القرآن الكريم، ص 38.

<sup>2</sup> أحمد خطابي: لسانيات النص، 95.



تعتبر أسماء السور المفتاح الذي نلج من خلاله إلى معرفة الدلالة العامة للسورة كما أن جهود المتلقي في إعادة بناء الخطاب محكمة بعنوان السورة أولا وبالآيات الأولى للسورة ثانيا، فيكون التأويل محدودا بحدود الفهم الذي يقتضي العودة إلى السياق من خلال جهود المفسرين.

يمكن استخلاص البنيات الصغرى باختيار الآيات فيكون الاجتهاد فقط في اختيار الآيات بالنظر إلى درجة الورود والتحقق والدلالة المتكررة، بمعنى أن البنيات الصغرى تُستخلص من خلال الآيات، ويتحدد عدد البنيات بالنظر إلى حجم السورة فكلما كانت السورة طويلة زاد عدد البنيات الصغرى وكلما كانت قصيرة نقص العدد.

كما يمكن إعطاء بنية صغرى لمجموعة من الآيات لها المعنى نفسه أو تقريبه بأسلوب المحلل الخاص كما هو الشأن مع الطريقة التي اعتمدها الدكتور "وهبة الزحيلي" في تفسيره للقرآن الكريم.

وعلى الطريقة نفسها قمنا بتقسيم البنيات الصغرى للخطاب القرآني لجزأي "تبارك" و"عم". فأعطينا لكل سورة بنية صغرى أو مجموعة من البنيات الصغرى حسب المواضيع المعالجة في السورة وحسب طول السورة، فغالبا ما يكون عدد البنيات كبيرا في السور الطويلة، وينقص عددها بصغر السورة.

كما أن استخلاص البنى الصغرى يقوم بالنظر إلى أبنية الجمل والتتابعات<sup>1</sup>.

تضم الدراسة كما هو محدد بدءا جزأين من كتاب الله الكريم: جزء "تبارك"، وجزء "عم". ويجوي جزء "تبارك" على حزين:

### - الحزب الأول:

ترتيبه في القرآن الكريم "الحزب 57" ويضم السور الآتية:

الملك، القلم، الحاقة، المعارج، نوح.

<sup>1</sup> فان دايلك: علم النص، ص74.

### - الحزب الثاني:

ترتيبه في القرآن الكريم "الحزب 58" ويضم السور الآتية:

الجن، المزمّل، المدثر، القيامة، الإنسان، المرسلات.

- كما يحوي جزء "عم" بدوره حزبين:

### - الحزب الأول:

وترتيبه في القرآن الكريم "الحزب 59" ويضم السور الآتية:

النبا، النازعات، عبس، التكوير، المطففين، الانشقاق، البروج، الطارق.

### - الحزب الثاني:

وترتيبه في القرآن الكريم "الحزب 60" ويضم السور الآتية:

الأعلى، الغاشية، الفجر، البلد، الشمس، الليل، الضحى، الشرح، التين، العلق، القدر، البينة، الزلزلة،

العاديات، القارعة، التكاثر، العصر، الهمزة، الفيل، قريش، الماعون، الكوثر، الكافرون، النصر، المسد،

الإخلاص، الفلق، الناس.

وأغلب هذه السور مكية باتفاق، عدا سورة النصر فهي مدنية باتفاق، وهناك بعض السور المختلف

فيها وكنا قد تطرقنا إلى هذه النقطة في المبحث الأول.

إن الموضوع النواة الذي تشترك في هذه السور هو إنشاء العقيدة السليمة إذ إن النفوس كانت في

بداية الدعوة ولا تزال في حديث عهدا بالإسلام، وكان يقتضي هذا جهادا قصد إعادة تربية النفس لكي

تتقبل كون الممارسات الشعائرية الماضية خاطئة.

تتفرع المواضيع بحسب اختلاف السور بين سرد، وتسبيح، وقسم على صحة الدعوة وتذكير، رغم أن

الخطاب القرآني خطاب حجائي بالدرجة الأولى، وقد أفاضت كتب التفسير في إنارة هذا الجانب. وأهم

تفسير يتقاطع مع مفاهيم وآليات علم النص "التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج" لـ "وهبة الزحيلي"، فيتجاوز جهد هذا العالم مع رؤى علم النص خاصة في حديثه عن المركبات والبنيات التي يسميها هو ب: فقه الحياة والأحكام، وكان في كل مرة يقسم السورة إلى مجموعة من الآيات التي يأخذ منها الدلالة الإجمالية للنص.

لقد كان جهد "وهبة الزحيلي" إنجازا له مستواه ومكانته ليس في مجال التفسير فحسب، إنما في مجال تناص المعارف التي تخدم النص ككل، حيث أثبت - اعتمادا على جهد كان يقتضي خدمة النص وليس خدمة المنهج - أن القرآن الكريم رغم قدسيته إلا أنه خطاب يتقبّل أشكال الدراسات الحدائثة العلمية. إن أول خطوة نبني عليها معرفتنا النصية للخطاب هو النظر إلى البنيات الصغرى التي تجسد تواليها من الحالات، فيبدأ التحليل من الأبنية الصغرى أي من التماسك الجزئي، وهذا التماسك الجزئي هو الذي يولد التماسك الكلي في سلم انتقال من البنية الصغرى إلى البنية الكبرى<sup>1</sup>.

#### -البنيات الصغرى لجزأي "تبارك" و"عم":

يتحدد مفهوم البنية بالنظر إلى مجموع المركبات التي تشكل موضوعا جزئيا داخل الموضوع الكلي وهو ما يسمى بالبنيات الصغرى. فمجموع البنيات الصغرى تشكل البنية الكبرى التي هي موضوع الخطاب، وهذا المفهوم مهم جدا لأنه الأساس الذي تنتظم وفقه الخطابات، و"يمكن أن يجعل المحلل قادرا على فهم السبب الذي يجعل الجمل والأقوال متآخذا كمجموع من صنف مفصل عن مجموع آخر، يمكن أن يقدم أيضا وسيلة لتمييز الأجزاء الخطابية الجيدة المنسجمة من تلك التي تُعدّ حدسيا جملا متجاوزة غير منسجمة"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص 132.

\* للأمانة العلمية نؤكد أن تقسيم أغلب السور إلى بنيات صغرى اعتمدنا فيه على التقسيم الذي وضعه "وهبة الزحيلي"، إذ لم نجد مركبا يمكنه أن يعبر بدقة أكثر مما عبر عنه صاحب التفسير المنير.

<sup>2</sup> نعمان بوقرة : الخطاب الأدبي ورهانات التأويل - قراءة نصية تداولية حجاجية، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن 2012، ص206.

## - تحديد البنيات الصغرى لجزء "تبارك":

### 1 - سورة الملك:

وعدد آياتها ثلاثون، وهي سورة مكية. تناولت سورة الملك موضوعات متنوعة، أهمها ستة موضوعات، وهي ذاتها التي تشكل ستة بنيات صغرى، محددة من خلال مركبات جمالية إذ إن أبنية الجمل - كما يقول "فان دايك" - هي أبنية صغرى<sup>1</sup>. وهي محددة حسب ترتيب آيات القرآن الكريم، دون تقديم فيها أو تأخير، إذ لا يحق التصرف عند تحديد البنيات حفاظا على نظام ترتيب البناء النصي الذي يعبر عن بناء الحدث في الواقع. وتتنظم هذه البنيات الصغرى وفق النحو الآتي:

أ - بعض أدلة القدرة الإلهية: (الآيات 1 - 5).

ب - تعذيب الكفار العصاة: (الآيات 6 - 11).

ج- وعد المومنين بالمغفرة وتهديد الكافرين مرة أخرى: (الآيات 12 - 15).

د- أنواع من الوعيد والتهديد والعبرة بالأمم السابقة: (الآيات 16 - 19).

هـ - توبيخ المشركين وإثبات قدرة الله واختصاصه بعلم البعث: (الآيات 20 - 27).

و - دعاء كفار مكة على النبي - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين بالهلاك: (الآيات 28 - 30).

### 2 - سورة القلم:

تحتوي السورة على اثنين وخمسين آية، وهي سورة مكية باتفاق. تطرقت السورة إلى خمسة موضوعات أساسية، تراوحت ما بين الإشادة بأخلاق النبي الفاضلة وذم الأخلاق السيئة، كما احتوت على قصة أصحاب الجنة التي تدعو إلى الاعتاز وأخذ العبرة. فكانت بنيات السورة البسيطة منتظمة وفق الترتيب الآتي:

أ - كمال الدين والخلق عند النبي - صلى الله عليه وسلم : (الآيات 1 - 7).

ب - الأخلاق الذميمة عند الكفار: (الآيات 8 - 16).

<sup>1</sup> فان دايك : علم النص ، ص74.

ج- قصة أصحاب الجنة: (الآيات 17 - 33).

د - جزاء المتقين وإنكار التسوية بين المطيع والعاصي: (الآيات 34 - 43).

هـ - تخويف الكفار من قدرة الله تعالى وأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالصبر والتذكير العالمي

بالقرآن: (الآيات 44 - 52).

### 3 - سورة الحاقة:

آياتها اثنان وخمسين، وهي من القرآن المكي باتفاق العلماء. وهذه السورة استهلكت بالقسم الذي يكرس مبدأ التأكيد على وجود البعث والحساب، فمن خصوصيات القرآن المكي أنه يركز على قضية البعث والنشور مؤكداً أن مآل الإنسان إما الجنة أو النار. وتنقسم السورة بدورها إلى خمس بنيات محددة وفق الترتيب الآتي:

أ - تعظيم يوم القيامة وإهلاك المكذابين به: (الآيات: 1 - 12).

ب - بعض أهوال القيامة: (الآيات: 13 - 18).

ج - حال الأبرار الناجين بعد الحساب: (الآيات 19 - 24).

د - حال الأشقياء يوم القيامة: (الآيات 25 - 37).

هـ - تعظيم القرآن واثبات نزوله بالوحي: (الآيات 38 - 52).

### 4 - سورة المعارج:

تحتوي السورة على أربع وأربعين آية. السورة مكية بإجماع، وموضوعاتها تتحاور مع السورة السابقة في تأكيدها على البعث، داعية النبي الكريم إلى الصبر في انتظار وعد ربه الحق. وقد ركزت السورة على ثلاث موضوعات مهمة، لكن المذكور أولاً له قيمة أكبر من المذكور أخيراً. وهذه البنيات هي:

أ - تهديد المشركين بعذاب القيامة وتأكيد وقوعه: (الآية 1 - 18).

ب - الخصال العشر التي تعالج طبع الإنسان: (الآية 19 - 35).

ج - أحوال الكفار المكذبين بالرسول الكريم في الدنيا والآخرة: (الآية 36 - 44).

### 5 - سورة نوح:

وهي في ثمان وعشرين آية، سورة مكية. قسم ثالث من أقسام القرآن الذي ينتمي إلى جنس القصص، فعنوان السورة دليل على اشتغالها على قصة النبي "نوح" عليه السلام. بل إن السورة من بدايتها إلى نهايتها حديث عن النبي "نوح" عليه السلام" وما لاقاه من تكذيب قومه، وصبره على ذلك. فانقسمت القصة إلى ثلاث بنيات أساسية وهي:

أ - إرسال نوح - عليه السلام - إلى قومه: (الآية 1 - 4).

ب - مناجاة نوح ربه وشكواه إليه: (الآية 6 - 20).

ج - أنواع من قبائح قوم نوح وأقوالهم وأفعالهم: (الآية 21 - 28).

### 6 - سورة الجن:

وهي في ثمان وعشرين آية، مكية بلا خلاف، سورة مختلفة في موضوعها عن جميع ما سبقها من سور، إذ إن موضوعها الرئيس هو الخطاب الذي وجهه النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - للجن. وشكلت السورة أربع بنيات رئيسية هي:

أ - إيمان الجن بالقرآن وبالله تعالى: (الآية 1 - 7).

ب - حكاية أشياء أخرى عن الجن: (الآية 8 - 17).

ج - أنواع أخرى من الموحى به إلى النبي وبيان أصول رسالته: (الآية 18 - 24).

د - علم تعيين الساعة مختص بالله عالم الغيب: (الآية 25 - 28).

## 7 - سورة المزمل:

تحتوي السورة على عشرين آية، وهي سورة مكية بلا خلاف. والمزمل هو المدثر، والخطاب موجه للنبي

- عليه الصلاة والسلام - في ثلاث مواضيع مهمة شكلت السورة وهي:

أ - إرشاد النبي - صلى الله عليه وسلم - في بدئ الدعوة: (الآية 1 - 10).

ب - تهديد الكفار وتوعدهم: (الآية 11 - 18).

ج - تذكير وإرشاد بأنواع الهدايا (الآية 19 - 20).

## 8. سورة المدثر:

السورة في ست وخمسين آية. مكية دون خلاف. وهي في استهلالها شبيهة بسورة المزمل، حيث النداء

بـ "يا أيها" للبعيد، والبعيد هنا لا يعني بعد المسافة إنما قصد للفت الانتباه، بأن الأمر المحدث عنه عظيم وإن

المطلب جليل. أما موضوعات السورة فقد انبنت وفق أربع بنيات صغرى هي:

أ - إرشادات للنبي - صلى الله عليه وسلم - في بدئ الدعوة: (الآية 1 - 10).

ب - تهديد زعماء الشرك: (الآية 11 - 30).

ج - الحكمة في اختيار عدد خزنة جهنم التسعة عشر: (الآية 31 - 37).

د - الحوار بين أصحاب اليمين وبين المجرمين: (الآية 38 - 56).

## 9 - سورة القيامة:

آياتها أربعون، سورة مكية، وهي عودة إلى محور إثبات البعث، من خلال أدلة وبراهين يراها الإنسان

في نفسه وفي محيطه، ومضامين أخرى احتوتها البنيات الثلاث الآتية:

أ - إثبات البعث والمعاد وعلاماته: (الآية 1 - 15).

ب - حرص النبي على حفظ القرآن وحال الناس في الآخرة: (الآية 16 - 25).

ج - تفريط الكافر في الدنيا وإثبات البعث: (الآية 26 - 40).

### 10 - سورة الإنسان (الدهر):

آياتها إحدى وثلاثين. وقع حولها خلاف هل هي مكية أم مدنية، أغلبهم يرجحون على أنها مدنية.

تسمى "الإنسان" لورود الحديث عن معجزة خلق الإنسان، وتسمى الدهر. وبين الإنسان والدهر قصة لتحول

الدهر وتبدل الأيام والأنام. السورة بدورها انبنت وفق أربع بنيات هي:

أ - خلق الله الإنسان وهدايته السبيل: (الآية 1 - 3).

ب - جزاء الكفار والأبرار يوم القيامة: (الآية 4 - 12).

ج - مساكن أهل الجنة وأشرقتهم وخدمهم وألبستهم: (الآية 13 - 22).

د - أحوال الطائعين والمتمردين المشركين في الدنيا: (الآية 23 - 31).

### 11 - سورة المرسلات:

والسورة في خمسين آية، مكية بلا خلاف. انبنت وفق قاعدة الموسيقى الداخلية الظاهرة للعيان من

خلال الفاصلة المكررة في آياتها الأولى.

تحمل السورة رسالة حقيقة البعث والحساب والجزاء والجنة أو النار. وهي مثل السور السابقة عليها،

يمكن تقسيمها إلى مركبات تشكل أربع بنيات مهمة وهي:

أ - وقوع يوم القيامة حتما ووقته وعلاماته: (الآية 1 - 15).

ب - تخويف الكفار وتحذيرهم من الكفر: (الآية 16 - 28).

ج - ثلاثة أنواع أخرى من أشكال تخويف الكفار وكيفية عذابهم في الآخرة: (الآية 29 - 40).

د - الأنواع الباقية من تهديد الكفار وتعذيبهم: (الآية 41 - 50).



## - تحديد البنيات الصغرى لجزء "عم":

### 12 - سورة النبأ (عم):

آياتها أربعون. وهي من القرآن المكي، يستهل بها آخر جزء من القرآن (الجزء الثلاثون). تسمى النبأ، بمعنى الخبر، وهو خبر البعث، وتسمى "عم" بمعنى عن ماذا. أي عن ماذا يتساءل ويشكك ويستفهم الكافرون. ومحاور السورة تجعلها في أربعة مواضيع مهمة هي كالآتي:

أ - حقيقة البعث وأدلة إثباته: (الآية 1 - 16).

ب - أوصاف يوم القيامة وأماراتها ونوع العذاب: (الآية 17 - 30).

ج - أحوال السعداء: (الآية 31 - 36).

د - عظمة الله ورحمته، وتأكيد وقوع يوم القيامة وتحديد الكافرين المعاندين: (الآية 37 - 40).

### 13 - سورة النازعات:

السورة في ست وأربعين آية. سورة مكية تعالج - والقرآن المكي أكثر ما يعالجه - قضية البعث، وإقرار حقيقة الموت والحساب، والجنة والنار، والسورة في بنياتها الصغرى سرد لهذه الحقائق. وهذه البنيات أربع وهي:

أ - الحلف على وقوع البعث وأحوال المشركين فيه والرد على إنكارهم إياه: (الآية 1 - 14).

ب - التهديد بقصة موسى عليه السلام مع فرعون: (الآية 15 - 26).

ج - إثبات البعث بخلق السماوات والأرض والجبال: (الآية 27 - 33).

د - جزاء البشر في الآخرة وتفويض علم الساعة لله، وقصر الدنيا: (الآية 34 - 46).

#### 14 - سورة عبس:

آياتها اثنان وأربعون، سورة مكية، بنياتها متعددة المحاور، وفيها يظهر جنس القصص في مستهل السورة، في سرد قصة "ابن أم مكتوم"، ثم عودة إلى التذكير بالبعث والحساب كما هو شأن القرآن المكي عموماً. أما بنيات السورة فهي أربع:

أ - المساواة في الإسلام: (الآية 1 - 10).

ب - القرآن موعظة وتذكرة ونعم الله في نفس الإنسان: (الآية 11 - 23).

ج - نعم الله فيما يحتاج إليه الإنسان: (الآية 24 - 33).

د - أهوال القيامة: (الآية 34 - 44).

#### 15 - سورة التكوير:

السورة في تسع وعشرين آية، من القرآن المكي. وهي في مستهلها قسم بالطريقة التي استدارت بها الشمس، إظهار لقوة وقدرة الله عز وجل دائماً، فوصف السورة لمظاهر قوة الله وقدرته على الخلق هما الموضوعان اللذان شكلا بنيات السورة:

أ - أحوال القيامة وأهوالها: (الآية 1 - 14).

ب - الحلف لإثبات صدق الوحي وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام: (الآية 15 - 29).

#### 16 - سورة الانفطار:

السورة في تسع عشرة آية، مكية، لا تختلف عن سابقتها في طريقة البناء وفي أهم المحاور التي تشكل الموضوع العام للقرآن المكي. وللسورة بنيتان اثنتين صغيرين هما:

أ - أمارات يوم القيامة والجزاء من جنس العمل، وتوبيخ الإنسان على جحوده: (الآية 1 - 8).

ب - علة الجحود، وكتابة الملائكة، وانقسام الناس فريقين: (الآية 9 - 19).

## 17 - سورة المطففين:

آياتها ست وثلاثون. هناك خلاف بين من يقول هي مكية وبين من يقول إنها مدنية. وربما السبب الأساسي للخلاف كون السورة تعالج موضوعا متعلقا بمواضيع القرآن المدني الذي يدخل في تنظيم العلاقات بين الأفراد، والمتعلق في هذا الصدد بقضية البيع والشراء.

وللسورة أربع بنيات صغرى شكلت محاورها العامة والهامة وهي:

أ - وعيد المطففين: (الآية 1 - 6).

ب - ديوان الشر وقصة الفجار: (الآية 7 - 17).

ج - ديوان الخير وقصة الأبرار: (الآية 18 - 28).

د - سوء معاملة الكفار للمؤمنين في الدنيا ومقابلتهم بالمثل في الآخرة: (الآية 29 - 36).

## 18 - سورة الانشقاق:

آياتها خمس وعشرون، سورة مكية. ودائما في محور القرآن المكي الذي يؤكد على حقيقة البعث ووجود القيامة والموت والحياة. في خمس وعشرين مركبة جسدت بنيتين رئيسيتين هما:

أ - أهوال يوم القيامة وانقسام الناس فريقين: (الآية 1 - 15).

ب - تأكيد وقوع يوم القيامة وما يتبعها من الأهوال: (الآية 16 - 25).

## 19 - سورة البروج:

اثنان وعشرون آية، سورة مكية. تراوحت موضوعاتها ما بين القص والسرد والوصف. اعتمادا على كل الآليات الخطابية التي تشكل سيرورة دلالية توصل المعنى في أوجز لفظ وأدق تعبير. والسورة في ثلاث بنيات صغرى رئيسية وهي:

أ - القسم بأشياء عظام على لعنة أصحاب الأخدود: (الآية 1 - 9).

ب - عقاب الكفار وثواب المؤمنين: (الآية 10 - 11).

ج - كمال القدرة الإلهية لتأكيد الوعد والوعيد والاعتبار بإهلاك الأمم الكافرة: (الآية 13 - 22).

## 20 - سورة الطارق:

بها سبع عشرة آية، سورة مكية. قسمٌ على قدرة الله، سير على مسار السور السابقة التي تؤكد حقيقة

وجود الله ووجود البعث والحساب، وأهم موضوعات السورة جعلتها في بنيتين اثنتين هما:

أ - القسم على أن لكل نفس حافظاً من الملائكة يراقبها مع إثبات البعث: (الآية 1 - 10).

ب - القسم على صدق القرآن والرسالة وتهديد الكائدين لهما: (الآية 11 - 17).

## 21 - سورة الأعلى:

وهي في تسع عشرة آية، يرى "الزركشي" أنها من القرآن المكي، أما "السيوطي" فيرى بأنها من السور

المختلف فيها ويرجح أن تكون مكية.

سورة الأعلى هي مستهل لآخر حزب من القرآن الكريم. مستهل السورة مختلف عن بقية السور

السابقة، لكن السور المستهلة بالتسبيح في القرآن الكريم كثيرة، والتسبيح معناه التنزيه، تنزيه الله عن النقص

والولد والوالدة والظلم وغيرها من الصفات التي تجسد كمال الخالق عز وجل. وسورة الأعلى تحتوي على

موضوعين رئيسيين هما بنيتا السورة:

أ - تنزيه الله تعالى وقدرته وتحفيظه القرآن لنبيه: (الآية 1 - 8).

ب - التذكير وتزكية النفس والعمل للآخرة: (الآية 9 - 19).

## 22 - سورة الغاشية:

وهي في ست وعشرين آية، سورة مكية. تناولت بالحديث جزاء الكفار يوم البعث، مع التذكير بقوة

خلق الله وأماراته في هذا الكون. وتحوي السورة على ثلاث بنيات صغرى هي:

أ - أهوال القيامة وأحوال أهل النار: (الآية 1 - 7).

ب - أحوال المؤمنين المخلصين أهل الجنة: (الآية 8 - 16).

ج - إثبات قدرة الله على البعث والتذكير بأدلة ذلك: (الآية 17 - 26).

### 23 - سورة الفجر:

وهي ثلاثون آية. أما بخصوص تصنيفها فشأنها شأن سورة الفجر، حيث يرى "السيوطي" بأنها من

السرور المختلف فيها، في حين يرجح "الزركشي" أن تكون مكية.

وفي السورة عودة إلى القسم للتأكيد على أهوال القيامة من خلال إيراد قصص الماضين للعضة

والتحذير. ومواضيع السورة احتوتها ثلاث بنيات صغرى هي:

أ - حتمية عذاب الكفار وجزاء بعضهم في الدنيا: (الآية 1 - 14).

ب - توبيخ الإنسان على قلة اهتمامه بالآخرة وفرط تماديه في الدنيا: (الآية 15 - 20).

ج - حال الإنسان الحريص على الدنيا والمترفع عنها يوم القيامة: (الآية 21 - 30).

### 24 - سورة البلد:

عشرون آية، يرجح "السيوطي" أن تكون من القرآن المدني، رغم الاختلاف الواقع حولها، في حين

يصنفها "الزركشي" ضمن القرآن المكي. والسورة دائما تأكيد على وجود اليوم الآخر. وما يميز السورة هو

القسم بمكة، أرض الله الحرام، تقديسا لحرمتها ومكانتها وطهارتها. أما بنيات السورة الصغرى فهما اثنتان:

أ - ابتلاء الإنسان بالتعب واغتراره بقوته وماله: (الآية 1 - 7).

ب - مبدأ الاختيار وطريق النجاة في الآخرة: (الآية 8 - 20).

## 25 - سورة الشمس:

تحتوي على خمس عشرة آية، سورة مكية دون خلاف، سورة للعضة والتذكير، راسما سبل الصلاح،

محتوية على نمط القص، تنقسم بنياتها الخمسة عشر إلى موضوعين يحددان بنيتين صغيرتين هما:

أ - جزء إصلاح النفس وإهمالها: (الآية 1 - 10).

ب - العظة بقصة ثمود: (الآية 11 - 15).

## 26 - سورة الليل:

سورة في واحد وعشرين آية. يقر "السيوطي" بأنها من السور التي تدرج في زمرة السور المختلف فيها،

ويرجح أن تكون مكية، في حين يصنفها "الزركشي" ضمن القرآن المكي. ومهما يكن من اختلاف في

وجهات الرؤى تبقى السورة تعبيرا عن نواميس الكون، ساردة دلائل قدرة الله في خلقه الزمن وتصنيفه للوقت،

ومعجزة خلقه للنفس البشرية، تمهيدا - كما هو حال خطاب السور المكية - لتأكيد البعث الذي يكون

محطة للحساب. والسورة رغم أهمية كل عنصر من عناصرها إلا أنها تحتوي على بنيتين صغيرتين هما:

أ - اختلاف مسعى الناس: (الآية 1 - 11).

ب - قد أعذر من أنذر: (الآية 12 - 21).

## 27 - سورة الضحى:

فيها إحدى عشرة آية، وهي من القرآن المكي دون خلاف. مثل سابقتها في حديثها عن معجزة

الزمن المقرونة بمعجزة إرسال الوحي. تشكلت وفق أسلوب التأكيد المثبت من القسم ليعبر عن بنيتين هما:

أ - الله لا يتخلى عن نبيه. (الآية 1 - 4).

ب - نعم الله تعالى على النبي محمد صلى الله عليه وسلم: (الآية 5 - 11).

## 28 - سورة الشرح ( الانشراح):

في ثماني آيات، من القرآن المكي. خطاب مستهل بالاستفهام الذي يقتضي التأكيد، في دعوة إلى

الثبات من خلال بنيتين صغيرتين محددتين هما:

أ - نعم الله تعالى على نبيه، وأوامره له: (الآية 1 - 4).

ب - دعوة إلى الصبر والتقرب من الله: (الآية 5 - 8)

## 29 - سورة التين:

سورة في ثماني آيات، من السور القصيرة، وشأن السور القصار الإكثار من القسم، والقسم في سورة

التين متراوح ما بين المأكولات التي أثبت العلم التجريبي فوائدها الجمّة، فلا يكون القسم بما إلا لقيمتها خاصة

حين تقترن في سلمها التراتبي إلى جوار طور سنين والبلد الأمين. وللسورة بنيتين تُلمّان بموضوعي السورة وهما:

أ - حال النوع الإنساني خلقا: (الآية 1 - 5)

ب - حال النوع الإنساني عملا: (الآية 6 - 8).

## 30 - سورة العلق:

انبتت السورة في تسع عشرة آية، مكية دون خلاف، يكفي أن تكون آياتها الأولى من أوائل ما نزل

من القرآن الكريم. وهذه السورة هي حجة على من أنكر الأهمية التي أعطاها الإسلام للعلم ، ليقترن ذكره

بذكر بدئ خلق الإنسان، مع صورة إثبات وجود الحساب ككل مرة، والسورة في بنيتين هما:

أ - الحكمة في خلق الإنسان وتعليمه القراءة والكتابة: (الآية 1 - 8).

ب - صور أخرى من الطغيان وتهديد الطغاة ووعيدهم: (الآية 9 - 19).

### 31 - سورة القدر:

وهي خمس آيات، يصنفها "الزركشي" في خاتمة القرآن المكي. والسورة في مركباتها الخمس تتناول الحديث عن ليلة القدر وهي الليلة التي أنزل فيها القرآن من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا. موضوع السورة واحد يرتبط بليلة القدر لكن استخلصنا له بنيتين صغيرتين هما:

أ - تعظيم شأن ليلة القدر: (الآية 1 - 3).

ب - فضائل ليلة القدر: (الآية 4 - 5).

### 32 - سورة البينة:

وفيهما ثماني آيات. هي من السور المختلف فيها حسب "السيوطي" ويقول: إن الأشهر أن تكون مكية، أما "الزركشي" فيقول بأنها من السور المدنية. والسورة تتناول موضوعات مكية في تقرير عقيدة التوحيد لكنها تتطرق إلى موضوعات مدنية في ذكرها للصلاة والزكاة. أما بنيات السورة الصغرى فهي:

أ - لا تكليف بلا بيان ولا عقوبة بلا إنذار: (الآية 1 - 5).

ب - وعيد الكفار ووعد الأبرار وجزاء الفريقين: (6 - 8).

### 33 - سورة الزلزلة:

تحتوي على ثماني آيات. يصنفها "ابن كثير" ضمن القرآن المكي، أما "السيوطي" فيقول إنها من السور المختلف فيها، لكن المختار عنده أنها مدنية، في حين يضمها "الزركشي" في خاتمة القرآن المدني. وللسورة بنيتان تحتويان مجمل مركباتها البسيطة والمركبة وهما:

أ - هلع الإنسان يوم الزلزلة: (الآية 1-5).

ب - الحساب الدقيق الذي يلاقيه يومئذ: (الآية 6 - 8).



### 34 - سورة العاديات:

آياتها إحدى عشرة، يصنفها "الزركشي" ضمن القرآن المكي، ويقول "السيوطي" فيها قولان، قول يضمها في خانة المكي، وآخر في خانة المدني. والسورة قسم بالخيول الغاديات الرائحات، وللخيول قيمتها عند الأعراب عموماً إذ كانت عندهم رمزاً للشجاعة، وقد اشتهر عنهم أن "العز بالإبل والشجاعة بالخيول". فكان القسم بها لإثبات هاتين البنتين:

أ - جحود النعم والبخل لحب الخير وإهمال الاستعداد للآخرة: (الآية 1 - 8).

ب - إهمال الاستعداد للآخرة: (الآية 9 - 11).

### 35 - سورة القارعة:

سورة فيها إحدى عشرة آية، مكية دون خلاف، لا تختلف في طريقة بنائها وموضوعها عن القرآن المكي. وعنوان السورة مفتاح لمقصدها المشكل في بنتين هما:

أ - أهوال القيامة وأماراتها: (الآية 1 - 5).

ب - ميزان الحساب يوم القيامة (الآية 6 - 11).

### 36 - سورة التكاثر:

تتكون من ثماني آيات، مكية عند "الزركشي" ومن السور المختلف فيها عند "السيوطي" لكنه يرجح أن تكون مكية. ولأن التكاثر في كل شيء صفة تميز النفس البشرية في التعلق بها، حب التكاثر في المال والبنون وكل متع الحياة، الإنسان الذي يفتقد إلى القناعة فيما يحيط به من متع الحياة ناسياً أن الموت حق كما كانت حياته حق. وللسورة بنتين صغيرتين هما:

أ - الموت حق: (الآية 1-2).

ب - الجزء من جنس العمل: (الآية 3 - 8).

### 37 - سورة العصر:

تحتوي السورة على ثلاث آيات، سورة مكية دون خلاف، عودة إلى القسم بالزمن، في كل خلق الله آية، وآية الزمن من الآيات المعجزات، فيه مسار للحياة والموت والبعث والنشور، نجيا فيه ولا نتحكم فيه، يسير خطانا نحو الأمام دوما، لا يعرف العودة إلى الوراء أبدا. ورغم أن السورة رسالة في الحياة إلا أنها تحتوي على بنيتين صغيرتين هما:

أ - الإنسان إن لم يهتد بالإيمان فهو خاسر: (الآية 1 - 2).

ب - قيمة الإيمان والعمل الصالح في نجاة الإنسان وسعادته: (الآية 03).

### 38 . سورة الهمزة:

تحتوي على تسع آيات. سورة مكية. رغم أن السورة تعالج موضوعا يدخل في التربية وتحذير السلوك، موضوع الهمز واللمز والجمع والمنع، وهي صفات خبيثة يبغضها الله والرسول وعباد الله الصالحين، والسورة رغم قصرها إلا أننا استخلصنا منها بنيتين صغيرتين هما:

أ - خصال في البشر منبوذة، وجزاء صاحبها النار: (الآية 1 - 3).

ب - وصف الحطمة (الآية 4 - 9).

### 39 - سورة الفيل:

تقوم على خمس آيات، سورة مكية، تدخل في نمط القص، تسرد رواية "أبرهة الحبشي" الذي حاول تهديم الكعبة الشريفة. ولأن السورة قصيرة وتحتوي على قصة واحدة فإن للسورة بنية واحدة صغرى هي:

قصة أصحاب الفيل: (الآية 1-5).

#### 40 - سورة قريش:

تحتوي على أربع آيات، سورة مكية، وهي مثل سابقتها في الهندسة الشكلية، فهي من السور القصار جدا التي تقوم على بنية واحدة مفردة وتعالج موضوعا مفردا، ولو حق استخدام مصطلحات علم النص نقول بأنها تجسد الخطاب الناقص الذي لا يكتمل إلا بتضافر أوجه خطابية أخرى، وفي حالة القرآن المكي نقول بوجود بقية الخطاب القرآني، كذلك بالخطاب التابع الذي هو السنة النبوية الشريفة. أما بنية السورة فهي:

أ - التذكير بنعم الله تعالى على قريش: (الآية 1 - 4).

#### 41 - سورة الماعون:

تحتوي على سبع آيات. سورة مكية تسرد الصفات البذيئة للكافر الذي لا يراعي حرمة اليتيم أو المحتاج، وفوق هذا يتعالى على الحق منكر البعث والحساب، كما تسرد صفات المنافقين الذين يبدون عكس ما يخفون. ويقصدون الناس بأعمالهم. ورغم قصر السورة إلا أنها تحتوي على بنيتين مهمتين هما:

أ - الكافر المنكر للجزاء الأخروي وعاقبته: (الآية 1 - 3).

ب - المنافق المرائي بعمله وعقابه: (الآية 4 - 7).

#### 42 - سورة الكوثر:

سورة في ثلاث آيات، اقصر سورة في القرآن. يقول "الزركشي" أنها مكية، ويرجح "السيوطي" أن تكون مدنية، ويرى "ابن كثير" أنها مدنية. ومن البديهي أن تحوي السورة على بنية واحدة هي بنية السورة الكبرى والصغرى في الآن ذاته وهي:

- المنح المعطاة للنبي - صلى الله عليه وسلم :: (الآية 1 - 3).

#### 43 - سورة الكافرون:

سورة في ست آيات، من القرآن المكي الذي يخاطب بصريح العبارة الكفار بأن الإسلام يؤخذ كله أو يترك كله، وأن الله لا يقبل له شريكا أبدا، فإما الإقرار بالإيمان أو إتباع طريق الضلالة. أما بنية السورة فهي:

- براءة من الشرك والكفر وأعمال المشركين: (الآية 1 - 6).

#### 44 - سورة النصر (التوديع):

تحتوي على ثلاث آيات، سورة مدنية دون خلاف، تقر بتمام رسالة الإسلام، وانتصار الحق بفتح مكة المكرمة، والنصر المبين الذي طالما انتظره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحابته الكرام. واسمها دليل على موضوعها الذي يقترن بانتصار الإسلام وانهزام الشرك والمشركين، لذا من المؤكد أن تكون بنية السورة كالآتي:

- فتح مكة: (الآية 1 - 3)

#### 45 - سورة المسد (اللهب):

وفيهما خمس آيات، سورة مكية، لهجة غضب تتوعد "أبا لهب" وزوجته بالنار جزاء المنكرات التي أتوها في حق الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولها بنية واحدة بالنظر إلى الموضوع المطروق وهي:

- جزاء أبي لهب وامراته: (1 - 5).

#### 46 - سورة الإخلاص:

تحتوي على أربع آيات. مكية باتفاق العلماء، وان لم يكن هناك اتفاق فحسبها الموضوع المطروق في إقرار وحدانية الله والذي يظهر انتماءها المكي:

- سورة التوحيد والتنزيه لله عز وجل (الآية 1 - 4).

#### 47- سورة الفلق:

تحتوي خمس آيات. هذه السورة وسورة الناس مكية في قول "الحسن" و"عطاء" و"عكرمة" و"جابر" وهو رأي الأكثرين. ومدنية في رواية عن "ابن عباس" و"قتادة" وجماعة. وقيل وهو الصحيح. لذا فقد صنفهما "السيوطي" في حائنة السور المختلف فيها، وإنه بدوره يرجح أن تكون مدنية. وبنيتها هي:

أ - الاستعاذة من شر المخلوقات (الآية 1 - 5).

#### 48 - سورة الناس:

وهي في ست آيات، ولا تختلف عن سورة الفلق غير أن بنيتها هي:

أ - الاستعاذة من شر الشياطين: (1 - 6).

هذه هي البنيات الصغرى لجزأي "تبارك" و"عم"، حددناهما بدقة، وكان أهم إشكال متعلق في هذه القضية بالذات السور التي تحتوي على بنية واحدة هل تصنف في إطار البنية الكبرى للسورة أم البنية الصغرى. ولكن الخطاب القرآني لا يُفصل بين وحداته وسوره حين يتعلق الأمر بالأداء الوظيفي وبناء المقاصد، فهو كالسورة الواحدة يتمّ بعضه بعضا، ويشرح بعضه بعضا، لذلك يمكن اعتبار البنية الواحدة التي تدخل في بناء معنى السورة بنية كبرى بالنظر إلى تلك السورة، وتعتبر بنية صغرى بالنظر إلى مجموعة من السور، التي تشكل حزبا أو جزءا أو مجموعة أحزاب ومجموعة أجزاء، أو بالنظر إلى النص القرآني ككله.

## 2 - 2 - تحديد البنيات الكبرى:

إن الأبنية الكبرى للنص تختص بالصلات الدلالية السائدة بين عبارات النص، وتنشأ هذه العلاقة بين الوظيفة التداولية والوظيفة المضمونية التي تؤديها مكونات النص<sup>1</sup>. ويعرّف "فان دايك" البنية الكبرى بأنها "أبنية نصية خاصة ذات طبيعة عامة، أي النظر إلى أوجه الترابط التي تركز على النص بوصفه كلاً"<sup>2</sup>. أي أن البنية الكبرى هي استخلاص مضمون النص من خلال الوحدات النصية. ويستوجب هذا الإحاطة بالمفهوم الكامن وراء العبارات المموهة، لذا فيحتاج فهم النص واستشفاف معناه والغوص في عمق دلالاته إلى تحليل وربط واستدلال واستنتاج.

والبنية الكبرى في نص ما قد لا تكون كذلك في نص آخر، ونستخلص البنية الكبرى بأن نقدم قيمة أو موضوعة النص<sup>3</sup>، فموضوع الخطاب حسب "فان دايك" لا يتحدد بالنسبة للقضايا المفردة، بل بالنسبة لتتابعات كاملة، حيث يتحدد الموضوع من خلال البنية الكبرى Macrostructure. في مقابل أبنية الجمل أو الأبنية الصغرى Microstructure وتفسّر البنية السطحية للخطاب كمجموعة من القضايا التي تنتظم بواسطة أنواع من العلاقات الدلالية، يعبر عن بعضها البعض على نحو صريح، وبعضها يستنتج أثناء عملية التفسير من خلال المعرفة العامة أو المعرفة المسبقة<sup>4</sup>.

يتم تحديد البنية الكبرى من خلال طريقة التلخيص، و"التلخيص عبارة عن بنية اختلاف كبرى في النص، ويقصد بالتلخيص فن الانتقال من فكرة إلى أخرى مختلفة مع المحافظة على رابط بين الفكرتين يسمح للسياق بالاستمرار بردم لكل فجوة أو مسافة تظهر في النص من خلال مبدأ الانحلال التعاقبي الذي يقوم على وجود فراغ وملئه"<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> فايز الكومي: تحليل البنية النصية من منظور علم لغة النص - دراسة في العلاقة بين المفهوم والدلالة في الدرس اللغوي الحديث، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، عدد 25، أيلول 2011، ص 215.

<sup>2</sup> فان دايك: علم النص، ص.ص 74، 75.

<sup>3</sup> نوال لخلف: الانسجام في القرآن الكريم، ص 38.

<sup>4</sup> عزة شبل محمد: علم لغة النص، 195.

<sup>5</sup> عمر محمد أبو خرمة: نحو النص - نقد النظرية وبناء أخرى، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن 2004، ص 72.

يمكن النظر إلى البنيات الكبرى في النص المعين اعتمادا على أربع رؤى وهي:

أ - تحديد بنية كبرى لكل سورة.

ب - تحديد بنية كبرى لكل حزب.

ج - تحديد بنية كبرى لكل جزء.

د - تحديد البنية الكلية الشاملة.

أ - تحديد البنية الكبرى لكل سورة:

يرى "فان دايك" أن القضايا الكبرى يعبر عنها أحيانا تعبيراً مباشراً، والقضايا الكبرى هي الجمل الواقعة موضوعاً في بداية المقطع أو آخره، ووظيفة هذه الجمل التحكم في البنية الكبرى للمقطع، فلا تعطي الفرصة للقارئ كي يتصرف في تحديد البنية الكبرى حسب رغبته. كما أن القضايا الكبرى تسهل عملية الفهم<sup>1</sup>، ولقد عومل الموضوع في بعض الأعمال التحريية كما يقول "بروان ويول" على أنه نظير للعنوان، إذ لا بد أن توجد لأي مقطع من مقاطع الخطاب قضية واحدة تأتي في شكل تعبير أو جملة، تمثل موضوع الخطاب بالنسبة لكامل المقطع<sup>2</sup>.

ولأن القرآن الكريم يتميز بنمط بناء مميز فإضافة إلى القيمة الدلالية التي تفصح عنها الآيات الأولى من كل سورة هناك أسماء السور التي تعبر بحق عن مضمون خطاب السورة. نعتبر في هذه الحالة أن أسماء السور هي البنيات الكبرى لكل سورة.

يجوز أن نتحدث عن مستويات متعددة للبنية الكبرى في كل خطاب، هذه البنيات التي تستنتج بواسطة فئة فرعية من موالية<sup>3</sup>، "وفي مستوى تال يمكن أن تتوقف القضايا ذات البنيات الكبرى على الاندراج

<sup>1</sup> فان دايك: النص والسياق، ص208.

<sup>2</sup> براون ويول: تحليل الخطاب، ص87.

<sup>3</sup> فان دايك: النص والسياق، ص192.

في إطار أوسع أي تستنتج أعم بنية كبرى استنتاجاً ملتحماً<sup>1</sup>. فالبنية الكبرى لسورة النبأ هي "النبأ". والبنية الكبرى لسورة العلق هي "العلق"، لأن الموضوع الأساسي يتحدث عن كون الإنسان خلق من علق، وهكذا إلى غاية آخر السورة، ويكون عدد البنيات هنا بعدد سور الجزأين، أي 47 بنية وهو عدد كبير مع ما هو مقرر لاختزال واستخلاص المعنى المحدد الأكثر رغبة في إيصاله.

### ب - تحديد بنية كبرى لكل حزب:

وأطلقنا عليها اسم البنية الحزبية. يقول "فان دايك"<sup>2</sup>: "نستطيع أن نقول بأن هذا الخطاب أو جزءاً منه دال على هذا المعنى، أو غرضه هذا الشيء، وذلك أننا نستطيع أن ننتج ضرباً أخرى من الخطاب، أو جزءاً منها بحيث تكون معبرة عن تلك الدلالة القصدية ذات الغرض المتجه إلى الشيء، مثلاً العبارات الموجزة كالعناوين، والاستنتاجات الملخصة، أو الآراء والأحكام المركزة في أي صيغة كان كل ذلك"<sup>3</sup>. فما "تتضمنه البنيات الكبرى من معلومات، وإن كانت مؤسسة من الوجهة النظرية على علاقة اللزوم ويحصل لها من أجل ذلك طبيعة (استنتاجية) فقد يجوز أن تكون لها في الحقيقة طبيعة استقرائية في غالب الأحوال، فنحن لا نحتاج إلى جميع العناصر الجوهرية لمفهوم أو إطار معين حتى نستنتج المفهوم العام الكلي"<sup>3</sup>، فقد تكون بعض المعطيات تابعة للمعطيات الأكثر جدوى منها، وقد تكون معظمها تكراراً لبعضها الآخر، وإن كان للمعطيات قيمتها من حيث التأدية، ومن حيث تواصل سيرورة معنى الخطاب إلا أن في استخلاص البنيات لا نحتاج إلى كل العناصر بل نركز على الأهم الذي يحوي الفكرة الأساسية، مختصرة ومختزلة للمعنى العميق للنص المتعامل معه.

ولأن عدد الأحزاب المستقراً أربع، فإنه من البديهي أن تتحدد البنيات الكبرى لهذه الأحزاب على

حسب عددها فكانت أربع بنيات، وكان استخلاصها وفق نمطين:

<sup>1</sup> فان دايك : النص والسياق، ص192.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص184.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص204.



- بالنظر إلى المعنى: وتتحدد البنيات الكبرى هنا بأن نعطي الأولوية للمعلومات الكاملة (الأساسية - التامة) ونقصي الثانوي منها، فهي بنية استنباطية تقوم على الاختزال والاختصار والاستنتاج، لذا ينبغي أن يمتاز المحلل بهذه المهارات الثلاث، ويعي طريقة تصنيف المعلومات بين الممكن إقصاءه والمستحيل إبعاده، وعليه أن يستحضر مداركه ومعارفه التي تساعد على استنباط معاني البنيات العميقة. وكما يقول "فان دايك" في "البنية الكبرى هي الكم النصي، أي كل النصوص التي لها المعنى الكلي ذاته"<sup>1</sup>.

- بالنظر إلى الشكل (المبنى):

ونقصد بالشكل هندسة بناء الملفوظ، حيث نركز على أهمية عناوين السور فنصنع منها جسرا للعبور إلى البنية الكبرى للحزب الواحد، مع التأكيد أن القول بالشكل يستتبع بالضرورة القول بالمعنى، إذ لا يمكن الحديث عن بنية معزل عن المعنى، فالبنية الكبرى في أهم تحديدها نظر في المضمون. والمضمون يعني بشكل من الأشكال المعنى. فكما يقول "فان دايك": "إن أحد المصطلحات التي يجب أن تجليها الأبنية الكبرى مصطلح موضوع نص ما، أو موضوع خطاب، أو موضوع حوار، عم كان الحديث، والقواعد الكبرى إنما هي إعادة بناء شكلي (صوري) لهذا الاستنباط للموضوع"<sup>2</sup>.

إن أطول بنية كبرى مع هذا التحديد كانت مع الحزب الأخير "الأعلى" لاحتوائه على أكبر عدد من

سور القرآن رغم قصرها، وكانت أصغر بنية كبرى من حيث الحجم هي بنية حزب "تبارك".

وقد اعتمدنا على جدول يوضح لنا أشكال هذا التقسيم:

<sup>1</sup> فان دايك: علم النص، ص86.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص.ص 79، 80.

رقم الحزب واسم السورة	البنية الكبرى من خلال المعنى	البنية الكبرى من خلال المبنى
الحزب 57 سوره: الملك _ القلم _ الحاقة _ المعارج _ نوح.	قدرة الله على الخلق والبعث والنشور، وتعذيب الجاحدين مع طلب الاعتاز بالأمم السابقة. فالوعد الحسن للمؤمن، والزجر والوعيد للكافر، وفي قصص الأنبياء والصالحين عبرة لأولي الألباب.	الملك لله. خلق القلم ليسطر ما تعملون، وجعل الحاقة يوم حساب ووعد ووعيد، يومها يعرج الروح الأمين والملائكة، ولكم في أبيكم نوح عبرة فاتعظوا يا أولي الألباب.
الحزب 58 سوره: الجن _ المزمّل _ المدثر _ القيامة _ الإنسان _ المرسلات.	القرآن للعالمين من الخلق انسهم وجنهم. والبعث حقيقة كبرى، لا مرأى فيها، ولا يعلم موعدها إلا الله، يوم ينعم التقي بنعيم الجنة ويعذب الكافر عذابا شديدا.	حتى الجن آمنوا بالله، فيا أيها المزمّل، أيها المدثر قم وانذر أمتك. إن القيامة حق والبعث والنشور حق وما أرسلناك لغير هدي الإنسان وصلاحه فبلغ الرسالة.
الحزب 59 سوره النبأ _ النازعات _ عبس _ التكوير _ الانفطار _ المطففين _ الانشقاق _ البروج _ الطارق	البعث حقيقة وأهوال يوم القيامة شديدة لا ينجو منها إلا الأبرار. القرآن حق والملائكة حق. الله وحده الرزاق والناس سواسية. خذوا العبرة من قصص الأمم البائدة. قصة موسى وأصحاب الأحدود.	الله ينبيء خلقه عن عظيم خلقه، يوم النازعات، تكور الشمس ويمحى ضوءها، تنفطر السماء وتنشق وتتصدع مؤذنة بخراب العالم. فقسم بالبروج وبالطارق أن الوعد حق والبعث حق والجنة حق والنار حق.. فيا أيها المطففون لا تخافوا الفقر وتطلبوا الغنى. إن الله هو الرزاق. ويا أيها النبي لم العبوس في وجه أعمى. الناس سواسية.

	الحزب 60	
الله هو الأعلى من نعمه على نبيه	إن الله على كل شيء قدير. جعل	سوره: الأعلى - الغاشية - الفجر -
الكوثر. وعلى عباده القرآن الذي أنزل	الناس فريقين: فريق للجنة وفريق للسعير	البلد - الشمس - الليل - الضحى -
ليلة القدر، كلف الله قريشا أولا	وما أدراك ما أمارات السعير وهولها.	الشرح - العلق - القدر - البينة -
والبشرية عامة بعد البينة. شرح صدور	هي نهاية الكافر الجاحد العاصي كما	الزلزلة - العاديات - القارعة -
المؤمنين وأتاهم بالنصر فلا يلهي	كانت نهاية عاد وثمود وفرعون. وضع	التكاثر - العصر - الهمة - الفيل -
الإنسان حب التكاثر. اتعظوا بقصة	الله ميزانا للأخلاق الفضيلة، النصر	قريش - الماعون - الكوثر - الكافرون -
أهل الفيل وأهل المسد. التزموا الفضائل	للخير فواجب على الإنسان حسن	النصر - المسد - الإخلاص - الفلق
لا تمنعوا الماعون. ولا تكونوا من	التوكل على الله واللجوء إليه. هو مخير	الناس
الهمازين اللمازين. قسم بالفجر والبلد	ومبتلى لا تكليف بلا بينة، ومن نعم	
الحرام والشمس والليل والضحى والعصر	الله التي لا تحصى أن جعل للناس	
والخيول العاديات أن القارعة حق. أن	رسولا منهم جاءهم برسالة للحياة	
الزلزلة حق. يوم تغشى الناس لهولها.	وعلمهم معنى الإخلاص والتوحيد.	
أخلصوا العبادة لله الذي خلقكم من		
علق. هو رب الفلق ورب الناس		
فاعتصموا به وحده ولا تكونوا من		
الكافرين.		

يجوز أن نتحدث عن مستويات متعددة للبنية الكبرى في كل خطاب كما يقول - "فان دايك" -  
فبالنظر إلى تعريف الموضوع، فكل قضية مستنتجة بواسطة فئة فرعية من متواليه هي بنية كبرى لتلك المتواليه  
الداخلة تحت اللزوم، وفي مستوى تال يمكن أيضا أن تتوقف القضايا ذات البنيات الكبرى على الاندراج في  
إطار أوسع أي تستنتج أعم بنية كبرى استنتاجا ملتحما<sup>1</sup>.

### ج - تحديد البنية الكبرى لكل جزء:

يمكن اعتبار الجهد المبذول في تحديد بنية كل جزء يدخل في الاستنتاجات الملخصة، حيث يتم  
اعتماد مدارك واسعة من خلال الخلفية المعرفية والربط بين مجموع البنيات الصغرى المشكلة لكل حزب ثم  
القيام بعملية جمع واختزال بالاحتفاظ بأهم نواة رابطة بين أجزاء الخطاب.

إننا لا نحتاج لأن نحتفظ بجميع المعلومات التي تشكلها القضايا، وإن كنا نحتاج فنحن لا نستطيع، لأن  
مدارك الذاكرة وقوتها محدودة، ومن الوظائف الأساسية والهامة للبنيات الكبرى ترتيب أعقد المعلومات الدلالية  
عند كل استعمال لغوي<sup>2</sup>.

أطلقنا على البنية الكبرى للجزء اسم البنية الجزئية وهما بنيتان فقط بعدد الأجزاء المتناولة:

أ - بنية جزء "تبارك": يتفرد الله بالإلهية، خلق الكون بنواميسه، البعث حق كما أن الحياة والموت حق، ثم  
مآل الإنسان يوم القيامة الجنة أو النار.

ب - بنية جزء عم: يتفرد الله بالإلهية فواجب إخلاص العبادة له وحده. جعل الناس فريقين: مؤمن للجنان  
وكافر للنيران.

نلاحظ أن البنيتين تشتركان في إثبات ألوهية الله، وحول هذا المحور كان مدار القرآن المكّي عموما.

<sup>1</sup> فان دايك: النص والسياق، ص 192.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص. ص 198، 199.

## 2-3 - استخلاص البنية الكلية:

ويسمى "فان دايك" البنية الكبرى الشاملة والتي تعني "تفسير المعنى البديهي الحدسي للفظ الموضوع"<sup>1</sup>، أي استخلاص النواة الصافية للنص المعين. وقد وضع "فان دايك" مفهوم القضية الكبرى في إطار بنوي شكلائي صرف، معتمدا على التطابق الرمزي. هذا الإطار من وجهة نظره ينتج قضية معقدة ناجمة عن اجتماع مجموعة من القضايا التي تم التعبير عنها من خلال سلسلة الجمل في النص. لكن إنتاج مثل هذه القضية يجب أن يوضع كذلك في إطار سياقي مواز يشمل معرفة المتلقي بالمرسل والعكس<sup>2</sup>.

هناك وعي متقدم بأن القرآن رغم تفاوت أوقات نزوله فإنه يشكّل نصا واحدا، وهذا ما يعبر عنه عادة بأنه "كالكلمة الواحدة"<sup>3</sup>، فلم يغير في نمط بنائه، أو شكله أو نظمه، أو عجيب تأثيره طول مدار الزمن الذي استغرق فيه النزول، ولم يغير من عجيب روعته تغير مكان تلقيه: حلا وترحالا. فكان المعنى الكلي للنص والمعلومات التي يتضمنها أكبر من مجرد مجموع المعاني الجزئية للجمل التي تكونه، إنها تمثيل تجريدي للدلالة الشاملة للنص<sup>4</sup>، هذه الدلالة التي يعبر عنها جزء المفصل، ثم الدلالة العامة للقرآن كله الملخصة في سورة الفاتحة.

يرى "بنفنست" أن ما يمكن أن يقال هو الذي يحدد وينظم ما يمكن التفكير فيه<sup>5</sup>، فاللغة أداة تعبير الفكر، ويبدأ التفكير من نواة هي أساس أي موضوع، ثم بعد ذلك تنتشر في سلسلة تعابير شفوية أو كتابية. وعليه فالبنية الكلية (البنية الكبرى - الشاملة) تختزل موضوع الخطاب المستنتج من المتواليات ككل، أي تختزل موضوع الأحزاب الأربعة في فكرة أساسية يدور حولها صلب الخطاب القرآني في هذين الجزأين.

<sup>1</sup> فان دايك: النص والسياق، ص185.

<sup>2</sup> حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، ص.ص 154، 155.

<sup>3</sup> أحمد خطابي: لسانيات النص، ص167.

<sup>4</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص129.

<sup>5</sup> E.Benveniste, Problème de linguistique générale, P29



## 2 - 4 - البنية الفوقية وهيكلية النص:

يشرح "فان دايك" مفهوم الأبنية الفوقية *Supère structure* - ويطلق عليها أيضا مصطلح الأبنية العليا- بقوله: "ومن الأيسر أن تتمثل الأبنية العليا من خلال الحكيم، إذ يمكن أن تدور حكاية ما حول موضوع معين، الاقتحام مثلا، بيد أنه إلى جانب الحقيقة القائلة بأن للنص ذلك الموضوع العام، فإن له بوجه عام سمة فارقة في الوقت نفسه وهو أنه حكاية، وبعبارة أخرى فيبعد سماعنا وقراءتنا حكاية ما، نعرف أن الأمر يدور حول حكاية وليس حول إعلان أو محاضرة"<sup>1</sup>. فالأبنية العليا هي الجنس الذي ينتمي إليه نص معين، أي نمط من شكل النص. والأبنية العليا تختلف بناء على وظائفها الاتصالية المتباينة وبناء على الوظائف الاجتماعية، ولذلك "فإن بنية الحكيم تُعد بنية عليا، وهي مستقلة عن مضمون الحكيم أي: البنية الكبرى"<sup>2</sup>. فالنص يحتوي على دلالات غير قابلة للتجزئة: القصة، القصيدة، المسرحية<sup>3</sup>.

إن البنيات الكبرى والبنية الكلية - الشاملة تتعامل مع المحتوى لكن الأبنية العليا تتعامل مع الشكل، فالقضايا الكبرى دلالية، أما الأبنية العليا فترتكز على قواعد عرفية، والسمة المشتركة بين البنيتين أنهما تتحددان بالنظر إلى النص بوصفه كلا. أي أن الأبنية العليا لا تحدّد بالنظر إلى جمل مستقلة أو تتابعات نص ما، بل بالنسبة إلى النص بوصفه كلا أو بالنسبة لقطع محددة من النص<sup>4</sup>. كما أن "القضية الكبرى هي الأساس الموضوعي لأية خطة وهي تعد بمثابة البنية التحتية للبنية العليا، ومن ثم فإن الانتقال من إطار أو مشروع إلى آخر داخل الخطة يجب أن يتم وفق القضية الكبرى"<sup>5</sup>، والقضية الكبرى هي أساس خلق النص، وال محور الذي قام عليه بناء الخطاب. كما أن "الأطر الموسّعة تصف القضايا الكبرى. وهذا التوازي القائم بين القضايا الكبرى والأطر أمر حتمي، فكل ما يحدث على مستوى القضية الكبرى (البنية التحتية) ينعكس على مستوى

<sup>1</sup> فان دايك : علم النص، ص208.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص209.

<sup>3</sup> صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، ط1، دار أطلس، القاهرة، 2011، ص131.

<sup>4</sup> فان دايك : علم النص، ص210.

<sup>5</sup> حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، ص173.

البنية العليا، فاجتماع قضيتين كبيرتين غير متتاليتين في علاقة دلالية لتكوّن مستوى أعلى للقضية يتوازي إجرائيا مع ترابط إطارين منفصلين لتكوّن إطارا موسّعا<sup>1</sup>.

وبالقراءة الأولى للنص القرآني يظهر أنه نص حجاجي، فكان في كل ما يبعث به من رسائل، وما يدعو إليه من رؤى، وما يقوم عليه من ركائز إنما يقوم على الحجة، بل إنه يقدم نفسه لأن يكون صورة حجاجية تامة. يقول "عبد الله صولة": "القرآن الكريم كتاب إصلاح يهدف إلى تغيير وضع قائم، إذن فهو خطاب حجاجي ولا مرأ<sup>2</sup>". وتغيير وضع قائم يقتضي أن يكون هذا الوضع القائم معارضا لما ينبغي أن يكون عليه الوضع في الأصل، ولن يتم هذا التغيير إن لم يكن هناك خطاب إقناعي، وهذا بالضبط ما حاول الخطاب القرآني أن يجسّده في واقع وجوده، فقد قدّم نفسه معرّفا بمطلبه وبسبب تنزله، وسر بعث رسوله بأدوات إقناعية كانت في غالبها صريحة. أو كما يرى "أوسكمبر" و"ديكرو" في كتابهما "الحجاج في اللغة" أن الحجاج إنما هو إنجاز لعمليتين: عمل التصريح بالحجة من ناحية وعمل الاستنتاج من ناحية أخرى. سواء كانت النتيجة مصرحا بها أو مفهومة من (ق1)<sup>3</sup>.

وهذا بالضبط الأساس الذي قام عليه الخطاب القرآني حيث كانت حججه في عمومها صريحة، سواء من حيث اعتماد الأداة اللغوية أو اعتمادا على ما هو جاهز من الحجج كالاستشهاد بقصص الأنبياء والمرسلين والأقوام السابقين، ولا بد له من هذا الأمر مادام يقدم نفسه. كما يقول "عبد الله صولة" على أنه تغيير لوضع، أو حل لمعضلة ونبذ للعنف الذي هو عكس الحجاج، واستجابة لسؤال أمة، فهو يرمي إلى تغيير وضع ذهني يترتب عليه بالضرورة تغيير وضع مادي<sup>4</sup>. هذا بغض النظر عن الرؤى التي تقر أن كلامنا كله حجاج، كما هو الشأن مع "ديكرو وأسكمبر" لأننا حين نتحدث إنما نروم في العادة التأثير في هذا السامع

<sup>1</sup> حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، ص173.

<sup>2</sup> عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط2، دار الفرابي، بيروت، لبنان، 2007، ص43.

<sup>3</sup> J.C Anscombe et O.Ducrot : L'argumentation dans la langue, édition Mardaga, Liège- Bruxelles, 2ème édition, 1988 , p8.

<sup>4</sup> عبد الله صولة: الحجاج في القرآن، ص43.



أو مواساته، أو إقناعه أو جعله يأتي بعمل معين، أو إزعاجه أو إحراجه<sup>1</sup>. وهي الرؤية نفسها التي يقول بها "طه عبد الرحمن" الذي يقول بأن المحاور يعتمد في بناء نصه الصور الاستدلالية مجتمعة إلى مضامينها أو وثق اجتماع كأن يطوي الكثير من المقدمات والنتائج، ويفهم من قوله أمورا غير تلك التي نطق بها، وكأن يذكر دليلا صحيحا على قوله من غير أن يقصد التلليل به، وأن يسوق الدليل على قضية بديهية أو مشهورة هي في غنى عن دليل للتسليم بها، كل ذلك يأخذ بمقتضيات الحال من معارف مشتركة ومعتقدات موجهة ومطالب إخبارية وأغراض عملية، وكل سبيل استدلاي فهو سبيل حجاجي<sup>2</sup>. إننا لا نتحدث في فراغ، وكل أقوالنا الموجهة إلى الغير هي حجاج، حتى وإن كان في أبسط مستوياته، فعلاقتنا مع الآخرين تتطلب أن نقدم أنفسنا من خلال حجة تقتضي تفعيل مسار التواصل داخل المحيط الذي ننتمي إليه.

إن القرآن الكريم يفرض نفسه لأن يقوم على قاعدة الحجاج بالنظر إلى الواقع الذي أنزل فيه. فبعض القرآن نزل مرتبنا بسبب، كحدوث واقعة معينة فينزل القرآن الكريم بشأنها، أو أن يُسأل الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن قضية من القضايا فينزل القرآن الكريم مبينا الحكم فيها، وفي هذا حكمة ربانية لأن يراعي القرآن المتلقي ونفسيته، ليقنعه بالحجة، ويدعنه بالبرهان. إنه "كتاب جدلي" (حجاجي) يتفاعل مع ما قبله من الكتب الدينية، أو العلمية والوقائع التاريخية، وما ينتشر من أفكار في بيئته عن رموز التاريخ القريب المباشر وأحداثه التي تقع في تماس مع الفترة الإسلامية أو تلك التي تؤثر في تاريخ البشرية من أفكار رائجة<sup>3</sup>. يقول

J.C Anscombre et O.Ducrot : L'argumentation dans la languet, p 6

1

<sup>2</sup> طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء . بيروت 2000، ص46.  
\* في القديم غالبا ما كان يستخدم مصطلح الحجاج ومصطلح الجدل بالمفهوم نفسه، لكن حديثا تغير نمط الاستخدام، وما أعتقده أن الحجاج ليس نفسه الجدال، فالحجاج هو الإفحام بالحجة، حيث لن يجد المتلقي ردا على الحجة، أما الجدال فهو الأخذ والرد في الكلام. ولنا في الخطاب القرآني الشاهد الأكبر على ذلك. فقله تعالى: "فحاجه إبراهيم في ربه" كانت النتيجة أن أذعن الكافر وانخرس، أما قوله تعالى: "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها" فقد كانت تذهب وتجيء رافضة بقرار النبي . صلى الله عليه وسلم . حولها، إذ كان يقول كلاما مفاده أن زوجها ظاهرها وعليه فهي محرمة عليه، وهي تقول كلاما مفاده طلب العتق من هذا التحريم وفي الأخير تم لها ما كان بأمر من الله. ولم لم يتدخل الوحي الرباني لبقلي كل متمسكا برأيه وخطابه. فهذا هو الجدل، ألا يقتنع المتحاورون بخطاب بعضهما البعض، عكس الحجاج الذي يقدم نفسه منذ البدء أنه الأصدق والأصح .

<sup>3</sup> فالح شبيب العجمي: النص والخطاب والحياة، ط1، جداول للنشر، بيروت، لبنان 2013، ص15.

"بيرلمان وتيتيكا" إن موضوع نظرية الحجاج هو دراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرف عليها من أطروحات أو أن يزيد في درجة ذلك التسليم<sup>1</sup>.

أنزل القرآن الكريم في زمن محدد، وفي إطار جغرافي تحيط به معطيات خاصة، فمن البديهي أن يراعي الواقع الذي نزل فيه، ومن البديهي أن يكون خطابه تفاعل مع الكتب السماوية التي كانت قبله، مادامت كلها كتب سماوية، تدعو في الأصل إلى إقرار العبودية للمعبود الواحد، ومن البديهي أن يورد ذكر ما كان قبله من وقائع تاريخية يستخدمها كأداة حجائية قوية ليثبت صدق الوحي، كما هو الشأن مثلا مع قصة أصحاب الكهف، وقصة موسى والخضر - عليهما السلام - وقصة ذي القرنين التي ورد ذكرها في سورة الكهف.

فاستحضار الشاهد التاريخي من واقع الأنبياء والمصطفين والأخبار كان من أجل إثبات صدق الوحي، بالإضافة إلى الأداة اللغوية التي تقوم على قاعدة الانزياح (العدول)، والانزياح حجاج قوي كما يقول "عبد الله صولة": "العدول في الكلام القرآني ليس لغاية أن يكون هذا الكلام جميلا، وإنما لغاية أن يكون كلاما حجاجيا مقنعا بوجه من الوجوه"<sup>2</sup>، ويعتبر "طه عبد الرحمن" الانزياح أداة حجائية قوية.

كما لا يخفى أن معجزة القرآن الكريم معجزة بيانية، وفي هذا تأكيد على حجائية القرآن الكريم، فيكفي أنه نزل بلغة بيانية تتعالى عن اللغة العربية المستخدمة وقت النزول والتي بلغت ذروتها من البلاغة والبيان، ليكون بهذا المستوى وهذا الأداء اللغوي حجة على فطاحنة اللغة والأدب، فالمعجزة البيانية تقتضي أن يكون بيانه حجاجا على صدق الرسالة والرسول - عليه الصلاة والسلام.

وفي "اللسان والميزان" يُعرّف "طه عبد الرحمن" الحجاج بأنه "كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"<sup>3</sup>، فالخطاب الحجاجي حسب قائم على قصد الإفهام دون إلزام

<sup>1</sup> Perlman et Tyteca : traite de L argumentation, La nouvelle rhétorique, éditions de l'université de Bruxelles, 5ème édition, 1992, p 5.

<sup>2</sup> عبد الله صولة: الحجاج في القرآن، ص 604.

<sup>3</sup> طه عبد الرحمن : اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 2006، ص 226.

للمخاطب بالدعوى المطروحة<sup>1</sup>. لكن تبقى قاعدة "طه عبد الرحمن" مقتصرة على الخطابات البشرية دون أن تتجاوزها إلى النص القرآني. إذ لا يحق للغير الاعتراض على دعاوي القرآن الكريم، لأن الاعتراض على أي من آيات الله يعتبر كفراً.

ورد في القرآن الكريم نمط آخر من أنماط بناء الخطاب وهو القصص، والمشهور أن ثلث القرآن الكريم قصص، لكن لا يمكن أن نعتبر القصة بنية عليا، لأنها تقنية حجاجية في القرآن الكريم، اعتمدها المولى - عز وجل - قصد التأثير في المتلقي الواقعي الذي هو الرسول - صلى عليه وسلم - تثبيتاً له، وتحفيزاً. ثم إنه أداة حجاجية تثبت صدق الدعوة، تعمل على إقناع المتلقي الذي هو الجمهور الكوني بأن الرسول الكريم حق كما أن السابقين من الأنبياء حق، وأن الذين اتبعوا رسلهم أجهام الله من عقابه، في حين خسر المبطلون والجاحدون، وكان هلاكهم - كما يسرد القصص القرآني - بأشكال مختلفة من العقاب، وأصناف عديدة من العذاب، ذاقوا ويلاته في الحياة الدنيا، ويتبعه هلاك أشد وأنكى يوم القيامة.

يقوم القرآن الكريم إذن على الحجاج الذي ظهر من خلال زاويتين واضحتين هما الانزياح (العدول)، والقصص. فأغلب القرآن الكريم يقوم على قاعدة الانزياح، وهو سر الإعجاز البياني الموجود في القرآن الكريم، أما القصص فيعمل على استحضار الماضي، وله دور في التهذيب بالبرهان، ويدفع إلى تسلية قلب النبي الكريم - عليه الصلاة والسلام - وصحابته الكرام. فالانزياح والقصص أداتان حجاجيتان قويتان ينتظم القرآن الكريم كله في الدائرة النصية التي تدور في فلكه والتي تشكل بنيته الفوقية.

<sup>1</sup> طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 226.

## الفصل الثاني: انسجام واتساق النص القرآني وتجلي النصية

### تمهيد

#### 1 - الانسجام وقواعد ترابط البنى الكبرى -

1.1 - الانسجام كمحيط نصي

1.2 - الانسجام داخل نصي

#### 2 - الاتساق وقواعد ترابط البنى الصغرى

2.1 - الاتساق الدلالي

2.2 - الاتساق التركيبي

2.3 - الاتساق المعجمي

## تمهيد

إن انسجام النص وتناسقه كفيل بتحقيق نصية النص، وتحقيق الغرض الدلالي والبعد التواصلية الذي من أجله سيق خطاب معين، وقد أكد علماء النص - مع ظهور هذا المنهج - أهمية التماسك في تثبيت أركان النص ونموه ليتأكد الغرض التواصلية المطلوب، فهو عنصر جوهري في تشكيله وتفسيره، والكلام لن يحقق فائدته المرجوة إلا بالترابط، فلا يكفي أن تجتمع بنى لسانية في تركيب ما ليتكون النص، لذا فقد غدا التماسك "مبدأ جذريا في تحديد نظامية التفكير الذي لا يكاد يستغني عنه في بناء أي جسم أو نظرية أو نص"<sup>1</sup>.

إن مصطلحي الانسجام والاتساق يسيران حذو بعضهما البعض في الدراسات اللسانية المعاصرة. رغم أن الحديث عن الانسجام سابق، حيث ظهر في اللسانيات الغربية مقدا على مصطلح الاتساق. وهناك إلى حد الساعة من لا يفرق بين المصطلحين. فيستخدم الاتساق بمعنى الانسجام، والانسجام بمعنى الاتساق. ولو ركزنا النظر في الدراسات خاصة منها التطبيقية لوجدنا أنه رغم التقارب وشبه التداخل فإن المصطلحين يختلفان من حيث اعتماد الاتساق على المظاهر النصية الشكلانية التي تظهر في نمط البناء، أي أن الاتساق متعلق بنظام القواعد الشكلية بالنظر إلى البنية السطحية للخطاب، في حين يعتمد الانسجام على المظاهر الخطابية. ونلجأ إليه حين تلتبس علينا قضية تناسق النص من عدمه. فالنص هو الرؤية البنوية. أما الخطاب فهو رؤية بنوية ورؤية تداولية. وكلتا الظاهرتان تسهمان في تحقيق الاستمرارية الدلالية. وكما يقول "آدام" إن النص إنتاج مترابط، متسق، ومنسجم وليس رصفا اعتباطيا للكلمات والجمل وأشبه الجمل والأعمال اللغوية<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> محمد شطاح، نعمان بوقرة: تحليل الخطاب الأدبي والإعلامي بين النظرية والتطبيق، ط1، مكتبة الآداب، 2006، ص47.

<sup>2</sup> J.M.Adam : Elément de linguistique textuelle, Mardaga, Bruxelles, 1995 , P112

إن الصورة النموذجية للقرآن المكي كما يقول "تمام حسان" تبدو في قصار السور التي تسود فيها قصار الآيات بما تشتمل عليه من شدة على الكفار وتنديد ووعيد وترغيب وترهيب وتخويف من عقاب الدنيا يمثل ما أصاب القرون السابقة من الهلاك ومن عقاب الآخرة بوصف نار جهنم وما يلحق الكافرين من عذابها<sup>1</sup>.

والانسجام في النص القرآني يعتبر - كما يقول "محمد مفتاح" - ضربا من المغامرة الفكرية المحفوفة بكثير من المخاطر، حيث شغل هذا الموضوع الباحثين منذ القرون المحررية الأولى، ولا يزال يشغلهم، فالانسجام في القرآن الكريم متعلق بالأسس الفلسفية التي تقوم عليها الشريعة الإسلامية، وله علاقة وطيدة بعلم الكلام وعلم الأصول، لذا يجد الباحث نفسه مجبرا على أخذ الحيطة والحذر بالنسبة للنتائج التي يصل إليها لأنها معرضة للنقد<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> تمام حسان: البيان في روائع القرآن، ج1، ص459  
<sup>2</sup> محمد مفتاح : دينامية النص، ص189.

## 1 - الانسجام وقواعد ترابط البنى الكبرى

"إن انسجام النص يتحقق على المستوى اللغوي والعاملي والزمني والهدفي، فعملية النص التوليدية تسير في تدرج تنازلي حسب خطاطة محكمة، بالفضاء والزمان، فإرضاء عمليتي الإنتاج والتأويل"<sup>1</sup>.  
وإذا كان الزمان والفضاء من بين ثوابت النص، فإنهما بالضرورة ضامنان لانسجامه المعنوي على الخصوص، إذ ليس هناك نص دون رسالة موجهة إلى متلق حقيقي أو مفترَض، تحتوي على معلومات مترابطة، تيسر فهمها وتأويلها<sup>2</sup>.

إن الانسجام أعمق من الاتساق، وبعض الوحدات الجمالية تظهر وكأنها غير متسقة مما يوهم بعدم تماسكها ومقبوليتها خصوصا إذا عزلت عن سياقها مما يجعلنا ننظر في مقصدية المتكلم<sup>3</sup>. فنحن نلجأ إلى الانسجام حين يتبين لنا أن النص غير متسق، إننا نلجأ إليه ونحن نتعامل مع البنيات الكبرى في النص الواحد، حيث الانتقال من بنية إلى أخرى مختلفة عنها يستلزم الاعتماد على معايير معينة تفرض الترابط النصي، وعلى المتلقي أن يفهم هذه الآلية العملية ويكتشفها ليعيد بناء أواصر هذا النص الذي يعتقد أنه أشد اتساقا. فالانسجام يتحقق على مستوى البنيات الصغرى وقد تحقق فعلا في النص القرآني، أما الانسجام فيتحقق في مستوى أعلى. أي حين تنعدم الأدوات التي تصنع الاتساق، وفي هذه الحالة نبحث عن انسجام النص، وكل نص يجب أن يكون منسجما من خلال الاتساق أو من خلال ما يسميه "سلاكتا" SLAKTA "المعايير الاجتماعية الملموسة"<sup>4</sup>.

في بعض النصوص أو في بعض مقاطع منها لا نرى وجود علاقات شكلية بين البنى فتظهر لنا صورة ينبئ الظاهر فيها عن الانفصال، في هذه الحالة يستوجب على المتلقي أن يوظف معارفه ومدركاته

<sup>1</sup> محمد مفتاح: دينامية النص، ص 31.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 52.

<sup>3</sup> D. Maingueneau, Pragmatique pour le discours littéraire, Armand Colin, Paris, 2005, P 36

<sup>4</sup> SLAKTA : L'ordre du texte, ELA, Paris 1975 نقلا عن: مفتاح بن عروس: الاتساق والانسجام في القرآن، رسالة دكتوراه الدولة، مخطوط، جامعة الجزائر 2007/2008، ص 15.

سواء المعارف اللغوية أو المعارف الموسوعية ليتمكن من إثبات أن النص تتحقق فيه الاستمرارية. ودون وجود هذه الاستمرارية من حيث المبنى والمعنى لا يكون النص منسجما، وبالتالي فهو ليس نصا، وهذا ما يميز النص عن اللانص. فالانسجام هو النظر في العلاقات الخفية التي تنظم النص وتولده "كل نص قابل للفهم والتأويل فهو نص منسجم والعكس صحيح"<sup>1</sup>. والجمل المبعثرة لا يمكنها أن تشكل نصا حتى وإن استقامت القاعدة النحوية. فما يهم فيه هو المبنى والمعنى دون النظر في الحجم. والانسجام عملية يصنعها المتلقي و"لا يملك الخطاب في ذاته مقومات انسجامه إنما القارئ هو الذي يسند إليه هذه المقومات"<sup>2</sup>.

إن النظر في الانسجام هو نظر إلى دور المرسل والمتلقي. نظر في الكيفية التي يصنع بها المرسل خطابه، وفي الكيفية التي يُتلقى بها الخطاب. أي الكيفية التي يفهم المتلقي الخطاب المشتت، أو الذي يظهر وكأنه مشتت. إذ ينبغي الاهتمام بهما وجعلهما في قلب عملية التواصل، فانسجام النص ليس شيئا معطى مبعثرا في ثنايا الخطاب ويبحث فقط عمن يكتشفه، لأن الانسجام شيء يبني معتمدا على خبرات المتلقي "ليس هناك نص منسجم في ذاته ونص غير منسجم في ذاته باستقلال عن المتلقي. بل إن المتلقي هو الذي يحكم على نص بأنه منسجم وعلى آخر بأنه غير منسجم"<sup>3</sup>.

إن فهم الخطاب حسب "براون ويول" متعلق بالقدرات التأويلية التي يمتلكها المتلقي. والتأويل عندهما عملية معقدة وتخضع لمعايير صارمة به يقترب من التفسير، ويجب أمام هذه العملية استحضار صاحب الخطاب (المرسل) أولا واستحضار السياق الذي قيل فيه هذا النص، وهذا ما يقيّد الدلالة بعدم خروجها إلى التأويل العشوائي الذي يريده القارئ "أما محلل الخطاب الذي يعمل في العالم الحقيقي فعليه أن يتمكن من استخلاص الخصائص المميزة للسياق، وتلك الخصائص تكون مناسبة للحدث التواصلية العام

<sup>1</sup> محمد خطابي: لسانيات النص - مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 52

<sup>2</sup> المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص 51.



الذي هو بصدد وصفه والتي تسهم في فهم المعنى المقصود للقول وتحديدته"<sup>1</sup>. يتأكد هذا أكثر حين يتعلق الأمر بالخطاب القرآني باعتباره نصا مقدّسا.

إن عملية التواصل تقوم على رد الاعتبار للمرسل والمتلقي، فلا ينبغي أن نتجاهل هذا الدور المزدوج للطرفين، فعملية التأويل قصد بناء الانسجام النصي يجب أن تأخذ بعين الاعتبار حضور المرسل (الباش) صاحب هذا الخطاب، فتأخذ بعين الاعتبار مقاصده ونواياه. وبهذا يبقى الانسجام عملية مرتبطة بتشكيل الخطاب، وتبقى عملية التأويل التي تعرفنا على الانسجام هي نمط استكشافي للسيرورة الدلالية لهذا الخطاب.

إن مفهوم الانسجام يتعلق أكثر ما يتعلق بالنص الذي يفتقد إلى الروابط الشكلية، هذه الروابط التي تُعتبر مجالا لبحث عملية الاتساق النصي. وعلى ذلك فالانسجام هو محاولة من المتلقي صناعة نص بتحليله وإعادة تركيبه بالبحث عن بنيته الكلية التي تعتبر موضوع الخطاب.

إننا لا نقصد بالانسجام بحث النص عن دلالات النص غير المترابط شكليا، فقد نجد روابط لكن هذه الروابط لا تؤدي دور الربط الذي يشكل اللحمة الواحدة للجسد الخطابي، إذ معظم الروابط دورها حيادي. ونجد الكثير من هذه الأمثلة في الخطاب القرآني. فكثيرا ما نصادف آيات أو جملا وكأنه لا علاقة لبعضها مع بعض، فيضطر القارئ إلى اعتماد كل مداركه الذهنية قصد الفهم مع استحضار المنطلق الأساسي الذي يقول بأن الخطاب القرآني منسجم تمام الانسجام سواء باعتماد الروابط الشكلية أو دونها، وسواء كان موضوع السورة واحدا أو تعددت مواضيع السورة الواحدة. بل إن القرآن بلغ من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وجملة وآياته مبلغا لا يدانيه فيه أي كلام آخر رغم تنوع مقاصده، وافتنانه وتلويحه في الموضوع الواحد، وبين كلمات الجملة الواحدة من التآخي والتناسق ما جعلها رائعة التجانس والتجاذب

<sup>1</sup> براون ويول: تحليل الخطاب، ص70.

وبين جمل السورة الواحدة من الاتساق والترابط ما جعلها كتلة واحدة. وإن دورنا هنا هو البحث عن العلاقات الممكنة التي من خلالها نتمكن من فهم عملية بناء النص القرآني.

يؤمن علماء النص أن المتلقي في بحثه عن الانسجام يجب أن يعتمد على "ما تراكم لديه من تجارب سابقة في مواجهة أمثال هذا الخطاب وكذلك الاحتمالات الممكنة في إخراج النصوص، وكثيرا ما يملك المتلقي معرفة أعلى مما يقدمه الخطاب نفسه"<sup>1</sup>. فالخطاب كما قد يكون صريحا في كشفه عن أقدعة اجتماعية وسياسية وفكرية واقتصادية ودينية يكون أيضا تمويها وتغطية، أو قد يعبر بالتلميح والتضمين لكن المتلقي المشحون فكريا يفك فرا الخطاب ويضيف إليه من معارفه ما أخفاه الخطاب نفسه.

وهكذا تتوضح الرؤية أكثر في تعاملنا مع القرآن الكريم، من خلال معرفتنا بالدائرة العامة التي قيل فيها وأنزل من أجلها، ومن خلال معرفتنا بالمرسل والمتلقي، وأيضا المساهمات التي قام بها المفسرون والفقهاء قصد فهمه واستقراء مقاصده.

## 1-1- الانسجام كمحيط نصي

### أ- العنوان وخاصية خلق التوقعات:

يمدنا العنوان بزاد ثمين لتفكيك النص ودراسته، ويساعد على ضبط انسجامه وفهم ما غمض منه، إنه بمثابة الرأس للجسد فهو المحور الذي يتوالد ويتنامى ويعيد إنتاج نفسه<sup>2</sup>. كما أنه يشير إلى قصد من نوع ما يقود القارئ إلى العمل، كما أنه من زاوية يجبرنا بشيء ما. و"بداية النص غالبا ما تكون مؤشرا على وجوده وهويته"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> محمد خطابي: لسانيات النص - مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 52.

<sup>2</sup> محمد مفتاح: دينامية النص، ص 72.

<sup>3</sup> حسين خمري: نظرية النص - من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون - منشورات الاختلاف، لبنان - الجزائر، 2007، ص 116.

إن أول لقاء مادي بين القارئ والكتاب يكون من خلال العنوان، فهو يعترض القارئ ويظهر أمامه ويبرز نفسه معلنا عن نفسه<sup>1</sup>. ومقروئية النص تتوقف على جاذبية العنوان ومدى إغرائه. فهو "من العتبات النصية، ومثل هذه العتبات ليست مجرد علامات نصية بكفاء، خالية من التشويق والإثارة، بل هي خطابات أدبية غنية الدلالات، وملفوظات إشارية ذكية التبلور"<sup>2</sup>.

تعتبر نظريات النص الحديثة العنوان عتبة قرائية، وعنصرا من العناصر الموازية التي تسهم في تلقي النصوص، وفهمها وتأويلها داخل فعل قرائي شمولي، يفعل العلاقات الكائنة والممكنة بينهما<sup>3</sup>.

من اليقيني أن النص القرآني مميز من كل النواحي، من حيث المعنى والمبنى وطريقة البناء والانقسام والتعبير وبناء المقصد. إن عنوانه الأساسي الأكبر والعام هو القرآن، لكن الله تعالى أطلق عليه أسماء كثيرة من بينها كتابا ومبيننا وقرآنا وكراما وكلاما ونورا، وهدى ورحمة، وفرقانا وشفاء وموعظة، وذكرًا، ومباركا، وعليا، وحكمة، وحكيما، ومهيما، وحبلا، وصراطا مستقيما، وقيما، وأحسن الحديث، ومثاني<sup>4</sup>. هذه الأسماء مبثوثة في ثنايا النص القرآني دالة عليه وناطقة بما فيه، وإطلاق أي منها فيه إشارة إليه، وهو ما يبين تميز هذا النص عن النصوص البشرية، وسمي القرآن كتابا لجمعه مختلف العلوم والقصص والأخبار، أما العنوان الأكثر شيوعا فهو "القرآن"<sup>5</sup>. وتنضوي تحت العنوان الكبير "القرآن الكريم" مجموعة من العناوين التي تميز السور وتدل عليها، والسمة المميزة لهذه الأسماء كونها توكيفية غير تواضعية ولا وضعية، لا تقبل الزيادة أو النقصان، أو التحريف، إنها أسماء منزلة لها من سمات القداسة والإعجاز ما لبقيت أجزاء النص القرآني ككل<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> عمارة ناصر: اللغة والتأويل، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر 2007، ص 168.

<sup>2</sup> عبد المالك أشهبون: العنوان في الرواية العربية، ط1، محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 2011، ص6.

<sup>3</sup> محمد بازي: العنوان في الثقافة العربية، - التشكيل ومسالك التأويل، ط1، منشورات: دار الأمان - منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الرباط، الجزائر، بيروت، 2012، ص15.

<sup>4</sup> المرجع نفسه، ص.ص 28، 29.

<sup>5</sup> المرجع نفسه، ص29.

<sup>6</sup> المرجع نفسه، ص31.

لقد استنبطنا البنية الكبرى بالنظر إلى المبنى، أي بالنظر إلى أسماء السور، فالقضايا الكبرى يُعبّر عنها أحيانا تعبيراً مباشراً كما يقول "فان دايك". والقضايا الكبرى عادة ما تكون الجمل الواقعة موضوعاً في بداية المقطع أو آخره، ووظيفة هذه الجمل منح وبطريقة مباشرة البنية الكبرى للمقطع بدلاً من تركها لحس المستمع/ القارئ، أي أنها تُسهّل عملية الفهم، وهذه الجمل، أي القضايا الكبرى التي تجسد البنيات الكبرى خواصها النحوية مميزة، كما أنها تقع أول كل مقطع أو آخره<sup>1</sup>. وحسب "الأزهر زناد" فإن الجملة الأولى لأي نص تمثل معلماً يقوم عليها اللاحق ومنها يعود، وداخل تلك الجملة نفسها يمثل اللفظ الأول منها معلماً تقوم عليه سائر مكوناتها<sup>2</sup>.

إن كل استعمال للغة سواء كان جملة أو نصاً يتخذ له نقطة بداية، لتكون منطلقاً ولوج النص، فهي مفتاح يسهّل أو يصعب عملية القراءة والفهم. وعادة ما تكون نقطة البداية عبارة عن عنوان، والعنوان هو "الذي يحدّد هوية نص من النصوص ويميزها عن هويات أخرى، كما أنه اختزال وتجميع وإظهار لما هو مطوي وخاف من المقاصد. وهو إيجاز بشيء وواعد به. وبما أنه كذلك فإنه يغري المتلقين ويثيرهم للإطلاع على محتويات الرسالة"<sup>3</sup>. ثم إنه "يتخطى بنيته الخاصة ليتشابه مع دلائلية دافعة محفزة لانتاجية النص.. فالعنوان يرتبط أشد الارتباط بالنص الذي يعنونه فهو بمثابة نص مختصر يتعامل مع نص كبير يعكس كل أغواره وأبعاده"<sup>4</sup>. وفي الخطاب القرآني إضافة إلى العنوان الأكبر الذي هو القرآن الذي يتفرد بهذه التسمية ما يميزه عن بقية الخطابات الأخرى سواء البشرية أو الكتب السماوية السابقة عليه فإن كل سورة تحتوي على عنوان هو اسم السورة، ومن البديهي أن ترتبط أسماء السور بمتن السور التي تعبر عنها، وهذه العناوين هي المفتاح للولوج إلى فهم السور (النص). ويرتبط هذا الفهم بقدرات القارئ على تدبّر المعنى، دون إغفال ما يحيط بالنص القرآني، وهذه ميزة وأهمية يتفرد بها القرآن الكريم. مع الإقرار أن عنوان السورة هو

<sup>1</sup> فان دايك : النص والسياق، ص208.

<sup>2</sup> الأزهر زناد : نسيج النص، ص67.

<sup>3</sup> محمد بازي: العنوان في الثقافة العربية، ص15.

<sup>4</sup> بسام موسى قطوس: سيمياء العنوان، ط1، وزارة الثقافة، الأردن، 2001، ص 37.

البنية الكبرى لتلك السورة كما رأينا ذلك في الفصل الأول، وهذه البنية الكبرى هي موضوع السورة، فالعنوان يحوي مضمون السورة وموضوعها المختصر في كلمة واحدة. فأسماء السور هي بداية السور. و"للبنية وظيفتان: جلب انتباه القارئ أو السامع وشده إلى الموضوع، والتلميح بأيسر القول عما يحتويه النص"<sup>1</sup>.

يحتوي جزء المفصل على خمس وأربعين سورة، أي خمس وأربعين عنوانا، فنجد أنفسنا أمام التحليل نتعامل مع خمس وأربعين مركبة كلية أو بنية كبرى تحمل دلالة مستقلة إلى حد ما عن البنيات الأخرى. وما لاحظناه أن أسماء السور كلها مأخوذ من متن السور، حيث يذكر اسم السورة دائما في الآية الأولى لتلك السورة باستثناء أربعة سور أخرى حيث يذكر اسم السورة في المتن ولكن ليس في الآية الأولى وهذه السور هي: المعارج والعلق والمسد والماعون.

— سورة المعارج: وردت لفظة المعارج في الآية الثالثة: "سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ".

— سورة العلق: وردت لفظة العلق في الآية الثانية: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ".

— سورة المسد: وردت لفظة المسد في الآية الأخيرة وهي آخر كلمة من السورة: "فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ".

— سورة الماعون: كذلك وردت لفظة الماعون في الآية الأخيرة من السورة. وبنائها الخارجي مثل سورة المسد حيث كانت لفظة الماعون الأخيرة تماما في السورة: "وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ".

<sup>1</sup> حسين خمري: نظرية النص، ص 123.

أما الأربعون سورة المتبقية فألقابها كلها نجدها في الآيات الأولى من كل سورة، وأغلب السور تستهل آيتها الأولى باسم السورة كالحاقة، المرسلات، النازعات، عبس، الفجر، الشمس، الليل، الضحى، التين، الزلزلة، العاديات، القارعة، العصر. ومن هذا المنظور نفهم كيف أن في النص نقطة انطلاق وجذب وقوة تتأسس من خلال منطلقه وبدايته. ومركز الجذب في الخطاب القرآني هو اسم السورة، والآية التي تحوي على اسم تلك السورة. فللعنوان قوة، وقوته في ذاته. ولا يعني ذلك إغفال بقية أجزاء النص، لكن القصد أن الخطاب يتعلق بالمفتاح. وتتأكد قيمة كل آية وكل لفظة في الخطاب القرآني من خلال بناء النسق المغاير في الخمس سور المتبقية.

إن العنوان ذو حمولات دلالية وعلامات إيحائية شديدة التنوع والثراء مثله مثل النص، بل هو نص مواز، ولو تأملنا عناوين السور نجدها تعبر بحق عن المتن تعبيراً مباشراً في الغالب، فسورة الملك مثلاً بمجرد أن ننظر إليها نفهم أن الآتي (خطاب السورة) يتمحور حول نقطة مركزية أساسية هي المتعلقة بالملك في معناه الأساسي (المعجمي) وهو التملك.

يستوجب فهم العنوان استخدام المدارك الذهنية والمفاهيم السابقة لفهم المعنى. إن الملك في الخطاب القرآني متعلق بصاحب الملكوت الأعلى وهو الله جل وعلا، ومن هنا يثبت أن خطاب السورة يبني كله وفق هذه الرؤية معتمداً هذه الزاوية، فالسورة في مجملها إقرار بهذه العظمة الموجودة في هذا الملكوت.

أما انفراد السورتين (المسد والماعون) بأن تكون آخر كلمة في السورة هي نفسها اسم السورة فهذا أيضاً دلالة بأن يجعل الأذهان دائماً تتعلق بعنوان السورة إذ إنهما لم تخرج عن الهدف الذي رسم منذ البداية.

إن سورة المسد، التي تستهلّ بالويل، تقرر إقرارا مباشرا عقوبة أبا لهب وامراته حمالة الحطب بنار جهنم. وتركز السورة على عقوبة زوجة أبي لهب، فقد ذكر المفسرون وجوها في تفسير الآية الأخيرة من سورة المسد أحدها كما يقول "الرازي" أن في جيد هذه المرأة حبل مما مسد من الجبال، لأنها كانت تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الخطابون، والمقصود بيان حساستها تشبيها لها بالخطابات إيذاء لها ولزوجها. والوجه الآخر أن يكون المعنى أن حالها يكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل الحزمة من الشوك، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم وفي جيدها حبل من سلاسل النار<sup>1</sup>.

في حين توصل سورة "الماعون" رسالة أخلاقية، هي "تعجب من حال من كذبوا بالبعث وتفضيع أعمالهم من الاعتداء على الضعيف، واحتقاره، والإمساك عن إطعام المسكين، والإعراض عن قواعد الإسلام من الصلاة والزكاة لأنه لا يخطر بباله أن يكون في فعله ذلك ما يجلب له غضب الله وعقابه"<sup>2</sup>. إن جوارحه متعلقة بالشر أكثر من تعلقها بالخير، فالخوارج الأساس في هذا الخطاب هو تقديم الإحسان للغير. وقد شدّت عن هذه القاعدة سورة الإخلاص: فلم ترد لفظة الإخلاص في متن السورة إطلاقا، ولكن وردت المترادفات اللفظية والمعنوية، كما أن البنية الكلية للسورة هو الإخلاص. أي أن سورة الإخلاص عنوانها من الناحية الكلية غير متعلق بمتن السورة، لكن السورة تتمحور جملة وتفصيلا حول إخلاص العبادة لله وحده. وقد أحصى "فخر الدين الرازي" في تفسيره الكبير عشرين لقبا يطلق على سورة الإخلاص، وهي: التفريد، التجريد، التوحيد، الإخلاص، النجاة، الولاية، النسبة، المعرفة، الجمال، المشقشة، المعوذة، الصمد، الأساس، المانعة، المحضّر، البراءة، المذكورة، النور، الأمان<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> محمد الرازي فخر الدين: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، مجلد 32، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1981، ص173.

<sup>2</sup> محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد 12، ج30، ص564.

<sup>3</sup> محمد الرازي فخر الدين: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، مجلد 32، ص. ص 175، 176.

والملاحظ على هذه الألقاب أنها مأخوذة من صفات السورة وخصائصها، ولها اسمان مأخوذان من متن السورة وهما "الصمد" الذي ورد في الآية الثانية من السورة، و"التوحيد" مصدر من "وحد" ومنه كلمة "أحد"، في قوله تعالى: "قل هو الله أحد".

رغم عدم استهلال هذه السور الخمسة بأسمائها، إلا أنه يجب التنبيه إلى كون الآيات الأولى من هذه السور لها أهمية تجعلها توجه المعنى وتحدّه بطاقة من الدلالات تتولد عن معنى البنية الأولى أساساً، فالجملة الأولى من الفقرة الأولى تحدّ ليس فقط من معنى الفقرة ولكن من معنى بقية النص، فنص السورة يتلوهل ويتركز حول النواة الأولى التي نفهمها منذ قراءتنا عنوان السورة ثم الآية الأولى لتلك السورة.

فما يستهل به الحديث يكون المنطلق الرئيسي لفهم الكلام التابع له المرتبط به، وما يفتح به الموضوع تكون له الصدارة أكثر من أي موضوع آخر، ولا يمكن بأي حال من الأحوال الفصل بين اسم السورة (العنوان) وبداية السورة (التغريض) كما هو الشأن مع بقية الخطابات الأخرى، وهذا شيء يتفرد به الخطاب القرآني: احتواء الآية الأولى على اسم السورة، وكل ما بدئ به الكلام فهو مركز الصدارة، وتؤكد هذه المركزية مع النظم القرآني، وكما يقول "براون ويول": "الشيء الذي يستهل به المتكلم أو الكاتب حديثه يؤثر حتماً في فهم كل ما يأتي لاحقاً، هكذا يؤثر العنوان في فهم النص الذي يتبعه"<sup>1</sup>.

#### ب – المعرفة الخلفية ومبدأ التأويل المحلي:

ونقصد بالمعرفة الخلفية استثمار المعرفة الواسعة (الموسوعية)، ويتعلق هذا المظهر بمبدأ التأويل المحلي. وهو ما يقصد به "براون ويول" "استعمال معرفتنا بالعالم"، أو حسب "شارول" لكي يكون النص منسجماً يجب أن تكون الوقائع التي يصفها مرتبطة بالعالم الذي يصفه<sup>2</sup>. أي تزود القارئ بثقافة موسوعية

<sup>1</sup> محمد الرازي فخر الدين: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، مجلد 32، ص 155.

<sup>2</sup> J. F. Jeandillou : L analyse textuelle, Armand Colin, Paris, 2006, P 3



متميزة، وبركام معرفي يشكل خلفية مرجعية ثقافية واسعة جدا<sup>1</sup>. فالقارئ حين يواجه خطابا "لا يواجهه وهو خاوي الوفاض وإنما يستعين بتجاربه السابقة، إنه لا يقاربه وهو خالي الذهن. فالمعروف أن معالجته للنص المعايين تعتمد من ضمن ما تعتمد ما تراكم لديه من معارف سابقة تجمعت لديه كقارئ متمرس قادر على الاحتفاظ بالخطوط العريضة للنصوص (والتجارب) السابق له قراءتها ومعالجتها"<sup>2</sup>. قي الكون نواميس لا تتغير، وبديهيات لا تحتاج إلى تفلسف، هناك أمور يقينية، وهناك ما يتواضع عليه البشر، فلا نبحث لها عن تعليل حين تصادفنا في خطاب معين. فمن منّا ينكر أن الماء يتجمد عند درجة حرارة أقل من الصفر، ومن منّا ينكر أن الثلج يذوب حين ترتفع درجة الحرارة. ثم من منّا ينكر أن الإنسان يولد ثم يتتبع مراحل التطور في النمو ثم يأتي أجل يموت فيه. فهذه نواميس لا تتبدل، وبديهيات يؤمن بها الفكر البشري أجمع. وينظم إلى هذا المفهوم الأمور المتعلقة بالسياق: فلا يمكن إنكار أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - عاش يتيما، فقيرا، وإنه كان الأمين في قومه، وإنه دعا إلى رسالة الإسلام وقد بُعث في الأربعين من عمره. إن مثل هذه القضايا هي التي تدخل في سلك المعرفة الخلفية، ومعرفتنا بالعالم وكون هذا العالم يسير بشكل عادي. فأساس فهم التشكيلة النصية ونصية النص لأي خطاب هو الإحاطة بهذه المظاهر ثم استحضارها في العملية التحليلية. وكما يقول "محمد مفتاح": "الخطاب لا يؤدي وظائفه ويحقق فاعليته ونجاعته إلا إذا كانت هناك معرفة خلفية مشتركة، فهي ضرورية لإنتاج النص كما أنها ضرورية لاستقباله والوسيلة التي نحصل بها على هذه المعرفة هي الحواس"<sup>3</sup>. أو كما يقول "روبرت دي بوجرند" إن الناس يرون العالم بطريقة معينة من خلال المعلومات المخزنة والتجارب الوقائية، أما النموذج السائد هنا "العالم

1 J. H. Robert : Pour une esthétique de la réception, Galimard, Paris, 1978, P49

2 محمد خطابي: لسانيات النص، ص61.

3 محمد مفتاح : دينامية النص، ص47.

الواقعي" الذي يعتبر بعض معطياته "حقائق" مثل المعتقدات السائدة وبعض الحقائق من قوة الثبات لدرجة عدم الحاجة إلى تعويضات ككون الأسباب لها نتائج وكون المادة تفي<sup>1</sup>.

وحين نتعامل مع الخطاب القرآني نستحضر السياق العام المحيط بالإنتاجية. نستحضر واقع ذلك العصر - عصر ما قبل الوحي - الذي كان يعج في جاهلية ظلماء وظلام دامس، فذلك الواقع كان سببا في إنتاج الخطاب القرآني، ولا يمكن التعامل مع أي خطاب مهما كانت صفته وأذهاننا خالية الوفاض مما يمكن أن يساعد على اكتشاف المضامين التي يحملها ذلك الخطاب وكيف يساهم في توليد السيورة الدلالية وسيورة المفاهيم، إنه يجب الإحاطة بالإطار العام للملفوظ.

إن هذه الآليات جميعها تتحكم فيها علة أولى هي معرفتنا وتجاربنا للعالم بأنواعها المختلفة والتي تحتزل إلى نوعين: المادة اللغوية وغير اللغوية وبين المادتين تداخل، ولذا فإن المحلل يراعي النوعين معا، يقترب من النص وهو مزود بمادة معرفية يستعمل منها ما هو في حاجة إليه، وينظر في النص ويتبناه إليه وينصت له ليقدم إليه نفسه وليبوح ببعض أسراره<sup>2</sup>. "فاستيعاب النص لا يتعلق فقط بفهمه، بل يتعلق بعمليات إدراكية أخرى، وهنا يبرز دور الروابط بين معلومات النص والمعارف السابقة"<sup>3</sup>.

لقد عرفنا كما هائلا من المعلومات حول النص القرآني، وحول النص المصاحب له من سنة وأسباب النزول، وكل المتعلقة التي توضح لنا صورة الخطاب القرآني، وقد تبيننا هذه المدارك منذ الصغر باعتبار الملة والاعتقاد والتوجه الديني، وهذه أمور لا تغفلها لسانيات النص إنها تنظر إلى السياق المحيط بالإنتاجية وتقر بأنه أهم عمدة يوجه المفاهيم ويغرس التصورات ويساعد إلى حد بعيد على فهم الخطاب واستشفاف المقاصد. ولا نعتقد أن السياق يسهل فهم دلالة الخطاب القرآني بقدر ما يعمل هو على توجيه الأفكار، والأذهان، وليس ضروريا تبني الرؤى الجاهزة لكن يجب الاعتماد على النص المصاحب

<sup>1</sup> روبرت دي بوجرند: النص والخطاب والإجراء، ص26.

<sup>2</sup> محمد مفتاح: دينامية النص، ص53.

<sup>3</sup> نوال لخلف: الانسجام في القرآن الكريم، ص42.

الذي يكشف الكثير من المغاليق. فواقع إنتاج الخطاب والمحيط العام للإنتاجية ماثل في أذهاننا ويسير قراءتنا للنص\*.

كان المجتمع العربي قبل نزول القرآن مجتمعاً قبلياً معقداً، ينتشر فيه الفساد، كانت الوثنية ديانته الكبرى، مجتمع يمتاز بالقسوة، يأكل القوي منهم الضعيف، يؤتون الفاحشة، يتعاطون الخمر، يتعاملون بالربا، يقتلون أبناءهم خشية إملاق، يدفنون بناتهم وهن أحياء، يخوضون حروباً طاحنة مدمرة لأتفه الأسباب وتستمر أزمنة طويلة بسبب الثأر والانتقام. مجتمع يقبع في جاهلية ضنكى. وقد تجسد هذا في القول الشهير لـ "جعفر بن أبي طالب" - رضي الله عنه - حين خرج مع الصحابة إلى الحبشة هاربين من بطش قريش، حيث رسم "جعفر بن أبي طالب" أمام "النجاشي" ملك الحبشة صورة العرب قبل نزول القرآن بقوله: "كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنعبده ونحمله ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمراً بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمراً أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، أمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا"<sup>1</sup>.

\* مادام السياق هو الذي يتحكم في الإنتاجية كما تقر بذلك لسانيات النص وهو أوضح المناهج حتى الآن التي تخدم العلم الإنساني فنؤكد على أن كل أشكال الدراسات المحايدة تبقى ناقصة لنقص طرف من أطراف المعادلة التي تحقق الفهم. والأخص مع النص القرآني الذي يستوجب معرفة دقيقة بأسراره وأسباب النزول التي تتحكم في الكثير من التوجهات الفكرية والرؤى. إن النص المصاحب هو السند الثاني والدعامة الأولى التي تلج بها إلى فهم الخطاب القرآني دون الوقوع في مزالق إبديولوجية متبناة مسبقاً تهدف إلى كسر رؤية معينة.<sup>1</sup> أبو محمد محمد عبد الملك بن هشام المعافري: السيرة النبوية لابن هشام، ج1، نقد وتعق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، دت، ص 290.

فكانت العقيدة خاطئة ولم يبق في الجزيرة العربية إلا أشتاتا من ملة إبراهيم عليه السلام، وفي الآن ذاته وصلت المسيحية إلى قمة التحريف، حيث كان الإقرار الأخطر في تاريخ الديانات السماوية المحسّد في تأليه النبي عيسى عليه السلام.

وحيث بعث الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - برسالة الإسلام حمل على عاتقه مسؤولية تغيير الوضع من أجل إعادة بعث إنسان جديد وروح جديدة لكائن مسلم سليم العقيدة يعبد إلها واحدا هو الله - جل وعلا.

كل سورة من سور القرآن تؤكد هذا المنطق وهذا المنطق، أي وحدانية الله - جل وعلا - فلا هو ثلاثي كما يزعم المسيحيون، ولا هو أصنام تقرب إلى الله زلفى كما يزعم عرب الجاهلية. وإن اختلفت بنيات السور فإنها تلتقي في المحاور العامة. ورغم اختلاف المضامين واختلاف الموضوعات فإنها تدور في حى إثبات حقيقة بديهية هي: "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ". (الأنبياء/ الآيات 22، 24).

إن البديهية في هذه الآيات الكريمة أنه لو كان هناك إله غير الله لوقع خلل في تسيير الكون، والمعرفة التي كانت سابقة ومؤكدة ومقررة في الأذهان أن بعثة الرسول - محمد - صلى الله عليه وسلم - لم تكن الوحيدة التي أقرت وحدانية الله تعالى وتفردده بالعبودية والإلهية والربوبية، إنما كان ذلك ديدن كل الرسائل السماوية السابقة. فالإقرار بالوحدانية ليس بالأمر المستحدث الجديد على الأمة التي بعث إليها النبي "محمد" صلى الله عليه وسلم، كما أن كل ما يتبع الأمر بإقرار وحدانية الله مع القرآن المكّي الذي

يتناول دلائل قدرة الله وحقيقة البعث والنشور وقصص الأنبياء والمرسلين، كل هذه الأمور حقيقة تعامت عنها الأبصار، وغطت عليها مسحة من غبار الغرور والرفض، لكنها تظل حقائق ونواميس لا تتغير.

### ج - التجاور وترايط البنيات :

إن التجاور ضروري لتحقيق الانسجام النصي، لكنه غير كاف. ونقصد بالتجاور الترتيب البنوي للكلمات، ثم للجمل، ثم للفقرات التي تدخل في تشكيل النص، فهو مبدأ شكلي بالأساس. وحسب "الأزهر زناد" فكل جملتين متتاليتين في النص ثانيتهما بيان للأولى ترتبطان ارتباطا مباشرا بغير أداة. وكل جملتين متتاليتين في النص ثانيتهما تخالف الأولى ترتبطان بأداة ربط<sup>1</sup>. فالترتيب يخول للنص أن يكون نصا حتى مع غياب أدوات الربط، فالنصوص السريالية التي يظهر وكأنها أشتات نصوص تحمل طابع الانسجام الذي يتحقق من خلال المقصد العام أو البنية الكلية للنص، وحسب "جون ميشال آدام": إن النصية تتحقق من خلال التوازي الدقيق بين استمرارية التكرار من جهة، ونمو المعلومة من جهة أخرى<sup>2</sup>، أي أن الجمل التابعة تكون بيانا للجمل التي تسبقها بطريقة ما ليتحقق الانسجام من خلال التوالي وتتابع الجمل وهذا ما أكدته "براون ويول" بقولهما "إن تجاور مقاطع لغوية يؤدي بنا إلى فهمها على أنها مترابطة حتى في غياب أدوات ربط بينها"<sup>3</sup>. فالنص مجموعة من العناصر المتتابعة في نظام منسجم، تسهم كل قطعة نصية فيه في توضيح القطعة التي تليها والتي تسبقها<sup>4</sup>، ونحن لا نعتد بالجمل المبعثرة التي تشوش الفكر والتفكير والتي لا يوجد أي مظهر من مظاهر الترابط بينها كقولنا: الله خالق الكون، ركبت زينب الحافلة، نقل المريض إلى المستشفى، أسلمك دعوة لحضور حفلة زفاف... فهذه الجمل لا تشكل نصا إلا أن يكون هناك قصد معين محباً تحت طيات ما يتبع من مقاصد كلية للتعبير الموجه، وإلا فإن مثل هذه البعثرة للجمل

<sup>1</sup> الأزهر زناد: نسيج النص، ص28.

<sup>2</sup> J. M Adam : Eléments de linguistique textuelle , P 49

<sup>3</sup> براون ويول: تحليل الخطاب، ص268.

<sup>4</sup> J.M. Adam : éléments de linguistique textuelle, P8

لا يمكن أن تتم داخل نص معين، فعليه وإن كان التجاور شكليا بالأساس فإنه يجب عدم إغفال المقصدية التي تدفع إلى تشكيل نص معين. فهذه الجمل رغم تجاورها فإنها لا تشكل نصا لغياب الربط الدلالي وغياب أدوات الربط المنطقي، فمهما اشتغل الفكر قصد استخلاص ما يمكن أن يجمع بين هذه الجمل أو على ما يمكن أن يجمع بين بعضها لا نجد مدخلا. ورغم سمة الترتيب فإن الجمل لا تشكل نصا أمام غياب بقية العناصر التي تحكم انسجام النص وأهمها الإفادة والمقبولية. وكما يقول "ميشيل ماير" فالجملة لا وجود لها منعزلة في استعمال اللغة أي في الممارسة الفعلية للغة، لأنها محتواة في سياق للتلفظ لذلك فالجملة لا تتحقق هويتها ولا تكتسب وجودها الحقيقي إلا في إطار الخطاب أو السياق، كما أن عملية عزلها هي نتيجة وهي ممارسة مقصودة وليس معطى طبيعيا قائما بذاته<sup>1</sup>.

نلاحظ وجود مسافة حسية فارقة وبعيدة جدا بين التعابير السابقة، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه يمكن أن يتشكل النص حين تكون المسافة قريبة، فالنظر إلى المسافة من حيث القرب والبعد له دوره في تحقيق نصية النصوص، سواء كانت حسية أو معنوية ومجالها هو العلاقات السياقية والاجتماعية<sup>2</sup>.

إن التجاور ضروري ولكنه غير كاف، فلا نص من غير تجاور ولكن ليس كل تجاور يشكل نصا، فحين لا يكون التابع بيانا للسابق فالتجاور لن يكون كفيلا بتحقيق الانسجام، لذلك ينبغي وفي كل موضع من مواضع الخطاب أن يعرف المشاركون مجموعة من الأحداث المتعارفة وبالضبط تكون تلك المجموعة مما تدل عليها (القضايا المعبر عنها) في الجمل السابقة<sup>3</sup>، كي يفهم سبب غياب أدوات الربط، وكي ينظر إلى النص بمنظار تحقق النصية في أبعادها الدلالية والتداولية.

1 M. Michel : La problématique, Bruxelles ; Mardaga , 1986, P225

2 ينظر تهميش: تمام حسان: البيان في روائع القرآن، ج2، ص31.

3 فان دايك: النص والسياق، ص174.

يحقق التجاور في النص القرآني الانسجام إلى حد بعيد، ولكن لا يعوّل عليه لوحده لنقول إن ترتيب السور في القرآن الكريم ثم ترتيب الآيات يعطيه المصدقية التامة ليكون نصا منسجما. إن هذا المعيار رغم أهميته إلا أنه غير كاف البتة فهناك قواعد أخرى يجب النظر فيها.

إن التجاور الموجود في النص القرآني نفسه توقيفي، وعلى هذا الأساس فكل آية تجاور آية تحقق الانسجام مع الآية التي تسبقها ومع الآية التي تتبعها. "والجملة في النص لا تُفهم في حد ذاتها فحسب، إنما تسهم الجمل الأخرى في فهمها، وهذا يبين أن الجملة ليست وحدها التركيب الذي نحدد به المعنى، وإنما نحدد المعنى أساسا من خلال النص الكلي الذي تتضامن أجزاؤه وتتآزر"<sup>1</sup>. وكل سورة تجاور سورة فهي تحقق الانسجام مع السورة التي تسبقها ومع السورة التي تتبعها. وقد اهتم علم المناسبات بهذه القضية. إذ يعد علم المناسبة "من أهم علوم القرآن التي تعين المفسّر على تفسير النص القرآني المعجز... ويعين على رد مزاعم المستشرقين بأن القرآن غير مترابط الأجزاء في معظم سورته"<sup>2</sup>.

كانت "البقاعي" (ت 885هـ) نظرة رائدة في هذا المجال وقد توصل إلى نتائج قيمة في مباحث الانسجام من خلال كتابه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور".

نظر "البقاعي" إلى الخطاب القرآني باعتباره نصا واحدا في كليته من خلال مفاهيم بنوية ودلالية. فالترتيب الذي تخضع له الآيات القرآنية هو ترتيب منسجم من خلال ترابط دلالة كل آية بالآية التي قبلها والآية بعدها. وإن كانت نظرة "البقاعي" من هذه الناحية نظرة سطحية نوعا ما، لأن الانسجام يتحقق بتربط كل آية ليس مع التي تسبقها والتي تليها فحسب إنما ترابط الآية من السورة بكل الآيات من تلك السورة وعلى هذا الأساس فالبحث في الانسجام وفق منظور لسانيات النص هو بحث عن العلاقة الكلية بين البنيات الصغرى ثم البنيات الكبرى ثم على مستوى البنية الفوقية.

<sup>1</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص 140.

<sup>2</sup> عبد الله القطب مصطفى مسلم: المناسبات وأثرها على تفسير القرآن الكريم، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، مجلد 2، عدد 2، جوان 2005، ص 44.

إن التناسب بين السور، وترباط كل سورة بالتي تليها يعدّ من صميم مباحث لسانيات النص، ومن صميم مقولة الانسجام النصي. فمجموع السور القرآنية يشكل نصا له بداية ونهاية، نص قيل في سياق معين ويحمل خصوصية النص الفوقي من حيث اللغة ومن حيث وظيفتنا التعامل والتفاعل، وعلى هذا كانت نظرة "البقاعي" رائدة تمكن من اكتشاف قواعد الانسجام النصي وآلياته وكيفية حصوله من خلال تناسب السور فيما بينها.

يظهر الانسجام بين سورة الملك وسورة الحاقة كما يذكر "البقاعي"، حيث اختتمت سورة "الملك" بقوله تعالى: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ" الملك/ الآية 30. "فالاستفهام دليل قصور الفكر البشري والمعرفة البشرية ودليلا على كمال علم علام الغيوب. ومن هنا وجب على من يريد الاهتداء إتباع سلك النبي المرسل الذي أتاه الله من العلوم ما التي زخرت بها بحارها فأحيا مدرارها وأغرق تيارها فافتتحت سورة القلم بكلمة البيان وهو اسم الحرف الذي هو آخر حروف سورة الملك (فاختتمت سورة الملك بـ"معين" فكان آخر صوت لها هو النون) واستهلكت سورة النون "بالنون" وهو من لوازم ما دل عليه الماء الذي هو الحياة المصححة، فـ "نون" حرف من حروف المعجم وهي اسم لمسمى به ظهور الأشياء وعلمها وإدراكها كما دل عليه موقعه في اسم النور والنار والنيل والنمو والنباهة والنقاء"<sup>1</sup>.

إن "البقاعي" يربط فقط بين دلالة آخر آية من سورة الملك بأول آية من سورة القلم. في حين يمكن فهم التناسب الموجود بين السورتين من خلال ربط دلالة البنية الأخيرة من سورة الملك بالبنية الأولى من سورة النون المتعلقة بالتعجيز، إذ لما كانت آخر آيات الملك الإقرار بعجز الإنسان عن الإتيان بالماء إن غار، استهلكت سورة القلم بصوت الإعجاز "نون"، فلا أحد يفهم أسرار الأصوات التي تستهل بها معظم السور القرآنية. وهذا الصوت هو نفسه الذي اختتمت به سورة الملك. ثم لما كان هذا العجز لا يتأتى إلا

<sup>1</sup> برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ص.ص 89، 90.



من قلة علمه، كانت الآيات الأولى من سورة القلم قسم بالقلم الذي يدوّن العلوم والمعارف التي يختص بها خالق الأكوان وحده. والدليل أن الماء الذي نشربه حين يغور إلى أسفل الأرض وحده علام الغيوب يخرج له لينتفع به.

يظهر الانسجام بين سورة القلم والحاقة، حيث كانت البنية الأخير لسورة القلم هي تخويف الكفار من قدرة الله تعالى وأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالصبر والتذكير العالمي للقرآن، كانت البنية الأولى لسورة الحاقة تعظيم يوم القيامة وإهلاك المكذابين به إثباتا لقدرة الله تعالى على تعذيب الكفار الوارد ذكرهم في نهاية سورة القلم.

أما البقاعي فيرى: أنه لما قدم الله سبحانه وتعالى في سورة "نون" الإنكار الشديد لأن يسوع المسيح بالمحسن، وذكر القيامة وهدد التهديد العظيم بآية الاستدراج وختم بأن القرآن ذكر وتذكير ومواعظ للعالمين، كان تأويل ذلك ظاهرا يوم الجمع الأكبر وهو يوم الحاقة، فهو يوم عظيم وأعظم مذكر للعالمين، وأبلغ واعظ لهم وزاجر تنبني جميع الخيرات على تذكره وتذكر العرض على الملك الديان. بل إن السر في إنزال القرآن هو التذكير بذلك اليوم الذي به ينتظم الوجود، فقال تعالى واصفا القيامة، متحدثا عن أهوالها، يوم يكشف فيه عن ساق واعظا بذكرها ومحذرا من أمرها "الحاقة" أي الساعة التي يكذب بها هؤلاء وهي اثبت الأشياء وأجلاها<sup>1</sup>.

يتواصل خطاب آخر سورة الحاقة بأول خطاب سورة المعارج مثبتا مقولة السيروورة الدلالية للخطاب القرآني، فسورة المعارج إنما هي تنمة لسورة الحاقة في إثبات البعث والحساب وبيان أوصاف يوم القيامة والنار وأحوال المؤمنين والمجرمين في الآخرة<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ص89.  
<sup>2</sup> وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ص109.

وهذا شأن كل السور القرآنية فيها من التلاحم بين وحداتها وأجزائها وآياتها وسورها ما يجعلها كتلة واحدة منسجمة، وتكمل معاني خطابها بعضها البعض، وهناك حيوية وحركية ودينامية واضحة بين أجوائها المتفاعلة. "فلغة النص لغة متفاعلة، ليست خامدة، ولا تكف عن الحركة، لا تكف عن استيعاب دلالات ومضامين جديدة، وإفراز أبنية غير محدودة تتطلب وصفا ديناميا يواكب تلك القدرة ولا يحدها"<sup>1</sup>، وإننا نجد أنفسنا أمام ترابط الآيات بعضها ببعض وترابط السور فيما بينها، ثم ترابط الآية اللاحقة بالسابقة بطريقة حيوية تبعث على تواصل الخطاب القرآنية بوجهة تفعل الدلالة دائما.

فلو نظرنا إلى سورة نوح نجدها تنتم لسورة المعارج من حيث ذكر المكذبين، ففي المعارج تكذيب كفار قريش برسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - واستهزاءهم به. ولا شك أن هذا يضر النبي - صلى الله عليه وسلم - فكانت سورة نوح تنتم لسورة المعارج، وترفيه وتسليه للرسول - صلى الله عليه وسلم - خطاب مفاده: إن كذبوك يا محمد فقد كذبت رسل من قبلك، حتى "نوح" تأذى بمثل أذيتك ولكن كان مآله النصر، بعد جهاد وصبر، وكذلك سيكون شأنك أنت.

أما "وهبة الزحيلي" فيرى أنه لما قال الله في آخر المعارج: "إننا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم" عقبه بقصة نوح المشتملة على إغراق قومه إلا من آمن وتبديلهم بمن هم خير منهم ف وقعت موقع الاستدلال وإثبات خير القدرة على التبديل<sup>2</sup>.

يظهر الانسجام بين سورتي "نوح" و"الجن"، رغم اختلاف الجنسين والعالمين، إذ لما كان نوح - عليه السلام - أول رسول أرسله الله تعالى إلى المخالفين من أهل الأرض، وكان قومه عباد أوثان، وعصوه أشد العصيان مع أنه كان منهم نسبا ولسانا، واختتمت سورة نوح بدعائه عليهم. ولما كان نبينا - صلى الله عليه وسلم - آخر رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض وغيرهم من جميع الخلق، وكان قومه قد وافقوا

<sup>1</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص164.  
<sup>2</sup> وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ج29، ص133.

قوم "نوح" في خصال أهمها عبادة الأوثان، وعصيان الرسول، واستضعاف أتباعه واستهزائهم، استهلت سورة الجن بما كان من سهولة من سمع هذه الدعوة، الخاتمة الجامعة من غير الجنس فضلا عن الموافقين في الجنس، مع قصر الزمان وضعف الأعوان لجلالة هذا القرآن فقال منبها له بالأمر على ما في هذا من عظيم القدر مع الإشارة إلى تبيكيت العرب على التباطؤ عن الإجابة إلى ما يعرفون من رشده بمعناه ونظمه لكونه بلسانهم وكونه من نوع الداعي وقبيله وأقرب الناس إليه<sup>1</sup>.

كما حقق التجاور بين الآيات الانسجام بلغة راقية وبأسلوب في غاية الدهشة والجمال، حين يتحول الفصل الواقع بين الآيات من خلال انعدام أدوات الربط إلى وصل يتحقق من خلال التجاور. والتجاور بين الآيات أكبر آلية تحقق الانسجام النصي في النص القرآني، و"إذا كانت الجمل تدل على أحداث (في عالم ممكن) فإن انتظام سلاسل من الجمل ينبغي أن يدل على مجموع منظم من الأحداث"<sup>2</sup>.

يقول تعالى في سورة الملك: "وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (18) أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21) أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (22) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (23) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)". فرغم عدم وجود أدوات الوصل بين الآيات إلا أن الترتيب الواقع فيها والتجاور الكائن بينها يجعلها منسجمة، والنص ينجز عند التلفظ به ويتخذ حيزا يكون به كائنا مستقلا بنفسه فيحل بذلك في الزمان وفي المكان، وهو من حيث هو علامات دالة كائن

<sup>1</sup> البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، ص.ص180، 181.

<sup>2</sup> فان دايك : النص والسياق، ص 150.

مركب وحداته جمل، لا يدركه الفكر إلا منظما و مرتبا، والترتيب الأول هو ما تفرضه خطية الخطاب إذ ترد جملة في تتابع قهري لا مهرب منه<sup>1</sup>.

حين تغيب أدوات الربط في النص القرآني ننظر في الترتيب والتجاور، ثم ننظر بعد ذلك إلى أعمدة الانسجام الأخرى ودرجة تحققها. إذ لا يمكن أن يتحقق الانسجام من خلال التجاور فقط. إننا نحتاج إلى البحث عن مدركات هذا الانسجام من خلال مظاهره المتبقية. فالنص معقد متشابك لا يمنح معناه بسهولة ولا يهب نفسه في يسر، بل لا تستنفذ معانيه تفاسير عدة، وهو متمثل في كل تفسير، غير أنه غير متضمن فيه بدرجة تحول دون إعادة القراءة. إن كل قراءة تشكل جزءا من المعنى اللانهائي وتعكس قدرة القارئ على النفاذ إلى عالمه<sup>2</sup>.

إن التجاور في النص القرآني له خصوصيته وقيمته، فكل سورة هي تنمة للسورة التي تليها، وكل آية هي تنمة للآية التي تأتي بعدها واستمرار للآية قبلها، ليكون النص القرآني وحدة موحدة بموضوع له مواضيع جزئية، وبنيات صغرى تتحد في بنيات كبرى لتلتقي جميعا في بنية واحدة هي البنية الكلية، دون أن يكون في النص القرآني خلل أو تشويش في الترتيب والنظام النصي الكلي الذي يبعث برسائله الواضحة المتمثلة في رسالة القرآن الكريم الذي أنزل لهداية البشرية جمعاء داعيا إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له.

## 1 - 2 - الانسجام الداخلى نصي:

### أ - الاستدلال والمعاني الضمنية:

يوصل الاستدلال إلى فهم المعاني الضمنية للنصوص، تلك المعاني المخفية تحت ستار الدلالات التلميحية. فهناك عدد كبير من الاستدلالات الممكنة التي يقوم بها القارئ في عملية فهمه للخطاب، وليس من السهل دائما تحديد تلك الاستنتاجات التي قصدتها منتج النص<sup>3</sup>. لذلك كان لزاما على متلقي

<sup>1</sup> الأزهر زناد: نسيج النص، ص42.

<sup>2</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص179.

<sup>3</sup> براون ويول: تحليل الخطاب، ص270.

الخطاب أن تكون له قدرة على الاستدلال، وقدرة على فهم القول الضمني الذي يوصله إلى الاستنتاج. فاللغة التخاطب الطبيعي ليست صريحة، بل توجد قضايا لا يقع التعبير عنها تعبيرا مباشرا ولكن يمكن استنتاجها من قضايا أخرى قد عُبر عنها تعبيرا سليما<sup>1</sup>، وهذه القدرة تحيط بها مجموعة من المعايير كالمعرفة بنظام لغة معينة وطرائق اشتغالها، وفهم نظام تركيب اللغات فضلا عن البعد التداولي الذي يتحكم في أغلب الاستدلالات التي نقوم بها. ويستند الاستدلال إلى مفهوم المعرفة الخلفية، غير أنه متعلق بنظام اشتغال اللغة، فنأخذ استنتاجاتنا من هذا النظام.

فالمعرفة الخلفية نستخدمها في فهمنا للانسجام النصي من خلال البنية الشكلية التي تتضح من خلال المحاور التي تتناولها السور عامة. وهذه المعرفة الخلفية هي التي تقودنا إلى فهم الانسجام داخل السورة الواحدة اعتمادا على الاستدلال الذي يقود إلى استنباط الضمني من القول.

إن عملية الاستنباط تشبه في وظيفتها وآلياتها عملية فك الترميز اللساني. وهي عملية لا تبحث فقط عن تقوية التمثل المفهومي، إنما تضمن صحة كل نتيجة من خلال المقدمات<sup>2</sup>. وكثيرا ما نصادف في الخطاب القرآني الانتقال من موضوع إلى موضوع داخل السورة الواحدة ما يجعلنا ننتبه إلى الكيفية التي تم بها هذا الانتقال، ولماذا في سياق بالذات دون آخر.

قد نجد الربط الشكلي لكن نشعر بوجود خلل بين البنيات، وفي هذه الحالة ينبغي الاعتماد على ما يسميه "براون ويول" بـ "المعرفة الاجتماعية والثقافية التقليدية بالنظر إلى هدف الرسالة اللغوية، وجزئيا إلى صيغتها وجزئيا إلى تلك المعرفة الاجتماعية - الثقافية نفسها"<sup>3</sup>. ومن الأمثلة التي نضربها في هذا الخصوص قوله تعالى: "إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَشَرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (5) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6)

<sup>1</sup> فان دايك: النص والسياق، ص156.

<sup>2</sup> D. Sperber et D. Wilson : La pertinence : communication et cognition, Minuit, Paris , 1989, P167

<sup>3</sup> براون ويول: تحليل الخطاب، ص268.

الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ (9) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ "الانفطار/ الآيات 1 - 12.

إن محلل الخطاب شأنه في ذلك شأن المخاطب لا يملك طريقة مباشرة للوصول إلى المعنى المقصود، فهو يحتاج عادة إلى عملية استنتاج تمكنه من الوصول إلى فهم المقولات أو فهم طبيعة الروابط بينها<sup>1</sup>. لاسيما حين تظهر الحلقة المفقودة أو ما يظهر وكأنه حلقة مفقودة في سلسلة الخطاب الذي يستدعي الاستدلال، والاستدلال هو الطريق المباشر للاستنتاج. رغم أنه ثمة فئة من الاستنتاجات التصويرية والواقعية لكل جملة من الخطاب يجوز أن تكون واسعة جدا، فلا تلائم معظم هذه الاستنتاجات - من وجهة نظر معرفية- فهم الخطاب<sup>2</sup>.

إن الترتيب لوحده في هذا المقام - مع هذه الآيات الكريمة - ومع انعدام أدوات الربط غير كفيل بتحقيق الانسجام، رغم أهميته التي تدعو إلى الإقرار منذ البداية أن هناك ترابطا قويا يحتاج فقط إلى عملية استدلالية - استنتاجية لإيجاده.

استهلت المركبات الأولى من السورة بالحديث عن أمارات زلزلة الساعة التي تسبق البعث في سلسلة مركبات (آيات) يحكم بينها نظام اتساق واضح من خلال أداة الربط (الواو) بسلسلة كلامية (ملفوظ) متتابع ينتظم وفق الاستئناف، لينتقل الحديث مباشرة دون وجود منبه من خلال آية تتفرد باستقلالية الموضوع إلى التأكيد أن النفس لها يومئذ علم بكل ما قدمت، فجملة "علمت" هي جواب لسلسلة من "إذا". يقول "الطاهر بن عاشور": في تفسيره لقوله تعالى: "علمت نفس ما قدمت وأخرت" إنها "جواب لما في "إذا" من معنى الشرط، ويتنازع التعلق به جميع ما ذكر من كلمات "إذا" الأربع. وهذا

<sup>1</sup> براون ويول: تحليل الخطاب، ص42.  
<sup>2</sup> فان دايك: النص والسياق، ص160.

العلم كناية عن الحساب على ما قدمت النفوس وأخرت<sup>1</sup>. والنفوس التي تتحدث عنها الآية ومن خلال قواعد استنتاجية إنما هي النفس البشرية التي ستري يوم البعث نتاج عملها من خير أو شر كي لا تلوم إلا نفسها.

ثم ينتقل الخطاب إلى لوم الإنسان في نداء عتابي "يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ"، وهو انتقال مفاجئ لا يكاد يُظهر اتصالاً بينه وبين ما سبقه من مركبات، خاصة مع تحول الخطاب من استئناف إلى إخبار ماضٍ ثم إلى نداء. والقصد من كل هذا التحذير من مغبة الوقوع في ما ستندم عنه النفس يوم القيامة. وحتى يكون النص منسجماً في مستويي البنية الصغرى والبنية الكبرى يجب أن يصاحب تدرجه سند دلالي متجدد باستمرار<sup>2</sup>. فهذا النمط من الفراغات يحتاج إلى ملاءمة من خلال المدركات الذهنية التي تتركز على ما سبق من قول، وتتركز على القدرة قصد معرفة موطن الفراغ ليملاً باستدلالات واستنتاجات، حتى اعتماداً على الخطاب القرآني كله، أو على الخطاب التابع وهو السنة النبوية. فالاستدلال "نشاط مفتوح غير قابل للحصر بشكل صارم مادامت كل المقاربات السابقة تحتوي على مقاربات تفتحها أمثلة مستقاة من اللغة أثناء الاستعمال"<sup>3</sup>.

إننا نقوم بالاستنتاج في الوقت نفسه الذي نتلقى الرسالة، أي أن عملية الاستدلال تسير حذو عملية القراءة، ولهذا قد تكون بعض الاستنتاجات خاطئة، لكننا بقدرتنا على التأويل المحلي المرتبط بالمعرفة السياقية، ومع تواصل عملية القراءة الاستدلالية، نتمكن من تعديل الكثير من المفاهيم المستنتجة، وهذا حين تأتي معلومات لاحقة تشد عن هذا الاستنتاج، لذا فإننا نضطر إلى تركه وتكوين استنتاج آخر. وهكذا فأفضل الاستنتاجات تلك التي تأتي بعد نهاية تلقي الخطاب. لأن الاستدلال اكتشاف للحلقات

<sup>1</sup> الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير، جزء 30، ص172.

<sup>2</sup> مفتاح بن عروس: الانسجام والاتساق في القرآن، ص 43.

<sup>3</sup> محمد خطابي: لسانيات النص، ص74.

المفقودة، ويمكن اعتبار المعلومة الواردة من وجهة نظر شكلية الحلقة الضائعة المطلوبة لإقامة علاقة صريحة<sup>1</sup>. وهذه الحلقة المفقودة هي التي تربط بين القولين. تعبّر جملة الحلقة المفقودة عن نوع من العلاقات التي هي عبارة عن حقائق عامة والتي يمكن أن تتخذ شكل صيغة محددة في جميع الأحوال<sup>2</sup>.

وحين يتعلق الأمر بالخطاب القرآني فسليلة الاستنتاجات التي نقوم بها لا تكون إلا بعد التمعّن في القراءة وإعادة القراءة، ولا تقبل نتيجة فهم المعنى من خلال فهم الانسجام النصي إلا من خلال عملية استدلال.

يقول تعالى في سورة النازعات: "يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ قُلُوبٌ فُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ أَيْنَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى". النازعات/ الآيات 6 . 25

إن للقارئ سلطة يحدد بها متى وأين ينبغي اللجوء إلى الاستدلال، وهو يقوم بذلك عندما يحس بتعطل فهمه، وعدم قدرته على التأويل الناتج عن فراغات وتقطعات ينبغي أن تملأ لكي يصل إلى تأويل معين<sup>3</sup>. وحسب "روبرت دي بوجرنند" فإن "توجيه عملية الفهم يتم بواسطة استنتاجات تبني على ما هو نموذجي، فاليدان نموذجيتان بالنسبة للإنسان أكثر مما هما للحيوان"<sup>4</sup>. كذلك الشأن في مقام حديث المولى

<sup>1</sup> براون ويول: تحليل الخطاب، ص307.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص308.

<sup>3</sup> محمد خطابي: لسانيات النص، ص75.

<sup>4</sup> روبرت دي بوجرنند: النص والخطاب والإجراء، ص293.



— عز وجل — عن القلوب والأبصار والعظام فهو يقصد بها قلوب وأبصار وعظام عباده، وحتى الألسنة الناطقة هي ألسنة عباد الله الذين كذبوا بالبعث وأنكروا الحياة بعد الموت.

ثم نلاحظ حلقة مفقودة واضحة بين قوله تعالى "فإذا هم بالساهرة" و"هل أتاك حديث موسى"، حيث الانتقال المفاجئ بين حديث قوم تقوم عليهم القيامة وهم في غمرة التكذيب بالبعث، وقصة موسى عليه السلام، والحلقة المفقودة كما يقول "براون ويول" هي جزء من النموذج المعرفي الذي يحركه في أذهاننا جزء معين من النص، فلا حاجة إلى معالجة إضافية لفهم ما يأتي لاحقا من إحالة إلى عنصر آخر من ذلك النموذج المعرفي<sup>1</sup>. وحسب "أوركينيوني" فالاستنتاج قضية ضمنية بإمكاننا أن نستنبطها من القول ونستنتج محتواها الجانبي بتركيب معلومات ذوات أوضاع مختلفة داخلية وخارجية<sup>2</sup>. والنموذج المعرفي الذي يجمع شحمة ما يظهر وكأنه أشتات هو إبراز حقيقة البعث والحساب، ففي يوم ما ستقوم القيامة، وسيحاسب الجميع، حتى ألتك المتجبرون المتغطرسون سينالهم عقاب شديد، وعلى رأسهم فرعون الذي أوتي القوة والجبروت حتى اعتقد أنه لا يضاهاى مكانة وقوة وسؤددا، فادّعى بأنه وحده الرب. فالتكذيب الذي وقع من فرعون وقومه، وجزاء الهلاك الذي لحق بهم سلفا - والقص للانعاط - لا يختلف عن الجزاء الذي سيلحق المكذبين يوم البعث، بل سيكون أشد وأنكى.

هناك علاقة متينة بين النص وصور شرحه، وفي هذا يرى "روبرت دي بوجرنند" أن "العلاقة بين النص وبدائل صورته كشرحه أو تلخيصه أو مخطط تذكره ليست مجرد تجميع كلمات أو مركبات كلمات بل هي الأنماط الملحوظة لبنية العلاقات المفهومية التحتية"<sup>3</sup>. و"إجراءات اكتساب المعلومات والمعنى واختزانهما واستخدامهما يمكن أن تصور في صورة عمليات بناء العلاقات المفهومية وتنظيمها وإعادة ترتيبها، وتطويرها

<sup>1</sup> براون ويول: تحليل الخطاب، ص 310.

<sup>2</sup> C.K.Orecchioni, l'implicite, 2<sup>ème</sup> édition, Armand colin, Paris, 1998, P24

<sup>3</sup> روبرت دي بوجرنند : النص والخطاب والإجراء، ص187.

وتبسيطها وتخصيصها أو تعميمها"<sup>1</sup>. فالمعلومات التي تعطى في الخطابات القيمة والبلغية تكون موجزة، ويختفي تحت مدلولاتها الظاهرة مدلولات أكثر عمقا تحتاج إلى قراءة متمرسة تكتشفها من خلال القيام بعمليات استنتاجية - استدلالية تقوم على تأكيد القول من خلال ما قيل في الخطاب الصامت الذي يترك مساحات فارغة أو شبه فارغة.

## ب- الربط بين الأفكار:

يتحكم في بناء اللغة أهداف ومقاصد أهمها تحقيق فعل التواصل، كما يعمل على تحقيق الذات فكرياً وجمالياً لتتحدد المجتمعات البشرية تحديدا لا يقل قيمة عن تحددها بالتواصل<sup>2</sup>، وأهم سند يقوم عليه الموقف الإنساني عموما مرتبط بعالم الأفكار و"تحليل المعرفة الإنسانية يبدأ من تحليل الأحاسيس والأفكار"<sup>3</sup>، كما أن الانسجام يتحقق باتصال الأفكار فيما بينها في الخطاب الواحد، بمعنى ارتباط الأفكار فيما بينها، أو تواصل مسار الأفكار بشرح اللاحق للسابق، أو بتمديد معناه يحقق الانسجام تحقيقا مباشرا. وهناك ثلاثة مبادئ للربط بين الأفكار في الأذهان وهي: علاقة التشابه. وعلاقة التجاور في المكان والزمان وعلاقة السبب والنتيجة<sup>4</sup>.

يتوجه الخطاب القرآني من خلال الجملة الأولى من كل سورة، وهذه الجملة الأولى تتعلق باسم السورة - رغم أن التسمية جاءت بعد النزول - لكن النظرة التحليلية تبدأ بما يكون محل تلق أول. وإذا كانت الآية الأولى هي التي توجه مسار السور في عمومها فإنه لا ينبغي أن نغفل أن الموضوع الرئيسي ليس بالضرورة أن يكون هو الآية الأولى، ولكن هذه الآية الأولى تتحكم في بقية السورة من خلال المعاني التي تبثها وحتى المصطلحات التي تعتمدها.

<sup>1</sup> روبرت دي بوجرند : النص والخطاب والإجراء ، ص187.  
<sup>2</sup> كلود حجاج: بناء اللغة، ترج: الأزهر زناد، مرج: عبد السلام لحبيب، ط1، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010، ص77.  
<sup>3</sup> أحمد يوسف: الدلالات المفتوحة - مقارنة سيميائية في فلسفة العلامة، ط1، منشورات الاختلاف - المركز الثقافي العربي - الدار العربية للعلوم، الجزائر - المغرب - بيروت، 2005، ص72.  
<sup>4</sup> مفتاح بن عروس: الاتساق والانسجام في القرآن، ص 59.

يقول "غرايمز": "تتمحور كل تركيبية، كل جملة، كل فقرة، كل حلقة وكل خطاب حول عنصر واحد خاص يكون هو نقطة الانطلاق.. كأني بالمتكلم يقدم ما يريد قوله من وجهة نظر معينة"<sup>1</sup>. ينصب اهتمام "غرايمز" هنا بالخصوص على كيفية التشويش على نظام تسلسل المعلومات لإبراز بعض الأحداث الأخرى.

من النماذج التي استقينها من الخطاب القرآني والتي قام مبدأ الانسجام فيها من خلال قاعدة الربط بين الأفكار في الأذهان، مجسدا علاقة التجاور في الزمان سورة الملك التي كانت إثباتا لوجود الله تعالى ووحدانيته ببيان مظاهر علمه وقدرته وإنذار بأهوال القيامة وتذكير بنعم الله تعالى على عباده وربط الرزق بالسعي في الأرض ثم التوكل على الله تعالى<sup>2</sup>. وقد تدرجت السورة في إقرار هذه الأسس وإيراد ما رأته من نظرات. تقوم كل بنياتها على زمن واحد وهو زمن مطلق يتراوح بين الماضي المستمر في الحاضر والمستقبل الذي لم يقع بعد "تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3)". الملك/ الآية 3، 1 والانتقال في الزمن لا يظهر إلا بمعرفتنا بأن مشاهد يوم القيامة لم تقع بعد، إذ هو إخبار ونبا مسبق.

وما يصنع الانسجام كذلك هو حضور سلطة المتكلم الذي هو الله تعالى في كل مرة من بداية السورة إلى نهايتها، مع حضور المخاطب في بعض البنيات الذي هو الكافر في حوارية اللوم والعتاب: "تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (9) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ

<sup>1</sup> براون ويول: تحليل الخطاب، ص156.  
<sup>2</sup> وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ص.ص 6، 7.

نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (11). الملك / الآية 8، 11.

إن السور القرآنية كلها تقوم على مبدأ التدرج في عرض المواضيع، وهي تنطلق من موضوع أساسي يتفرع إلى مواضيع فرعية، من خلال علاقات عديدة تجعل شحمة النص مترابطة. ثم إن النص عملية لها بداية ووسط ونهاية، وجوهر العملية هو التفاعل بين المتكلم والمخاطب الحاصل عن طريق السؤال والجواب الظاهر والمضمّر<sup>1</sup>. وسورة الملك بالذات انطلقت بموضوع نواة أساسي يسمى في عرف علم النص الموضوع المتفجر لأنه كان أساس السورة كلها أي تنزيه الله وتمجيده وإظهار عظمته وتفردده بالملك والسلطان وهيمنته على الأكوان وتصرفه في الوجود بالإحياء والإماتة. ثم دلائل قدرته عز وجل: "تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1)", كما تقوم السورة على مبدأ الاستدلال، فخلقه لهذه الكائنات دليل وجوده عز وجل.

فمعظم بنيات السورة تقوم على قاعدة: سبب ← نتيجة

(بيده الملك) ← إذن (هو على كل شيء قدير)

وهذا مظهر آخر من مظاهر الربط بين الأفكار. وتقع هذه العلاقة سواء مع البنيات الصغرى أو مع البنيات الكبرى: فبسبب وجود الله كانت النتيجة وجود الموت والحياة، وبسبب وجود الله وجدت السماوات والأرض متناسقة منسجمة دون خلل أو فطور، ووجود السماوات والأرض كانت نتيجته تزيينها بالنجوم ولولا خلقه - عز وجل - لهذه السماوات لما وجدت النجوم. ثم بسبب الكفران والتكذيب والجحود كانت جهنم، وكان عذاب السعير، وترتبط هذه البنية ببنية قدرة الله على الخلق والبعث والنشور فهي كلها تعود في الأصل إلى الموضوع الأساسي الذي فجر بقية المواضيع المرتبطة به في الزمان والمكان وإن كان المكان غير محدد بإطار معين ومرتبطة بقاعدة الاستدلال: سبب - نتيجة.

<sup>1</sup> محمد مفتاح: دينامية النص، ص 214.

أما التشابه فهو أساس تقوم عليه كل بنيات السورة، إنها تتشابه في إثبات قدرة الله، وتفرده ووحدانيته، وأنه وحده الخالق والمتصرف في الأكوان له العلم الظاهري والباطني.

تجسد في سورة الملك المبادئ الثلاث للربط بين الأفكار في الأذهان: التجاور، السبب والنتيجة، والتشابه، والتي حققت الانسجام. والفهم يستلزم مجموعة من القدرات لقطع مسافة خطابية موجهة زمنيا بانسجام<sup>1</sup>، تفتح لنا سبل القراءة لفهم الانسجام الواقع في سورة الملك. رغم أن الانسجام لا يستدعي دوما وجود هذه القواعد الثلاث في الآن ذاته، فقد يُكتفى بوجود مظهر واحد أو مظهرين، حسب بناء السورة وحجمها، وموضوعاتها.

ومن الأمثلة النموذجية التي تحقّق فيها الانسجام من خلال قاعدة الربط بين الأفكار سورة النازعات. حيث أقسم الله بأربعة أصناف من الملائكة مؤكدا وجود يوم ترجف فيه الراحفة وهو يوم القيامة، يوم يضطرب فيه الكون بنفخة الصور. في ذلك اليوم تكون القلوب مضطربة خائفة ذات أبصار ذليلة منكسرة من الفزع. ثم تحول الحديث من القسم بالملائكة على صدق الوعد الحق وإظهار صورة الكفار يومها في موقف الدليل الحسير المنكسر، إلى استحضار مقام الغائب مع ضمير الغائب "هم" دون الإفصاح عن ماهية هؤلاء المنكرين: "يَقُولُونَ أَنَّنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10) أَنَذَا كُنَّا عِظَامًا نَحِرَةً (11) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (12) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17)" ، ولأن الانسجام يتطلب من المتلقي "صرف الاهتمام جهة العلاقات الخفية التي تنظم النص وتوظفه"<sup>2</sup> فإنه ومن خلال الكلام السابق " قُلُوبٌ يَوْمئِذٍ وَاجِفَةٌ (8)" ومن الثابت من خلال المعرفة

<sup>1</sup> D.Maingueneau : Pragmatique pour le discours littéraire, P 36

<sup>2</sup> محمد خطابي: لسانيات النص - مدخل إلى انسجام الخطاب، ص.ص 6.5.

الخلفية والسياقية نفهم أن القلوب الواجفة هم أئلك الكفار الذين كانوا يقولون كيف نردّ إلى حياة بعدما صرنا عظاما هشة مفتتة؟

تمت أحداث هذه الآيات في زمنين مختلفين زمن القيامة الذي لم يقع بعد، وأثناء هذا الزمن الذي لم يقع بعد هناك استحضار للزمن الماضي الذي وقع وهو زمن تكذيب الكفار بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وتكذيبهم بالبعث والحساب. وهذا لا يخل بالفهم لأن الزمنين متجاوران، فهما زمن الحاضر (يوم القيامة) وزمن الماضي (الحياة الدنيا).

إن هذه الآليات جميعها تتحكم فيها علة أولى، وهي معرفتنا وتجاربنا في العالم بأنواعها المختلفة ويختزلان إلى نوعين: المادة اللغوية والمادة اللأغوية، وبينهما تداخل لا تناقض، ولذا فإن المحلل يراعي النوعين معا، يهجم على النص وهو مزود بما يمتلكه فيستعمل منه ما هو في حاجة إليه، وينصت إليه ليقدم إليه نفسه وليبوح ببعض أسرار<sup>1</sup>.

ثم كان الانتقال إلى موضوع آخر هو قصة "موسى" مع الطاغية المستبد "فرعون". ورغم استهلال الحديث بهذه الآية إلا أنها تظهر وكأنها منفصلة عن الآيات السابقة. والحقيقة إن هناك تشابها واضحا بين الموضوعين. ودور هذا التشابه هو الربط بين الأفكار. فرعون ما هو إلا أنموذجا للكفر والجحود، رفض دعوة الحق التي جاء بها "موسى" عليه السلام، شأنه شأن كفار قريش الذين رفضوا دعوة "محمد" - صلى الله عليه وسلم - فرعون قال أنا ربكم الأعلى، وكفار قريش قالوا لا بعث لنا ولا حساب بعد الموت. فكلا الفئتين أنكرت وجحدت وطغت في الأرض وتجبرت وتكبرت. فلم تكن قصة "موسى" في هذا الموضوع بالذات إقحاما بل كان إيرادا لصورة تشبه في الموضوع (التعنت) صورة أهل قريش.

<sup>1</sup> محمد مفتاح: دينامية النص، ص53.

كما أن سبب هلاك فرعون في الحياة الدنيا ذلك الهلاك الوضيع، وانتهائه تلك النهاية المريرة هو كفره، وتكبره، وسبب هلاك كفار قريش هو كفرهم وتكبرهم. فتحققت نتيجة العمل من خلال وجود السبب نفسه وهو الكفر لكلا الصنفين.

انبنت هذه السورة على الحوار. والحوار تقريب للصورة بأن يدخل إلى سلك الممارسة الأدائية أطراف حية تقول بلسان حالها، وتتكلم بنفسها، أو كما يقول "طالب محمد إسماعيل": إن الحوار القرآني الذي يعتمد في الغالب على حكاية مقولات القائلين ونقلها على ألسنتهم يذهب في أنماطه التي لا حصر لها كل مذهب ذي أثر نفسي بليغ مؤثر، فيرد ملونا بفنون بلاغية حسب مقتضى الحال وداعية المقام. قد يأتي الحوار مفصلاً للدلالة والمغزى، ويملاً كل ثنايا المشهد. ويأتي أحياناً كثيرة يختصر الأحداث ويعرضها عرضاً سريعاً فيعنى بالإشارة اللاحمة واللمحة الدالة والنكته البلاغية الكاشفة للأغراض المقصودة من السياق مثل إبراز القيم الخلقية، والمثل العليا كحسن الأدب والملاطفة والقدرة على محاججة الخصم وإقناعه. إن الحوار يرسم معالم الشخصيات الإنسانية<sup>1</sup>.

ينتقل حديث السورة بعد هذا إلى موضوع ثالث، وهو عبارة عن سرد مجموعة من الظواهر الكونية التي خلقها الله والتي تثبت قدرته على إعادة البعث وإقامة النشور.

وما يربط بين الموضوعين دائماً هو ذلك الترابط في الأفكار من خلال علاقة التشابه، فالذي يخلق أصنافاً شتى من الملائكة والذي يحيي العظام وهي رميم، هو الذي يخلق الخلائق ويرفع السماء ويغطي الليل ويبرز النهار، يسطر الأرض ويثبت الجبال. إن هذا الموضوع يتشابه مع الموضوع الأول في إثبات قدرة الله - عز وجل - وإثبات وجود يوم البعث والحساب، ما يجعل أواصر السورة تترابط ترابطاً متيناً حتى مع اختلاف المواضيع وتباينها وحتى مع عدم وجود الروابط المنطقية.

<sup>1</sup> طالب محمد إسماعيل الزويعي: من أساليب التعبير القرآني، ص 248.

ثم يتحول الحديث في البنية الثالثة إلى شقاء الكافرين وسعادة المتقين، وهنا تتربط الآيات بروابط منطقية، ما أنتج ظاهرة الاتساق. لكن البنية الأخيرة تتفرد دون أي رابط في الحديث عن أفراد علم الساعة لله - عز وجل. ويتضح الربط من خلال تكرار الحديث عن يوم القيامة، وتكرار الحديث عن البعث والحساب. فاللغة ليست شكلا ساكنا، بل هي قوة و طاقة مؤثرة، فهي تضع محتوى الأفكار الممكنة في كلمات وتركيبات<sup>1</sup>. إننا نلاحظ كيف يتوجه الخطاب مرة أخرى إلى النبي - صلى الله عليه وسلم: "يَسْأَلُونَكَ"، وكان قد توجه الخطاب نفسه إلى النبي الكريم في البنية الثانية: "هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15)"، وهذا التشابه والتجاور في الزمن والمكان وتكرار شخص المخاطب يصنع الانسجام ويحقق النصية بمعناها التام.

سورة الشمس أتموزج آخر يتحقق فيه الانسجام عن طريق الربط بين الأفكار بشكل من الأشكال. تحوي السورة بدورها موضوعين: الموضوع الأول ينوه بفضل تركية النفس وسوء إهمالها. أما الموضوع الثاني فيسرد علينا قصة ثمود قصد الاتعاض. هي سورة واحدة بموضوعين مختلفين، والانتقال بين الموضوعين لم يعتمد على أي رابط منطقي، ما أثبت انعدام الاتساق، وتوهم الصورة الظاهرة أنه لا وجود لأية علاقة بين الموضوعين. لكن التجاور معيار قوي يحتكم إليه في فهم الانسجام الموجود داخل السور، وإن لم يكن معيارا كافيا لوحده. لاسيما حين لا نجد الربط المنطقي بين الموضوعات. ثم توحى الصورة الظاهرة بانعدام الانسجام. غير أن الانسجام تحقق من خلال قاعدة ترابط أفكار السورة، رغم اختلاف الموضوعين، وكان اللولب الذي قادنا إلى فهم هذه القاعدة، هو الآية الأخيرة من الموضوع الأول المتعلق بفضائل تركية النفس وسوء إهمالها، في قوله تعالى: "قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا(10)". فيمكن اعتبار هذه الآية في الاستقراء الجملة الهدف. والجملة الهدف هي ما يكون مركز

<sup>1</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص21.



اهتمام<sup>1</sup>. حيث ربطت هذه الجملة (الآية) بين السابق واللاحق، فالآية حديث عن الخسران. خسران ذلك الذي حقر نفسه بالمعاصي والآثام. وهي مرتبطة بالموضوع السابق المتعلق بالتباين بين ذلك الذي يزكي نفسه والذي يهملها، وبين الموضوع الثاني إذ ترتبط به. لأن أول آية من الموضوع الثاني تتحدث عن الخسران الكبير لثمود بسبب طغيانها. فكانت الآية الفاصلة نقطة تحول رابطة بين الموضوعين. فالأول قسم بملكوت الله أن الإنسان سعيد وشقي، والآية الأولى من الموضوع الثاني هي كذلك حديث عن شقاء ثمود. فارتبطت أوامر السورة من خلال هذه الآية الفاصلة والرابطة التي تتعلق بالمركبة النصية الأولى من حيث الموضوع، وتتعلق بالمركبة النصية الثانية من حيث لب الموضوع.

### ج - قاعدة التكرار تثبيت للدعائم النصية:

يرى "دومينيك مانغينو" أن سيرورة النص وتقدمه في عرض المعلومات la continuité du texte يخضعان إلى ظاهرتين مهمتين هما: "التكرار والتدرج"، ذلك أن الكاتب يذكّر أحيانا في مرحلة من مراحل النص بأشياء سبق ذكرها محاولا بذلك ربط السابق باللاحق، وممهدا للانتقال إلى معلومات جديدة<sup>2</sup>.

إن لكل مساحة معلومية مثل عالم النص، تضاريس للبنيات متميزة يمكن للناس أن يستعرضوها في صورة مدرك كلي، أو يتوغلوا فيها عقليا عند أداء عمليات مثل إدماج معلومة جديدة أو بحث المعلومة المختزنة أو الحكم على إحالات مشتركة والمحافظة على الالتحاق<sup>3</sup>. والتكرار شكل من أشكال الانسجام النصي له دوره في تثبيت دعائم نصية النص، والحفاظ على سيرورته منظما، مرتبا، دون إيقاع للفوضى أو تشويش بإعادة ذكر ما ذكر من ملفوظات حسب تموقعها المتزن داخل الخطاب.

<sup>1</sup> محمد مفتاح: دينامية النص، ص213.

<sup>2</sup> D.Maingueneau : Élément de linguistique pour le texte littéraire, P157

<sup>3</sup> روبرت دي بوجرند: النص والخطاب والإجراء، ص186.

فالتكرار هو إعادة ذكر مذكور سابق، وله أهمية بالغة في الدراسات الأسلوبية والبلاغية حيث يعد ظاهرة جمالية. أما في مجال لسانيات النص فينظر إليه من زاوية تحقيقه للسيرورة الدلالية وعمله على إثبات طابع الاستمرارية في الخطاب. وحسب "شارول" فلكي يكون النص منسجما يجب أن يحمل في تطوره الخطي عناصر مكررة إلزاميا، أي إذا تحدث عن شيء أو شخص يستمر في الحديث عن الشيء نفسه أو الشخص نفسه<sup>1</sup>.

وحتى يكون النص منسجما في مستويي البنية الصغرى والبنية الكبرى يجب أن يحتوي في مدرجه الخطي على عناصر تكرارية صارمة تسمح بتحقيق طابع الاستمرارية، والتدرج المتجانس المستمر، وغياب القطيعة<sup>2</sup>. فطابع الاستمرارية هو الأساس في نصية النص حيث يتأكد عدم وقوع تشويش في المفاهيم والأفكار التي يبعث بها خطاب ما. كما يعمل التكرار على إثبات التدرج المتجانس المستمر، وهو تدرج في المفاهيم والأفكار ويعمل على غياب القطيعة. ومبدأ غياب القطيعة مرتبط بمبدأ الاستمرارية، أي تجنب كل أشكال الخلخلة الذهنية في المفاهيم الدلالية التي تجعل من النص الواحد أشتات نصوص لا يمكن استخلاص البنية الكلية التي يجسدها في اختزاله لبنياته.

من بين السور القرآنية التي تحقق فيها هذا الشكل من الانسجام سورة "الانفطار" التي تتناول أمورا في العقيدة متعلقة ببعض أمارات القيامة وما يصحبها من تبدل في الكون ووقوع أحداث جسام ووصف أحوال الأبرار والفجار يوم البعث.

استهلّت السورة بوصف الأحداث الكونية التي تُرى يوم القيامة وهي انشقاق السماء وانتشار الكواكب وتفجير البحار وبعثرة القبور، ثم الإخبار عن علم كل نفس بما قدمت وأخرت، ثم نددت بجحود الإنسان نعم ربه وتقصيره في مقابلة الإحسان بالشكر والعرفان، ثم ذكرت سبب هذا الجحود وهو إنكار

<sup>1</sup> J.F.Jeandillou, l'analyse textuelle, P36  
<sup>2</sup> مفتاح بن عروس: الاتساق والانسجام في القرآن، ص41.

البعث، وبينت أن أعمال الإنسان كلها محفوظة مسجلة عليه يقوم برصدها ملائكة كرام كاتبون. وأردفت السورة ذلك ببيان مصير الإنسان وانقسامهم إلى أبرار وفجار ومصيرهم جنة أو نار، واختتمت السورة بالتحذير من يوم البعث والحساب واستقلال الإنسان بالمسؤولية عن نفسه وتفرد الله بالحكم والأمر<sup>1</sup>.

يغيب الربط المنطقي بين بعض أجزاء السورة ولكن انسجامها يظهر من خلال مركز جذب تمثل في تكرار بعض البنيات التي تفعل الترابط بين مركبات هذا النص القرآني. فهناك موضوعات عدة في هذه السورة: أهوال القيامة: " إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَشَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ "، ثم توبيخ الإنسان على كبره " يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ "، ثم تكذيب الإنسان بيوم القيامة والبعث والحساب: " كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالذِّينِ "، وبعدها حديث عن سعادة الأبرار وخسارة الفجار: " إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ "، ثم يعود الحديث عن يوم القيامة ومحكمة العدل السماوية: " يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (15) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (16) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ "، حيث كان الاستهلال حديثاً عن القيامة، ثم بعد ذلك يأتي فاصل تحليلي، ويعود الحديث مرة أخرى حول القيامة مؤكداً حقيقة البعث.

سمح هذا التكرار في هذا المقام - وهو الدور الأساسي لكل تكرار - إدراج العناصر المحققة للاستمرارية، و"تسمح هذه الإجراءات بربط جملة أو (مقطع) بأخرى توجد في محيطها القريب من خلال التذكير بأن مكونا في جملة يوجد في مكون في الجملة المجاورة"<sup>2</sup>، لذا كان تكرار الحديث عن يوم القيامة ثلاث مرات طريقة في لم شحمة النص بعضها ببعض. استهل الحديث بذكر أمارات يوم القيامة، توسط الحديث بيوم القيامة واختتم الحديث بيوم القيامة، فهناك مركز جذب نحو الأمام ونحو الوراثة في الآن ذاته

<sup>1</sup> وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج29، ص.ص 95-96.  
<sup>2</sup> مفتاح بن عروس: الاتساق والانسجام في القرآن، ص 41.

وهو تكرار الحديث عن أهوال يوم القيامة. فكان له الدور البارز في تحقيق الانسجام، فالموضوع الواحد المكرر يدفع بحركة النص نحو الأمام، ثم يدفعها ملتفتا إلى الوراء بإعادة بعث الحياة في الموضوع السابق.

تمظهرت بنيات سورة الانفطار وفق الشكل الآتي:

بنية 1 \_\_\_\_\_ بنية 2 \_\_\_\_\_ بنية 3 \_\_\_\_\_ بنية 4 \_\_\_\_\_

موضوع 1 \_\_\_\_\_ موضوع 2 \_\_\_\_\_ موضوع 1 \_\_\_\_\_ موضوع 3 \_\_\_\_\_ موضوع 1 \_\_\_\_\_

ثم إننا نلاحظ اللاترابط البنوي الموجود بين الآية: "يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ" والآيات التي تسبقها، لكن النحاة والبلاغيون العرب ربطوا "غياب الرابط بافتراض ذهني تقتضيه عملية التواصل وجدليته وجرى عندهم تحليل الانقطاع الظاهر بين الجمل في مواطن الاستئناف البياني"<sup>1</sup>. ومن خلال قاعدة استدلالية نفهم أن ما يربط بين البيتين - أمام غياب الروابط المنطقية هي "النفس" في قوله تعالى: "عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ". أي إذا حدثت الأمور المتقدمة علمت كل نفس عند نشر الصحف ما قدمت من عمل خير أو شر وما أخرت من الأعمال بسبب التكاسل. وقد وبَّخ الله بعد ذلك هذه النفس "الإنسان" سائلا إياه ما الذي جرك على عصيان ربك الكريم. فكان "الإنسان" في الآية (6) هو نفسه "النفس" في الآية السابقة عليه، الآية (5) فرغم الانفصال الظاهري إلا أن القاعدة الاستدلالية تثبت أن النفس إنما هي نفس الإنسان، وهكذا يعمل هذا الترادف اللفظي في ربط شحمة الآيات الأولى وهي آيات أهوال القيامة بالآيات التابعة وهي آيات توبيخ الإنسان وما تلاها من آيات.

والشكل نفسه من مظاهر الانسجام جسده سورة "الانشقاق" وهي تشبه سورة الانفطار في البناء الشكلي وفي النغم الإيقاعي وحتى في الموضوع فكلماتها في وصف حال يوم القيامة.

<sup>1</sup> الأزهر زناد: نسيج النص، ص39.

يتعلق المحور العام لسورة الانشقاق بأمور العقيدة، استهلكت بيان بعض التبدلات الكونية الخطيرة عند قيام الساعة: "إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ"، وأتبع بوصف حال الإنسان يوم العرض الأكبر، وكيف أن البشرية يومئذ فتتان: أهل اليمين وأهل الشمال: "يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلَأْتَهُ"، ثم أقسم الله تعالى بالشفق والليل والقمر على أن المشركين سيلاقون يوم القيامة أهوالا شديدة: "فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّقَقِ" واختتمت السورة بتوبيخ المشركين والكفار والملحدين على تكذيبهم، وأندرتهم عذابا شديدا يوم تقوم الساعة، كما نبهت على نجاة المؤمنين أهل التقوى والعمل الصالح، فلهذه الفئة وعد من الرحمن بالثواب الدائم المستمر: "فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ". وقد اشتملت السورة على مقصدين: الإنسان لا محال سيلاقي ناتج عمله في الحياة الآخرة. إن مصير الإنسان يومئذ جنة نعيم، أو نار الجحيم<sup>1</sup>.

السورة منسجمة تمام الانسجام رغم ما يظهر من انعدام ربط في بعض الأجزاء، كما هو الشأن في الآية الخامسة: "وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ"، والآية السادسة: "يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلَأْتَهُ". إننا نلاحظ في هذا المقام بالذات انتقال إلى موضوع جديد مختلف عن وصف أمارات يوم القيامة دون أي رابط منطقي سوى رابط التجاور الذي أكدنا على عدم كفايته، لكن يبقى الموضوع العام المتعلق بالعقيدة وارتباط أهوال القيامة بالبعث والحساب ومحاسبة الإنسان من الدلائل على انسجام السورة فيما بينها. أما أهم ما يضيفي الانسجام الواضح على النص فهو تكرار الحديث عن يوم القيامة ثلاث مرات شأن سورة "الانفطار"، وكان ذكر القيامة في كل مرة بمناسبة مغايرة للأخرى. فالقيامة في المرة الأولى ذكرت من خلال وصف أهوالها، ثم ذكرت ضمينا بأن الله سيحاسب عباده يوم القيامة، ثم ذكرت ضمينا في المرة الثالثة مقرة أن الكفار سيلاقون العذاب الأليم يوم البعث. وهذا الذكر الضمني دعتنا إليه ضرورة الاستدلال الذي من خلاله نفهم كيفية تلاحم وحدات النص وتحقق النصية، رغم اختلاف الموضوعات

<sup>1</sup> وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ص 137.

إلا أنها تبقى مرتبطة بذكر القيامة التي كانت مركز جذب بين الخطاب السابق والخطاب اللاحق، فرغم سيروية النص نحو الأمام بتتابع البنيات، إلا أنه يظل مرتبطا بالوحدات السابقة عليه، بل إن آخر كلمة من السورة مرتبطة بأول كلمة من السورة ذاتها.

إن عنصرا من الجواب يحيل على عنصر من السؤال يحقق الاستمرارية، ويعمل على غياب القطيعة كما هو الشأن مع الآيات الأولى من سورة العلق، التي تترابط بنياتها اعتمادا على التكرار الذي يطبع السورة بطابع الاستمرارية، ويمنع القطيعة بين أجزائها، فنلاحظ كيف يحدث التكرار، حيث التواصل في التعبير الموسوم بطابع الجمال والتأثير وتعميق الدلالة، مع ما يحمله من نبض حي في مخاطبة المشاعر والوجدان: "أَفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) أَفْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)". فيظهر جليا كيف يتكرر جزء من البنية الأولى في البنية الثانية، وجزء من البنية الثالثة في البنية الأولى، ويتكرر جزء من البنية الرابعة في البنية الثالثة، وجزء من البنية الخامسة في البنية الرابعة. وفي هذا الصدد يقول "روبرت دي بوجرنند" إنه "يمكن لنقطة نشاط في مساحة معلومية أن تؤدي مهمة مركز ضبط يمكن أن تنبعث منه دفعات جديدة لربط مادة أخرى مع استمرار الصياغة"<sup>1</sup>.

وما يصنع الانسجام في هذه الآيات هو التكرار الجميل وتضاد الحركة، أي التوجه المزدوج نحو الوراثة ونحو الأمام، كما يرى "سلاكتا" الذي يقر أن النص تحكمه حركتان متضادتان إحداهما توجهه إلى الوراثة بواسطة عناصر التكرار والأخرى توجهه إلى الأمام بواسطة إضافة عناصر جديدة<sup>2</sup>. وعلى المتلقي أن تكون له قاعدة استدلالية يكتشف من خلالها كيف يتحرك النص من الأمام إلى الوراثة ومن الوراثة إلى

<sup>1</sup> روبرت دي بوجرنند: النص والخطاب والإجراء، ص186.  
<sup>2</sup> مفتاح بن عروس: الاتساق والانسجام في القرآن، ص43.

الأمام، وقد نجد عنصرا داخل النص يربط الحدث أو الموقف بالماقبل وبالمابعد، وسورة العلق أمودج أمثل لهذا النوع من التكرار المحكوم بتضاد الحركة.

إن تكرار لفظة "الإنسان" بين الموضوع الأول والثاني المنفصلين من حيث المغزى، تكرار للمرسل والمتلقي، فيتكرر "ربك" الخالق في البنية الأولى، و"ربك" الذي تعود إليه الخلائق في البنية الثانية. و"الإنسان" كان في البنية الأولى المخلوق والمعلم، وفي البنية الثانية الإنسان الطاغية. فهذا التكرار للأقطاب الأساسية في السورة المفصلة للحركة هي التي تصنع هذا الانسجام الذي يجعل من السورة نبضا حيا تحركه سيروية دلالية متتابعة في تعيين مقصد السورة العام في تواصل حركته التي تتحد أخيرا في بنيتها الكلية الشاملة.

يعد هذا التكرار آية مهمة من آيات الانسجام تربط شحمة النص وتوجهه نحو الإمام ثم تربطه بما سبق، ولنا في هذا المثال المأخوذ من سورة الحاقة الدليل الواضح: "وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (8) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (10) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (12) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (15) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (16) وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (17) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (18)"، ويمكن اعتبار الآية الثامنة عشر "يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ" مركز جذب نحو الماقبل والمابعد. فالآيات السابقة عليها تحوم جميعا حول "يومئذ" أهوال يوم القيامة إهلاك الأقسام السابقة بسبب تكذيبهم ثم العقاب الأكبر يوم القيامة، والنص اللاحق بدوره متعلق بهذه الآية النواة مركز الجذب،

فالذي يؤتى كتابه بيمينه والذي يؤتى كتابه بشماله كلاهما يلاقيان الجزاء "يومئذ" يوم العرض، والندم والحسرة كل ذلك سيكون يوم البعث.

لا بد أن يتصف كل نص بالوحدة، وينبغي عليه أن يحقق التماسك وإلا أصبح مجرد متواليات من الكلمات، والثبات النسبي للموضوع هو الذي يحقق في الغالب الوحدة النصية، كما لا ينبغي البتة إغفال عناصر الترابط اللغوي والتكرار المفضي إلى تكوين أبنيته<sup>1</sup>، ولهذا نرى كيف جسدت الآية السابقة قطب الجذب في عودة الحكاية إلى الوراء ليبقى الخطاب السابق حاضرا في الأذهان، وعملت على تطوير الحدث نحو الأمام ليستمر الخطاب في الإنتاج. فتحقق الانسجام، وعبرت السورة عن موقف البعث والنشور وأمارات يوم القيامة تعبيرا متناغما متتابعا لا يمكن لخطاب بشري أن ينسجم وفق هذه الرؤية النبوية وبهذه الطريقة.

وما يلاحظ على السورة انعدام الربط بين الآية العاشرة والآية الحادية عشر في قوله تعالى: "فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (10) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11)". لقد انتقل الحديث من محور "فرعون" إلى محور "نوح" عليه السلام دون أي رابط منطقي. ويستوجب هنا فهم الموضوع العام للبنييتين:

أولا: هناك مبدأ التضاد بين الخير والشر، إذ يمثل فرعون الشر ويمثل نوح عليه السلام الخير.  
ثانيا: هلك فرعون الطاغية بالماء رغم أنه كان في موقف نجاة، ونجا "نوح" عليه السلام من الماء رغم أنه كان في موقف غرق. كان الأول في موقف نجاة لكنه فشل في امتحان الحياة فهلك غرقا، أما نوح عليه السلام فقد نجاه الله رغم أن الماء كان قد أطبق على كل شيء.

<sup>1</sup> صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص.ص 343، 344.



ففي كلا الوضعين الأداة المحركة للفعل هي الماء. فكان للإهلاك وكان للإنقاذ، كان للموت وكان للحياة، وهي الأداة التي تحرك محور الخطاب القرآني دافعة به إلى الأمام تارة، ورابطة إياه بالوراء بما سبق من قول.

كما تجسد هذا النوع من الانسجام أيضا في سورة المزمل، فقد استهلكت السورة بالحديث عن الإرشادات الإلهية الموجهة للنبي - صلى الله عليه وسلم - في مسيرته أثناء تبليغ دعوته وتهديد المشركين المعرضين عن قبول الدعوة<sup>1</sup>. لكن ما يلاحظ أن الآية العشرين والأخيرة وهي عبارة عن نص طويل يحتوي على سبعة أسطر منفصلة عن الآية التي تسبقها مباشرة والتي تتحدث دائما عن أهوال يوم القيامة فضلا عن عدم وجود أي رابط منطقي بين هذه الآية والآية التي تسبقها: "إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (19) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (20)". المزمل.

ولا يعني هذا أن هناك تشويشا في النظام الدلالي، أو المقصد الخطابي للسورة، فالانسجام واقع وواضح من خلال آلية قرائية عميقة ومن خلال "البنى المعرفية - أو الأنساق الذهنية الجاهزة التي يتم تنشيطها لفهم النصوص"<sup>2</sup> اعتمادا على جملة من الوسائط أهمها تضاد الحركة المثبتة بتكرار عناصر الموضوع المهمة، وهذا التكرار يفرض التحام أجزاء النص، حيث كانت الآية التاسعة عشر تقرر أن ما تقدم في السورة من الآيات المخوفة موعظة لأولي الألباب، فمن أراد اتعظ بها واتخذ الطاعة طريقا توصله إلى رضوان

<sup>1</sup> وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ص.ص 187، 188.

<sup>2</sup> براون ويول: تحليل الخطاب، ص.163.

الله في الجنة وأشار إلى ذلك بقوله "اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا" والآية التي بعدها المنفصلة عنها بنوايا المرتبطة بها وبما قبلها دلاليا تعيد تكرار لفظة الرب " إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ... ". إن الآية الأخيرة مرتبطة بالآية الأولى من حيث الموضوع. فبعد التدرج في سرد مجموعة من الموضوعات المرتبطة بالموضوع النواة الذي هو ضرورة الاجتهاد في الطاعة نلاحظ عودة هذه الآية الأخيرة إلى الموضوع الأول وهو الاجتهاد في الطاعة حسب المقدرة. فكانت المواضيع في الوسط إنما هي مواضيع جزئية مرتبطة بالبداية وبالنهاية.

بنية 1\_\_\_\_\_بنية 2\_\_\_\_\_بنية 3\_\_\_\_\_بنية 4\_\_\_\_\_بنية 5

موضوع 1\_\_\_\_\_م 2\_\_\_\_\_م 3\_\_\_\_\_م 4\_\_\_\_\_موضوع 1

فالتكرار بهذه الأشكال المتولبة قد تتعلق بموضوع متفجر، أي ببنية تتكرر على محطات البنى

الكبرى، أي تكرار مركز جذب بين السابق واللاحق في تواصل سيرورة المعنى المعطى.

#### 1- 2- 4- التدرج في المواضيع:

تُستهل النصوص عادة بموضوع أساسي هو الموضوع النواة أو البنية العامة، وينعتها "محمد

مفتاح" ب"الثابت البنوي، أي الجملة المنطلق"<sup>1</sup>. ثم يبدأ في التدرج سواء بالتوسع في تحليل النص أو إضافة

عناصر جديدة للنص الأصلي، ولكي يكون النص منسجما يجب ألا يحدث في تطوره أي عنصر دلالي

يتناقض مع مضمون المحمول الذي سبقه أو يليه<sup>2</sup>. والتدرج في المواضيع يحقق الانسجام الذي يتأتى من

خلال ثلاثة أنواع من التدرجات:

أ- التدرج بموضوع ثابت: حسب "مانغينو" نمو موضوع قار من جهة واحدة<sup>3</sup>. ففي البنية الخطية تتتابع

العناصر وتتحدد قيمتها المعلوماتية حسب ورودها في الترتيب انطلاقا مما يسمى بالمنطق المعقول، ويحدث

أحيانا أن نجد أنفسنا أمام نصوص تتكلم عن الشيء نفسه وتضيف إليه في المسار الخطي كل مرة معلومة

<sup>1</sup> محمد مفتاح: دينامية النص، ص212.

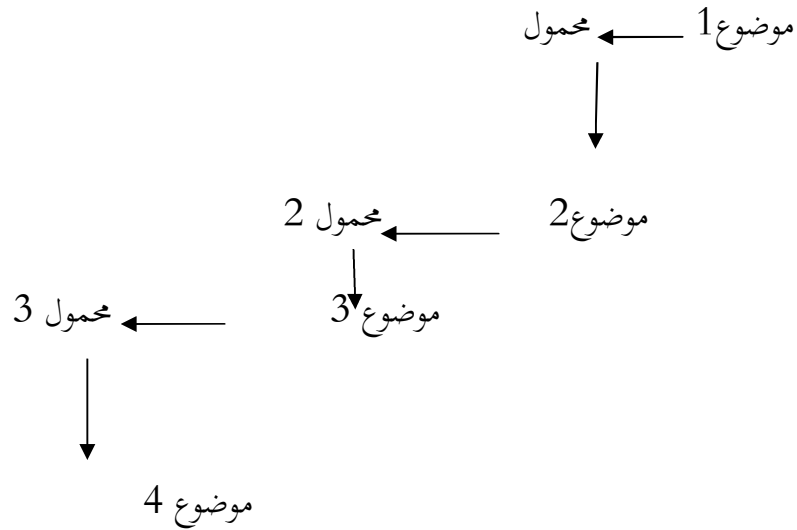
<sup>2</sup> Jeandilou, l'analyse textuelle, P36

<sup>3</sup> D.Maingueneau : Élément pour le texte littéraire, P157

جديدة<sup>1</sup>. فالجملة في النص ذات دلالة جزئية ولا يمكن أن تتقرر بتحديد الدلالة الحقيقية لكل جملة داخل ما يسمى بكلية النص إلا بمراعاة الدلالات السابقة واللاحقة في ذلك التسلسل (التتابع الجملي)، إذ ينظر إلى النص مهما صغر حجمه على أنه وحدة كلية مترابطة الأجزاء فالاعتداد هنا ليس بالامتداد الطولي، بل بالأبنية الكبرى المتلاحمة داخليا التي يقدمها النص<sup>2</sup>.

**ب- التدرج الخطي:** وهذا ما ينعته "دومينيك مانغينو" - في تحديده للأنماط الثلاثة للنمو الموضوعي للنص - بالنمو الخطي، أي نمو يكون من أول كلمة إلى آخرها بارتباط سببي<sup>3</sup>، والذي يعني أن الجملة الثانية ناجمة عن الأولى<sup>4</sup>، فإذا كانت الجملة تتكون من موضوع محمول فإن تتابع الجمل يتحقق في النمو الخطي عن طريق تحول المحمول أو جزء منه إلى موضوع في الجملة اللاحقة<sup>5</sup>.

وهذا شكل تمثيلي



<sup>1</sup> مفتاح بن عروس: الاتساق والانسجام في القرآن، ص 79

<sup>2</sup> علم لغة النص: سعيد حسن بحيري، ص 139.

<sup>3</sup> D.Maingueneau : Élément pour le texte littéraire, P157

<sup>4</sup> فايز الكومي: تحليل البنية النصية من منظور علم لغة النص - دراسة في العلاقة بين المفهوم والدلالة، ص 213.

<sup>5</sup> مفتاح بن عروس: الاتساق والانسجام في القرآن، ص 81.

ج- التدرج بمواضيع مشتقة: ويطلق عليه "التدرج بموضوع متفجر"، أي الانطلاق بموضوع مركزي، يعد أساسا محوريا يقوم عليه اللاحق، وعادة ما يكون كلمة تحتل رتبة دلالية كبيرة قياسا بالعناصر التي تُشتق منها، أو مجموعة من الوحدات التي تحتل موقع المحمول في الجملة السابقة، ثم تصبح كل وحدة موضوعا في الجملة اللاحقة<sup>1</sup>. أو كما يرى "دومينييك مانغونو" أن اتجاهات السيرورة الموضوعية تتحدد عن طريق التفرع أي الموضوع المتشظي - المتفجر<sup>2</sup>، فمن هذا الموضوع المتشظي تنبثق سلسلة من الموضوعات المتعلقة بالبنية الأساسية للنص. ومن قواعد الانسجام أن يكون تطور النص مصحوبا بمضمون دلالي متجدد بعدم تكرار المضامين نفسها بل العمل على تجديدها في كل مرة<sup>3</sup>.

فإما أن يكون التدرج بموضوع ثابت واحد يبدأ به النص يتوسع فيه ويختتم به دون النظر إلى حجم النص، أو يُستهل بموضوع ثم ينتقل إلى مواضيع أخرى تكون مرتبطة بالموضوع الأصلي بشكل واضح أو مرتبطة به ضمنا فقط، أو تكون مواضيع مختلفة ويجمعها نص واحد ومغزى واحد، يكون هذا المغزى هو أساس الانسجام. وقد يكون هناك التدرج الخطي.

وفي الخطاب القرآني صور عدة من نماذج هذه التدرجات في المواضيع بأصنافها الثلاثة، فسورة "المعارج" - رغم اختلاف المواضيع ما بين استهزاء كفار قريش بالنبى وخيبة المجرمين، ووصف طبيعة النفس البشرية ثم وصف خُلق المتقين - فإن الموضوع النواة يبقى إثبات العقيدة السليمة في النفوس بتأكيد صدق النبوة وصدق البعث والحساب بتكرار ذكر يوم القيامة وما يسبقها من أمارات وما يتبعها من أهوال: "سَأَلُ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (2)", "إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (7)", "يُودُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِنَدٍ بَيْنِيهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (14) كَلَّا إِنَّهَا لَأَطَى (15) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (16) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ

<sup>1</sup> مفتاح بن عروس: الاتساق والانسجام في القرآن، ص82.

<sup>2</sup> D.Maingueneau : Elément pour le texte littéraire, P157

<sup>3</sup> J.F. Jeandillou : l'analyse textuelle , P36

وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (18)، "وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28)". القيامة.

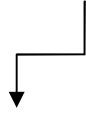
إن ذكر الآخرة ومتعلقاتها يعتبر لب النص، وهو الموضوع الثابت الذي تفرعت عنه بقية المواضيع بتدرج نسقي منظم ومرتب بذكر الحدث حسب الموقف وحسب السياق النصي. وقد لا حظنا تدرجا خطيا في سرد موضوعات السورة وهذا ما يربط شحمة النص بعضها ببعض. ترتبط الأفكار من خلال التدرج في سرد الحدث وذكر الموضوع والانتقال من موضوع إلى آخر بأن تترك بصمة الموضوع السابق في الموضوع اللاحق.

ورغم اختلاف الزمن إذ يرد على صيغة الماضي تارة وعلى صيغة المضارع تورا آخر، وقد يرد أمرا في بعض الأحيان "فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (5)" فإن الفكرة الأساسية التي يحملها النص تبقى ثابتة من البداية إلى النهاية، وكل أية لاحقة تحمل في طياتها بعض أمارات الآية السابقة عليها. ويمكن ملاحظة ذلك بنظرتنا العميقة للسورة، فقولته تعالى "لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (2)" مرتبطة بقوله تعالى: "سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1)" فهذا العذاب الواقع هو للكافرين. ثم من صاحبه؟ إنه من الله "مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (3)"، ومتى يقع الحدث؟ "تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4)"، والمطلوب منك أيها المتلقي يا "محمد" أن تصبر على أذى الكفار. "فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (5) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (7)" وهكذا إلى نهاية السورة، كل جزء من المحمول يتحول إلى موضوع. ومن البديهي كما يقول بذلك "محمد مفتاح" أن نمو النص تحكمه علاقة التفاعل سواء أكانت صراعية أو تعاونية<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> محمد مفتاح: دينامية النص، ص 215.

أما سورة الإنسان ومقاصدها الأساسية تثبت قلب النبي الكريم، وحثه على الصبر على القيام بأعباء الرسالة، وتحمل ما يلحقه في ذلك من أذى وتحذيره من اللين للكفار، ثم أشارت السورة أن اصطفاء النبي الكريم برسالة البعث نعمة عظيمة يجب أن تقابل بالشكر<sup>1</sup>. فترتبط الآيات الاثنتان والعشرون الأولى منها ببنية دلالية كبرى مجزأة وفق بنيات دلالية صغرى، لكنها ترتبط فيما بينها ارتباطا وثيقا متسقا ومنسجما من خلال ترابط كل بنية بالتي تليها، أي من خلال التدرج الخطي غالبا: "هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1) ... إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22)". حيث نلاحظ تكرار شيء من البنية الأولى في البنية الثانية وفق النمط التالي:

"هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا"

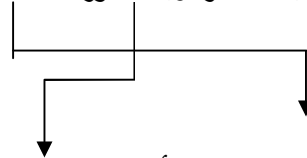


"إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا"

تكررت في البنيتين كلمة "الإنسان" فالإنسان هو المعني بكونه لم يكن شيئا وهو المعني بخلقه من

نطفة أمشاج.

"إنا هديناه السبيلا إما شاكرا وإما كفورا"



إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا

نلاحظ أن جزءا من المركبة الرئيسية يتكرر في المركبتين الثوابي أو التابعتين من حيث المبنى ومن حيث المعنى.

<sup>1</sup> محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مجلد 12، جزء 29، دط، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ص 371.

إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا

عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا

وقد فسّرت الآية مكان الشرب وصفته.

وهكذا مع بقية الآيات القرآنية التي تقوم إما على طابع التدرج الخطي (حيث نجد أمارات البنية

الأولى في البنية التي تليها). أو تقوم على التدرج بمواضيع مشتقة من خلال موضوع عام تتفجر عنه بقية

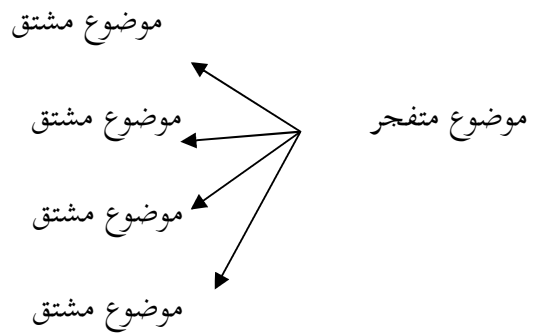
المواضيع. كمثل قوله تعالى: "وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8)"

فالبنيات التي جاءت بعده هي شرح وتحليل لهذه البنية: "إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ

جَزَاءً وَلَا شُكْرًا (9)"، إلى غاية قوله تعالى: "إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22)".

ورغم أن هذه البنيات الخمسة عشر قد تفجرت عن الموضوع النواة، بالإضافة إلى ذلك كل بنية تحمل شيئا

من البنية السابقة عليها إما جزءا من الموضوع أو إحالة.



ثم نلاحظ كيف أن الآية الثالثة والعشرين تنفرد وتنفصل دون رابط منطقي بموضوع آخر مرتبط بالنظر إلى مقولة الانسجام. لكن الخطاب التفت من خطاب الآخرين الذين هم الكفار إلى خطاب الأنت والمقصود هو النبي - صلى الله عليه وسلم.

انتقل الخطاب من "هم" إلى "الأنتم": الذين آمنوا وعملوا الصالحات.. الذين أطعموا المسكين واليتيم والأسير طالبين، راجين رضا الله وحده، فعذاب جهنم مستطير وناهاها شديدة وقعرها بعيد ولا يأمن شرها إلا من أتى الله بقلب سليم فجزاهم الله على حسن فعلهم بما حباهم من نعيم، وما وهبهم من خير كثير. ورغم ذلك فالآية ترتبط بسابقتها من خلال الآية السابقة عليها "إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا(22)" فهو وإن كان جزاء للذين يطعمون الطعام فإنه كذلك مرتبط بالآية التابعة لها، أي إنه كذلك هو جزاء للرسول - صلى الله عليه وسلم - لأن سعيه كان مشكورا ولذلك فيجب عليه أن يصبر ولا يتولى ولا يضعف ويستكين أمام الكفار. وكل دراسة للموضوع "حسب" براون ويول" تقتضي السؤال عن السبب الذي يدعو المتكلم إلى قول شيء ما في مقام خطابي معين<sup>1</sup>. فالآية تربط شحمة المقابل بالمابعد، فهي حديث عن المحسنين وهي كذلك حديث عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهكذا يظهر التلاحم والانسجام بين الموضوعين من خلال هذا الرابط الذي هو عبارة عن بنية صغرى.

ومن أمثلة التدرج بمواضيع مشتقة ما ورد في سورة المدثر، فالآيات العشر الأولى من السورة عتاب إلهي للرسول - صلى الله عليه وسلم - سببه ردة فعله - عليه الصلاة والسلام- تجاه ما وقع له في غار حراء، حيث هلع هلعا شديدا وعاد إلى خديجة وهو يقول "دثروني دثروني". فعاد إليه الوحي مرة أخرى مخاطبا إياه "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (3)". فإنك مبعوث وعليك التبليغ، يستوجب عليك الامتثال لأمر الله - جل وعلا - الدعوة مع الصبر تهيئ النفوس ليوم الفصل. فإذا كان الذي ينطق

<sup>1</sup> براون ويول : تحليل الخطاب، ص94.



جملته في الخطابات الأدبية عليه أن يخطط للجملة الموالية وأن يضعها في مكانها من النسق العام لما يريد قوله، كما أنه فوق ذلك كله لا يوجه أداءه هو فحسب إنما كيفية وقوع ذلك الأداء في نفس المتلقي<sup>1</sup>، فكيف بالخطاب الرباني.. إنه يراعي المتلقين الذين هم البشر إلى درجة كبيرة، لأنه رسالة موجهة إليهم بالأساس.

إننا نلاحظ كيف ينتقل الخطاب القرآني في السورة نفسها إلى الحديث عن محكمة قريش حين راحت تطلب عون "الوليد بن المغيرة" طالبة منه تفسير وضعية الرسول - صلى الله عليه وسلم - لوضع حد لدعوته، ليؤكد لهم "الوليد بن المغيرة" أن القول الذي ينطق به "محمد" - صلى الله عليه وسلم - مدعيا أنه كلام الله ما هو إلا مجرد سحر، بعدما أكد لهم أنه ليس بقول شاعر فهو أعلم العرب آنذاك بالشعر وخصائصه: "إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25)". المدثر/ الآية 18 ، 25.

لقد حبا الله هذا الشخص "الوليد بن المغيرة" سموا ورفعوا بين ذويه، وهبه مالا وسلطانا، فكان الغني العزيز عندهم. ففي الموضوع الثاني لهذه السورة. يتساءل الخطاب القرآني كيف تُقابل نعم الله بهذا الجحود والنكران.

فالنص الأول إذن حديث عن موضوع، والنص الثاني حديث عن موضوع آخر متعلق بشخصية جاحدة كافرة ادعت أن النبي ساحر. ولا يوجد رابط بين النص الأول والنص الثاني غير الربط المعنوي، فهذا الجاحد الكافر ينتظره "يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10)" إنه من الكفار الذين مآلهم نار جهنم خالدين فيها، فكانت سورة المدثر أنموذجا واضحا لكيفية التدرج بمواضيع مشتقة، وهذا التدرج

<sup>1</sup> براون ويول: تحليل الخطاب، ص5

مع مظاهر أخرى كالتكرار الوارد فيها وعلاقة التجاور في الزمان والمكان كفيل بتحقيق الانسجام النصي داخل السورة.

من النماذج الحية يمثل هذا الشكل من أشكال التدرج في المواضيع سورة البلد. تُظهر القراءة الأولى للسورة وكأنها أشتات من المعاني المبعثرة. لكن هذه السورة بالذات لها خصوصية بالنظر إلى بقية السور من جزء المفصل.. يظهر للوهلة الأولى وكأنها منقطعة الأواصر وكأن لا شيء يجمع بين بنياتها.

المتحدث هو الأنا العليا "الله" سبحانه وتعالى إلى غاية الآية العاشرة: "لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) ..... وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10)". ثم يتحول الخطاب إلى هو "الإنسان" "فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12)". البلد.

تحتاج هذه السورة إلى قارئ ماهر، متقن للغة العربية، عارف لأسرارها كي يستطيع إعادة بناء ما غاب من الكلمات، وما غاب من ربط، وما تناثر من دلالات، هذا فضلا عما يوفره السياق. سياق النزول وقراءات المفسرين في توجيه فهمنا للسورة. والمرء ينطلق من اللغة في أية صورة قد تشكلت فيها، فهي التي تفجر طاقات لا حدود لها، ومن ثم لا جدوى من وضع حدود أو قيود أو ضوابط صارمة لهذه الطاقات، إن "المعاني تتحرك داخل النص في اتجاهات متباينة تشكل نسيجاً متشابكاً معقداً، يصعب تفكيك أجزائها دون اتصال مباشر في أثناء هذه العملية بمفاهيم جامعة تقوم بالحفاظ على التكوين الموحد، لذلك فقد عُني علماء النص بالمستوى الدلالي عناية كبيرة، حيث يُسهم في تلك الاستمرارية إسهاماً فعالاً"<sup>1</sup>.

من خلال التفاسير القرآنية نفهم أن الله أقسم على قدرته في تطويع النسل وبعث الاستمرار فيه بأن خلق الأزواج وجعلها تتناكح وتتوالد وتتكاثر، فإذا كانت هذه قدرته التي لا تضاهي ولا يمكن لبشر أن يدرك كنهها أو يصنع صنيعه فكيف يخفى عليه أمر النفوس وما تبطنه من خير وشر، كيف يتسنى للكفار

<sup>1</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، 173.

أن يعتقدوا - بعد هذا - أن الله لا يعلم بأن أمواهم التي ينفقونها إنما ينفقونها رياء ومطمحا في بلوغ المكارم الدنيوية، فلم يُرد بها إطلاقا صناعة معروف وإرادة خير.

إن الجمل الفرعية التي تشكل الجملة المركبة تختلف في أبنيتها ووظائفها، وهذه الجمل تلتحم فيما بينها لتساهم في تكوين الجملة الكبرى، وفي تحديد دلالتها، والسمة المميزة للجملة الكبرى أن دلالتها تضيق كلما طالت ألفاظ التركيب، وبذلك يبرز نظامها وتظهر خصائصها في العلاقات المتنوعة التي تتماسك داخل السياق اللغوي<sup>1</sup>.

الموضوع الرئيسي في سورة البلد هو إثبات قدرة الله، في جملة أساسية مركبة، ثم تبعها موضوعات متفرعة أساسية في جمل فرعية، أو بنيات فرعية ورئيسية في الآن ذاته، إذ لا يمكن تجاهل أي عنصر من العناصر الواردة . بل إن السورة تحتاج إلى صناعة أقوال مخدوفة عمدا طلبا للتدبير واستخدام الأداة البلاغية رغبة إيجاز، إن الله تعالى لم يأمر عباده بالكفر ولم يجبرهم على الطاعة، بل هيا لهم الحواس وطلب إليهم استخدامها فيما ينفع. وإن لم يفعلوا فلا يلومون إلا أنفسهم.. فالقدرة لا تعني فرض طريق على بني آدم فقد منحوا حرية الاختيار. وهذه المعاني الضمنية مستقاة من خلال مقصود القول الذي يظهر من خلال تصرفات كفار قريش، فعقابهم الشديد قد استوجبه لأنفسهم.

لا تختلف سورة النبأ عن بقية السور المكية، حيث نثبت بدءا أن القاعدة الأولى للانسجام في القرآن المكي كونه يتناول أمور العقيدة لتأكيد البعث والحساب. فحتى وإن ظهر ما قد يشعرونا بالتشتت إلا أن الانسجام واضح في كل بنيات سور جزء المفصل مهما اختلفت المواضيع لأنها تدور لتحوم حول الموضوع النواة. وكل البنيات النصية ترتبط بهذا الموضوع النواة.

<sup>1</sup> محمد خان: لغة القرآن الكريم - دراسة لسانية تطبيقية للجملة في سورة البقرة، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص 115.

سورة النبا كغيرها من السور المكية من خلال العنوان نفهم رسالة الخطاب العقدي الذي تبثه، فالعنوان هو مفتاح رسالة تأكيد البعث والحساب.

اشتملت هذه السورة كما يقول الشيخ "طاهر بن عاشور" على وصف المشركين وكيف خاضوا في شأن القرآن، كما أشارت إلى أن القرآن جاء بما يخالف معتقداتهم، كما أكدت السورة على البعث، وتحدثت كيف أن الكفار يتساءلون ويسأل بعضهم بعضا عن حقيقته مستهزئين به، وأشارت السورة إلى تهديدهم على استهزائهم، وفيها أيضا إقامة الحجة على إمكان البعث بعد موتهم بخلق المخلوقات التي هي أعظم من إعادة خلق الإنسان، حيث يستغرب الكفار ويستهزئون من مقولة أن الإنسان سيحييه الله بعدما أماته ليحاسبه، فيجيبهم أن كيف يستغربون لهذه ولا يستغربون من خلقهم أول مرة بعد أن لم يكونوا شيئا. ووصفت السورة الأهوال الحاصلة عند البعث من عذاب الطاغين مع مقابلة ذلك بوصف نعيم المؤمنين. وإن صفة يوم الحشر إنذار للذين جحدوا به والإيماء إلى أنهم يعاقبون بعذاب قريب قبل عذاب يوم البعث. وأدمج في ذلك أن علم الله - سبحانه وتعالى - محيط بكل شيء ومن جملة الأشياء أعمال الناس<sup>1</sup>.

تعتبر الآية "إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَاتًا (17)" مركز جذب. فهي قلب السورة، أي البؤرة أو الجملة الهدف، ولا يعني هذا أن ما قبلها وما بعدها حشو يمكن الاستغناء عنه، وإنما يجب أن نجعله سببا ونتيجة، وليس هناك مقياس علمي لضبطها، فهي موكولة إلى حس القارئ وذوقه وحدسه<sup>2</sup>، وموكولة أيضا إلى دورها داخل الفعل الدلالي وما تثبته من قوة قول مقارنة مع بقية الجمل النصية، إن الآية السابقة لهذه الآية لها دور في ربط هذه البنية بالبنية السابقة عليها: "عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1)" إنهم يتساءلون عن يوم الفصل، فتربط الحديث اللاحق في شرحها لمعنى يوم الفصل إلى غاية آخر السورة. هذه الآية لا ترتبط بسابقتها

<sup>1</sup> محمد الطاهر ابن عاشور: التحرير والتنوير، مجلد 12، جزء 30، ص 6.  
<sup>2</sup> محمد مفتاح: دينامية النص، ص 73.

بأدوات الربط المنطقي. لكن نحن نكتشف الربط من خلال ظاهرة الانسجام وترابط الحركة. فمن عظمة الخلق إلى عظمة يوم البعث. فالبنية الأخيرة من السورة تتحدث عن البنية الأولى من السورة. وللقارئ دور فعال في عملية إنتاج النص، فالعلاقة بينه وبين النص لا تسير في اتجاه واحد كما كان يعتقد، أي من النص إلى القارئ بل هي علاقة انعكاسية تسير من النص إلى القارئ ومن القارئ إلى النص<sup>1</sup>.

استهلت السورة السابقة بمستفهم مجهول: "عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ(1)". فلم يشرح لنا النص صورة ذلك السائل. لكن المعرفة الخلفية تحيطنا علما أن المتسائلين هم كفار قريش. وقد تراوح الخطاب بين "هم" المتسائلون الذين سيعلمون بعد لأي من الزمن، و"الأنا" الجمعي الدال على التفرد والوحدانية والقدرة. "ألم نجعل.. وخلقناكم... وجعلنا... وبنينا" والأنتم وهم "الكفار" ليعود مرة أخرى إلى "هم" "كأنوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا (27) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (28) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (29)" ويختتم بالأنا "فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (30)"

هم (الكفار) ← نحن (الله) ← أنتم (الكفار) ← هم (الكفار) ← نحن (الله) .

إن مسألة التدرج في المواضيع آلية نجد لها حضورا في أغلب الخطاب القرآني، فلها دور في تكثيف الخطاب بإعطاء أكبر قدر من المعلومات المختلفة، المترابطة بطريقة قد تبدو وكأنها متباعدة الدلالات، مختلفة الإيجاءات، متباينة المفاهيم، لكن اكتشاف هذا التدرج يعمل على ربط شحمة الخطاب، كما يفعل تواصل الفعل القولي، وبيث السيورة الدلالية. إنها آلية من أهم الآليات التي تحقق الانسجام النصي.

<sup>1</sup> سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص 177.

## 2 - الاتساق وترباط البنى الصغرى

### تمهيد

يقصد بالاتساق ذلك التماسك الشديد الحاصل بين المفردات والجمل المشكلة للنص، اعتمادا على مجموعة من الأدوات النحوية والدلالية التي تضم شحمته، وتضمن تماسكه والتحام أجزائه، محققة اتساقا تركيبيا ودلاليا. ويعدّ تماسك النص أحد أسس علم النص الحديث، والمفصل الهام الذي تنطلق منه الدراسات اللسانية - النصية، اعتبارا من أن النص شبكة من العلاقات الداخلية التي تتشكل من روابط لغوية، تركيبية وزمانية، وإحالية، وعلاقات خارجية تتعلق بمحيط النص وملايساته<sup>1</sup>.

ثم إن "الحفاظ على استقرار النص وترباطه اللفظي يتم من خلال استمرار الوقائع، وتستند فكرة الاستمرارية إلى الافتراض القائل بوجود ارتباط بين وقائع النص وأجزائه من جهة والسياق من جهة أخرى"<sup>2</sup>، فالسيرورة الفعلية لحركة الحدث والزمن التي تعرف بالوقائع متعلقة دوما مع كل الممارسات التحليلية - النصية بالعلاقة الضرورية بين الفعل النصي والسياق النصي والخارج النصي.

ومن أجل وصف اتساق النص يسلك المحلل الواصف طريقة خطية، متدرجا من بداية الخطاب (الجملة الثانية منه غالبا) حتى نهايته، راصدا الضمائر والإشارات المحيلة إحالة قبلية أو بعدية، مهتما أيضا بوسائل الربط المتنوعة كالعطف، والاستبدال، والحذف والمقارنة والاستدراك. كل ذلك من أجل البرهنة على أن المعطى اللغوي (النص) يشكل كلا متكاملا موحدًا<sup>3</sup>.

من أهم الأعلام الذين بحثوا ظاهرة الاتساق "هاليداي" و"رقية حسن"، ويجددانه بقولهما: "يشير إلى مجموعة من الإمكانيات التي تربط بين شيئين، وبما أن هذا الربط يتم من خلال علاقات معنوية، فإن

<sup>1</sup> هناء محمود اسماعيل: النحو القرآني في ضوء لسانيات النص، تقد: كريم حسين ناصح الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012، ص181.

<sup>2</sup> حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، ص 78.

<sup>3</sup> محمد خطابي: لسانيات النص - مدخل إلى انسجام الخطاب، ص5.

ما يهمنا هو العلاقات المعنوية التي تشغل بهذه الطريقة: أي الوسائل الدلالية الموضوعية بهدف خلق النص<sup>1</sup>، والربط بين شيئين عند "هاليداي" و"رقية حسن" يعني بالضرورة الربط بين الوقائع والأحداث التي تتمظهر في صورة مركبات جمالية صغرى وكبرى، على أن يشتمل الاتساق على الوحدات السطحية للنص، دون الولوج إلى البنية العميقة التي تخرج المبحث الاتساق ليدخل في سلك الانسجام النصي.

من المؤكد أن نصية النص ينبغي أن تعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية التي تخلق النصية، بحيث تساهم هذه الوسائل في وحدته الشاملة<sup>2</sup>. والربط وهو العملية التي يتم بواسطتها اتصال جمل النص من أجل إقامة علاقة دلالية بينها.

أسهم التراث العربي القديم لاسيما مع النظرية البلاغية، في تحديد مظاهر الاتساق النصي في مفاهيم أهمها على الإطلاق التكرار، والحذف، والوصل، ليكون التراث العربي بهذا الاعتبار صاحب نظرية في هذا المجال، حتى وإن كانت المصطلحات متغايرة نوعا ما.

هناك من يرى أن الاتساق نوعان:

أ - الاتساق الدلالي: ويتحقق بالإحالة.

ب- الاتساق التركيبي: ويتحقق بوسائل لغوية كالوصل.

وهناك من يضيف إلى هذين النوعين نوعا ثالثا ينعونه ب:

ج - الاتساق المعجمي: ويربط عبر العلاقات المعجمية القائمة بين مفردات النص، ووحدات من جمله، ويحققها التكرار، بتكرار عنصر معجمي بعينه أو بمردفه والتضام، أي توارد زوج من الكلمات تربط بينها علاقة معجمية، كالطباق والجزئية، والكلية والعموم والخصوص والترتيب والمجاورة.

<sup>1</sup> هاليداي ورقية حسن: cohesion in English ، ص1. نقلا عن محمد خطابي: لسانيات النص - مدخل إلى انسجام الخطاب، ص16.  
<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 13.

مع العلم أن الاتساق قد يتحقق الربط النحوي، ليس دائما، لكن عادة ما يحدث ذلك، إلا أن الربط الدلالي بين الجملتين يظل ملتبسا، و"لا يمكن الربط بين القضيتين إلا في إطار دلالي خاص يختلف عن الإطار النحوي - الدلالي السابق لعدم قدرته على إيضاح العلاقة بين الجملتين، أو في إطار سياقي تداولي يسهم في إيضاح تلك العلاقة"<sup>1</sup>. علما أن الإسناد يعتبر الرابطة الكبرى بين عنصري الجملة كما في المبتدأ والخبر والفعل والفاعل<sup>2</sup>.

ومن البديهي أن النص القرآني خطاب متكامل تركيبيا وداليا وتتحقق فيه كل معايير النصية التي تجعل منه خطابا تعامليا- تفاعليا يؤدي وظيفة بلاغية وإبلاغية. ولقد اهتم المسلمون بالقرآن الكريم وكرّسوا جهودهم لخدمة النص القرآني المقدس، وحاولوا في كل ما قدموا من تأليف ودراسات الكشف عن وجوه الإعجاز بالبحث عن أسرار التماسك الدلالي والوحدة النصية الدلالية، فعلى الرغم من نزول القرآن منجما وعلى مدى ثلاث وعشرين سنة ثبتت الوحدة النصية بين أجزائه وكيفية تلاحمها، مع الترابطات الموجودة بينها ووظيفة هذه العلاقات داخل النص القرآني<sup>3</sup>. هذه الروابط المختلفة تؤدي إلى التماسك الكلي الذي يشبه مصبا هائلا تلتقي فيه عدة أنهار، وعدة روافد، ومن الخطأ قصر ذلك التماسك الكلي على رابط دون آخر، بل ينبغي النظر إلى تلك الروابط نظرا تكامليا، فإذا ما أهمل أي رابط منها، فإنه يفضي إلى حدوث اختلال في تماسك النص<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> جمعان بن عبد الكريم: إشكالات النص - دراسة لسانية نصية، ط1، النادي الأدبي بالرياض، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، 2009، ص252.  
<sup>2</sup> هناء محمود إسماعيل: النحو القرآني في ضوء لسانيات النص، ص185.  
<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص197.  
<sup>4</sup> جمعان بن عبد الكريم: إشكالات النص، ص249.



## مظاهر الاتساق في النص القرآني:

### 1 - الاتساق الدلالي:

– الإحالة **Référence** : يحدد "روبرت دي بوجرند" معنى الإحالة بقوله إنها: "العلاقة بين العبارات والأشياء والأحداث والمواقف في العالم الذي يدل عليه بالعبارات ذات الطابع البدائلي في نص ما"<sup>1</sup>. ويحقق استرجاع المعنى عن طريق الإحالة الاقتصاد في اللغة، إذ تختصر الوحدات الإحالية العناصر المحال إليها وتجنب مستعملها إعادتها، وفي الوقت نفسه تحفظ المحتوى مستمرًا في المخزون الفعال دون الحاجة للتصريح به مرة أخرى، ومن ثم تتحقق الاستمرارية<sup>2</sup>، حيث تتماسك الوحدات النصية ويدفع بعضها نحو الأمام في تحقيق أكبر ومتواصل للمعنى الذي يسعى الخطاب إلى بثه بطريقة منظمة ومرتبطة في النص الذي يتبع الترتيب الذهني للتلقي.

توسع مفهوم الإحالة ليشمل قضايا ذات صلة بفلسفة اللغة والنقد ولسانيات النص، حيث أضحت الإحالة "ملازمة لكل فعل كلامي بغض النظر عن طبيعة الأشياء، أو الأمور التي تحيل إليها، وعن موضوعية الإحالة وتطابقها مع حقيقة المرجع أو الواقع، وهي ليست منوطة فقط بصيغ العبارة الاسمية في الجملة بل تتعلق بكل أركان الجملة"<sup>3</sup>، فحتى وإن كانت الإحالة هي إحالة على ركن واحد يكون عادة مركبا اسميا - خصوصا حين تكون الإحالة خارج نصية - إلا أن الفعل الإحالي متعلق بكل وحدات النص التي تصبح أمام التفاعل - الذي يتم بالتلقي - كتلة نصية متلاحمة - متماسكة لا تعبر إلا في كليتها.

إن أغلب اللغويين يرون أن المبهمات لا تملك دلالة في ذاتها إنما في ارتباطها بعناصر الجملة السابقة عليها واللاحقة بها. فالإحالة عبارة عن ألفاظ ترد في نص لغوي لا معنى لها في ذاتها ولا تفهم إلا بواسطة علاقتها بألفاظ أخرى داخل النص، أو بعلاقتها بالواقع الخارجي من سياق خاص أو معارف

<sup>1</sup> روبرت دي بوجرند : النص والخطاب والإجراء، ص320.

<sup>2</sup> حسام أحمد فرج : نظرية علم النص - رؤية منهجية في بناء النص النثري، ص84.

<sup>3</sup> مريم فارنيسيس: في بناء النص ودلالته (محاوَر الإحالة الكلامية)، ج1، دط، وزارة الثقافة، دمشق، 1998، ص21.

عامة<sup>1</sup>. وهناك من يعتقد أن الإحالة تملك دلالة مستقلة، ولكن فهم تلك الدلالة لا يمكن أن يكتمل إلا باستحضار ما تحيل عليه تلك الألفاظ داخل الوقائع النصية. فهي إرجاع اللفظ للفظ قبله أو بعده. فحين تكون الإحالة على مرجع خارج نصي فهي مقامية، وفي هذه الحالة يكون النص منفتحا على التأويل قابلا وطالبا للقراءة اعتمادا على المدركات الذهنية، والمعرفة الخارج نصية المحكومة بسياق المقام.

وحين يكون هذا الإرجاع داخل النص فالإحالة هنا تكون نصية، علما أن الإحالة النصية، تنقسم إلى إحالة قبلية وإحالة بعدية<sup>2</sup>.

تتوفر كل لغة طبيعية على عناصر تملك خاصية الإحالة، وهي حسب الباحثين الضمائر وأسماء الإشارة وأدوات المقارنة. تعتبر الإحالة علاقة دلالية، ومن ثم لا تخضع لقيود نحوية لكنها تخضع لقيود دلالية وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه<sup>3</sup>، فلا يمكن الاعتداد بضمير غائب مثني يشير إلى إحالة قبلية مفردة، ولا يمكن الاعتداد بإحالة معلوم على مجهول، مادام القصد من اعتماد هذه المظاهر هو بناء تعبير واضح وسليم ومختصر ينص على أهم قاعدة بلاغية أسس لها فن التخاطب وهي التعبير اللغوي السليم والبناء والموجز الذي يدفع عن الأذهان الملل والتكرار المخجل بجمالية التركيب والأداء.

من بين التعبيرات الخيلة المستخدمة كثيرا نذكر: التعبيرات النكرة التي تستعمل في الغالب لتقديم كيانات جديدة في الخطاب في ضوء سياق النص، والاسم العلم، والمترادفات والألفاظ الشارحة، والإحالة سواء كانت متجهة إلى داخل النص أو كانت متجهة إلى خارجه، وهي تحتاج إلى قدر من سياق الموقف لتفهم. إن كل العناصر تمتلك إمكانية الإحالة. ووحده الاستعمال يحدد نوع تلك الإحالة<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> جمعان بن عبد الكريم: إشكالات النص - دراسة لسانية - نصية، ص.ص 347، 348.

<sup>2</sup> محمد خطابي: لسانيات النص، ص 17.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

<sup>4</sup> المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

## أقسام الإحالة:

**1 - إحالة نصية:** وهي الإحالة إلى عنصر لغوي مذكور في النص. ويعتقد "هاليداي" و"رقية حسن" أن هذه الإحالة هي التي تسهم في ربط أجزاء النص مما يفضي إلى تماسك النص، لذلك فقد اعتنيا بها أكثر من الإحالة المقامية. ولهذه الإحالة أنواع مختلفة باعتباريات متعددة من أهمها "موضع العنصر اللغوي المحيل، وموضع العنصر اللغوي المحال عليه، ونوع العنصر اللغوي المحال عليه، فهي بالنظر إلى موضع المحيل والمحال عليه لها نوعان"<sup>1</sup>: إحالة قبلية وإحالة بعدية.

وأما بحسب العنصر اللغوي الذي تحيل إليه فلها نوعان أيضا هما: إحالة معجمية وإحالة تركيبية.

**أ- الإحالة القبليّة:** يشير العنصر الإحالي إلى ما يتقدمه من العناصر المختلفة، وتعد هذه الإحالة من أكثر الإحالات شيوعا في النص اللغوي، ومن أمثلتها: ارسـم شجرة. فيها عصفورة. فـضمير الغيبة يمثل عنصرا إـحاليا يعوض لفظة (شجرة)، ويربط في الوقت نفسه بين الجملتين.

ويعتبر ضمير الغيبة بأشكاله المختلفة من أكثر العناصر الإحالية النصية قدرة على الربط بين

النص، خاصة في الإحالة إلى ما قبل.

**ب- الإحالة البعدية:** وهي روابط إشارية، وتعرّف بكونها: "عناصر لغوية تشير إلى معلومات تالية في داخل سياق القول. ليست لها الوظيفة الفرعية التي تتصف بها الروابط الإحالية، إذ لا تنوب عن لفظ سابق، وترمز إلى دلالة سيميائية بمفردها. ومن الضمائر التي تحيل إلى متأخر في اللغة العربية ضمير الشأن"<sup>2</sup>.

أما الإحالة بحسب العنصر المحال عليه فهي كما يلي:

<sup>1</sup> جمعان عبد الكريم: إشكالات النص - دراسة لسانية نصية، ص350.  
<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص351.

أ- **إحالة معجمية:** تحيل إلى ألفاظ مفردة في النص. وهي الإحالة الأكثر شيوعاً، حيث يقوم العنصر المحيل بالربط بين أجزاء الكلام عن طريق تعويض اللفظة المفردة بما يشير إليها في داخل النص أو خارجه<sup>1</sup>.

ب- **إحالة تركيبية:** هي إحالة تشير إلى أكثر من لفظ في النص، أي أنها قد تشير إلى جملة أو إلى أكثر من جملة، ويسميتها بعض الباحثين إحالة نصية، وقد عدل البحث عن هذه التسمية، لأنها قد تشير إلى جملة واحدة هذا من جهة، ومن جهة أخرى خوف التباسها بالإحالة النصية فسميت بالإحالة المقامية. ثم إن الإحالة التركيبية قد تشير إلى أكثر من لفظ خارج النص<sup>2</sup>.

إن العنصر الإحالي المعجمي يتواتر استعماله في النص الواحد في سياقات متعددة وفي مستويات مختلفة منه، مما ينتج عنه تعقيد في الوحدة الإحالية التي تشكلها العناصر الإحالية العائدة إلى المفسر الواحد، لذلك فالإحالة المعجمية أكثر تعقيداً في بنيتها من الإحالة التركيبية، لأن الإحالة التركيبية يؤتى بها لغاية الاختصار في اللفظ، وهي محدودة التواتر، لذلك فالبنية الإحالية فيها بسيطة<sup>3</sup>.

ب- **الإحالة المقامية:** ويسميتها "روبرت دي بوجرند" الإحالة لغير مذكور، وحسب رأيه فـ"الكنايات تعود في الإحالة لغير مذكور إلى أمور تستنبط من الموقف، فإذا كان معنى مفهوم ما هو موقعه في عالم النص فإن معنى المرجع في الإحالة لغير مذكور هو مكانه في عالم النص مع التركيز على معنى الموقف الاتصالي"<sup>4</sup>. وهي الإحالة التي تكون إلى خارج النص، ويمكن فهم مرجعها من خلال سياق الموقف.

من أبرز العناصر الإحالية التي تشير إلى خارج النص: ضمير المتكلم، وضمير المخاطب، والاسم العلم، أما ضمير المتكلم فيعود غالباً على المرسل، ويتعلق ضمير المخاطب بالمستقبل، في حين يعود الاسم

<sup>1</sup> جمعان عبد الكريم: إشكالات النص - دراسة لسانية نصية، ص 352

<sup>2</sup> المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

<sup>4</sup> روبرت دي بوجرند: النص والخطاب والاجراء، ص 332.

العلم إلى المخاطب أو إلى مرجع إحالي آخر يفهم من السياق، أما العناصر الإشارية فقد تشير إلى المقام وقد تشير إلى داخل النص<sup>1</sup>.

وفي الخطاب المعادين من النص القرآني كثيرا ما ترد الإحالة، فهي من عناصر الاتساق الأكثر بروزا وظهورا استدعاها سياق النص والمقام، سواء كانت الإحالة نصية أو مقامية، لاسيما أمام ارتباط النص القرآني بوحده الكلية. إنه خطاب تام بالنظر إلى كل الوحدات المكونة له، واكتمال دلالاته ومعناه مرتبط بتمام صورته الكلية فتكامل المعنى لا يتم إلا بتضمن معاني السور الأخرى ليتحقق الإدراك الكلي.

ومن مظاهر الإحالة النصية الواردة في الخطاب القرآني بالنظر إلى بعض الأمثلة المستقاة من جزء "تبارك" وجزء "عم" قوله تعالى:

"وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11)".

حيث يحيل ضمير المخاطب الجمعي "كم" إحالة مباشرة على الذكر والأنثى، فالإحالة هنا قبلية، تعود على المتحدث عنه السابق الوارد في الآية السابقة، أي الإنسان عموما. ويندرج هذا النوع من الإحالة في الإحالة التركيبية، حيث يعود ضمير المخاطب على مركب اسمي يحتوي على لفظتين: الذكر والأنثى.

ثم تتكرر الإحالة ذاتها مع الاسم الموصول "من" مرتين في سياق واحد، والإحالة واضحة تعود على "الذكر والأنثى" اختزالا للقول، وتأكيدا للفعل، وتثبيتا للفهم، اعتبارا من أن هذا المخلوق الذي هو "الذكر والأنثى" الذي يحاط بالخطاب في كل مرة هو بين ضريبين من الفعل: إما التقوى المقيدة بحب العطاء، وإما التكذيب المقيد بالبخل، ليكون بذلك بين أن يُيسر لليسرى فيوفى في أعماله ودينه وأخرته،

<sup>1</sup> جمعان عبد الكريم: إشكالات النص - دراسة لسانية نصية، ص 349.

وبين أن يُيسر للعسرى فتغلق في وجهه سبل الفلاح والرشاد والرعاية. والإحالة النصية تقوم بدور فعال في اتساق النص ولهذا يتخذها المؤلفان "هاليداي ورقية حسن" معيارا للإحالة الحقيقية<sup>1</sup>.

نجد النمط ذاته من الإحالة القبليّة في سورة "الشمس" حيث كانت الإحالة في كل مرة قبليّة، وكان ضمير الإحالة هو الهاء الضمير المتصل الذي يعود دائما على المتحدث عنه السابق له في الآية التي تسبق القول التالي. ورغم طابع الفاصلة الذي يحقق بدوره نوعا من السبك الصوتي فإن الضمير المؤنث يعود في كل مرة على المقسم به في الآية وهي على التوالي: الشمس، والقمر، والنهار، والليل، والسماء، والأرض، والنفوس دون أن تحمل عبأ الذكر المتكرر الذي يستغني عنه سياق القول. مع التأكيد أن هذه الإحالة إنما هي إحالة معجمية، وهي أكثر ما يرد من الإحالة القبليّة في النص القرآني في جزئي "تبارك" و"عم".

أما الإحالة النصية البعدية فوجودها نادر في الخطاب عموما وفي الخطاب القرآني خصوصا. ومن هذه الملامح النادرة المستقاة قوله تعالى في سورة الطارق: "إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوَيْدًا (17)" فالضمير المتصل "هم" الوارد في مستهل الآية الخامسة عشر "إنهم" يعود على الكافرين المصرح به في الآية الأخيرة من السورة "فمهمل الكافرين".

هناك بعض الأمثلة يرد الضمير مسبقا ثم يتبع بالمصرح به مثل قوله تعالى: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1)"، حيث استبق بضمير الشأن "هو" ثم أوتي بالمصرح به الذي هو لفظ الجلالة "الله".

ومن النماذج أيضا قوله تعالى في مستهل سورة "الملك": "تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَسْأَلُكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (2)". يحيل "الذي" في هذا المقام على "من بيده الملك، من خلق السماوات والأرض، العزيز الغفور" وهذه

<sup>1</sup> محمد خطابي: لسانيات النص، ص.ص 17، 18.

المبتدآت الغامضة هي تعويضات وُجدت من أجل ترابط الأحداث، ولا تستعمل أكثر مما تقتضي الحاجة استعمالها<sup>1</sup>. بمعنى أن الاستزادة فيها تفضي إلى تشويه التعبير وقد توقعه في خلل تعبيرى، لأن مثل هذه المبهمات لها مواضع محدودة وأغراض محددة، وضعتها القاعدة النحوية والبلاغية مسبقا.

هناك من يقول بوجود إحالة بعدية في هذا المقام، لكن لا نؤيد هذا الرأي، ففي الإحالة يستوجب أن يكون بين المحيل والمحال عليه مسافة زمنية تستحضر من خلال خطاب يفصل بين الركنين، وهذا ما يعدم في الأمثلة السابقة، كما أن المبهمات يمكن تعويضها بأركان خطابية، فيثقل التعبير بسبب التكرار غير اللازم لكن في الأمثلة السابقة نلاحظ استحالة إقصاء المبهمات "هو"، و"الذي".

أما الإحالة المقامية فلها وجود مكثف استدعاه نمط الخطاب القرآني الذي يستحضر المقام في كل لحظة، بناء على نمط التخاطب الذي يستتبع الإدراك البديهي لأغلب المعطيات التي لا تتبدل. والسورة القرآنية الواحدة مرتبطة ببقية السور، والقرآن مرتبط بالسنة يكمل بعضه بعضا، ومرتبطة بسياق النزول، فتفسير القرآن يستوجب الإحاطة بسبب النزول لتفهم المبهمات خصوصا التي تكون في الغالب الأعم إحالة مقامية ولنا في الأمثلة الآتية النموذج الأمثل:

يقول تعالى في سورة "القلم": "مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ (6) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8)".

حيث يرجع خطاب "الأنثى" و"كاف" الخطاب في هذه الآيات على الرسول - عليه الصلاة والسلام.

وفي قوله تعالى: "ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا

<sup>1</sup> روبرت دي بوجرنند: النص والخطاب والإجراء، ص334.

(13) وَمَهَّدَتْ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأْرَهْقُهُ صَعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنِ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25)". القلم.

تحيل تاء المتكلم على المتكلم الذي هو الله - جل شأنه - في حين يعود ضمير الغائب "الهاء" في "جعلت له"، و"مهدت له"، و"إنه"، و"سأرهقه" على ذاك الكافر العاصي الجاحد "الوليد بن المغيرة" الذي أنكر نبوة الرسول الكريم وضره بالسحر.

يقر "هاليداي ورقية حسن" أن الإحالة المقامية تساهم في خلق النص، لكونها تربط اللغة بسياق المقام، إلا أنها لا تساهم في اتساقه بشكل مباشر<sup>1</sup> شأن الإحالة النصية.

وفي قوله تعالى: "عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى (3)". فيعود ضمير الغائب "الهاء" في "جاءه" على الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - في حين يعود الضمير الغائب نفسه "الهاء" في "لعله" - وهي إحالة قبلية - على الأعمى الملقب بـ"ابن أم مكتوم" الذي جاء الرسول - عليه الصلاة والسلام - يسأل عن أمور دينه ولم يدر أن النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - كان مشغولاً، فلما أعرض عنه الرسول الكريم وأشاح بوجهه عنه نزلت آية اللوم هذه<sup>2</sup>.

فالإحالة المقامية في النص القرآني واستنادا إلى قراءة الجزأين المتعامل معهما، كثيرا ما ترد مرتبطة بالإحالة على مركب أساسي في الخطاب القرآني بصفة حاضرة أو غائبة، أي ترد مرتبطة بذكر "الله" - جل شأنه - وبقدر ما يرد في الخطاب ذكر الخالق باسمه الأعظم أو بأسمائه الحسنی وصفاته العلی نجد له ذكرا منظويا يحيل عليه من خلال المبهمات وخصوصا الضمائر "أنا، إنا، لنا، هو، الذي، نحن" وغيرها. كما نجد

<sup>1</sup> هاليداي ورقية حسن: cohesion in English ، ص1. نقلا عن محمد خطابي: لسانيات النص - مدخل إلى انسجام الخطاب، ص37.  
<sup>2</sup> وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج30، ص61.



إحالة غالبية على المتلقي الأول الذي هو الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام - دون أن يذكر بصريح اسمه أو كنيته "إنك، لك، أعطيناك"، كما نجد إحالة على المتلقي لكن بدرجة أقل، سواء كان القصد بالإحالة المؤمن أو الكافر أو زمرة من هؤلاء وهؤلاء.

الإحالة المقامية مهمة جدا في الحدث قولي، لأنها تعتبر العنصر الرابط بين السياق والنص، فتكتمل بذلك بعض الجوانب الناقصة في نصية النص والتي لا يمكن فهمها إلا بواسطة التداول<sup>1</sup>، وبهذا فلا يجب التقليل بأي حال من أهمية الإحالة المقامية في تماسك النص.

## 2 - الاتساق التركيبي:

أ- الربط: الربط من أهم أدوات الانسجام. فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتجسد ظاهرة الانسجام دون وجود مثل هذه الروابط المنطقية لاسيما عندما يكون النص المستقراً طويلاً، إذ يمكن الاستغناء عنها في بعض المواقع ومع بعض النصوص كالإشهارية مثلاً، لكن لا يمكن الاستغناء عنها في غيرها من النصوص. وكما يمكن اعتبار عدم وجود أدوات الربط مظهراً من مظاهر الاتساق باعتباره أقوى مظاهر الربط، كذلك يعد وجود أدوات الربط في مواقع منها مظهراً مهماً من مظاهر الربط حسب السياق النصي والمقامي المتحكم في الإنتاجية. أما الروابط فهي وسائل لغوية تعمل على انتظام العناصر المكونة لعالم النص، وتنظم عناصر الخطاب<sup>2</sup>.

يعتبر كتاب Text and context "النص والسياق" لصاحبه "فان دايك" أهم الكتب التي تناولت ظاهرة الربط المنطقي وميزت بين أشكالها وأصنافها وأتماطها واستعمالاتها. وإن كانت النظرية البلاغية العربية قد أسهمت بقدر واف وكاف في تناولها هذه الظاهرة. وفي هذا الصدد يرى "فان دايك" أن العلاقات بين القضايا والأحداث يعبر عنها على نحو خاص بواسطة مجموعة من العبارات من مختلف

<sup>1</sup> جمعان عبد الكريم: إشكالات النص - دراسة لسانية نصية، ص 350.  
<sup>2</sup> فايز الكومي: تحليل البنية النصية من منظور علم لغة النص، ص 221.

أنواع التراكيب مما يمكن أن نطلق عليه اسم الروابط، وتنتمي إلى هذه المجموعة روابط أصلها راجع إلى تركيب أنواع الوصل التثريكي (العطف) سواء منها المنسوقة أو الدالة على الفرعي من الجمل<sup>1</sup>. والربط "قد يدل عليه بواسطة ضروب الحمل من مختلف مقولاته وأبوابه كالأسماء والأفعال والصفات كما يعبر عنه بالجمل الأصلية والفرعية"<sup>2</sup>. إن أدوات الربط الطبيعية لها دلالة مقصودة، فهي لا تربط قيم الصدق بل القضايا وقيم القضايا في العوالم الممكنة، كما تقتضي أدوات الربط الطبيعية حسب "فان دايك" أن الجمل الفرعية والرئيسية تعبر عن ارتباط القضايا ارتباطاً قصدياً<sup>3</sup>.

أقرت البلاغة العربية قديماً مع رائدها "عبد القاهر الجرجاني" أن مدار البلاغة هو معرفة الفصل من الوصل. فللوصل أهمية كبيرة في تحقيق الانسجام وربط شحمة الخطاب بعضه مع بعض. يقول "عبد القاهر الجرجاني" في مبحث "الفصل والوصل": "اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة... وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حداً للبلاغة فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال: معرفة الفصل من الوصل. ذلك لغموضه ودقة مسلكه وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة"<sup>4</sup>، فالبلاغة - أي التحسيد الأسمى للمستوى الأدائي البلاغي والشاعري للغة - يتجسد في معرفة مواقع الفصل من الوصل، والأسرار التي ينطوي عليها هذا الاستعمال الأدائي للغة.

صنف "محمد خطابي" الوصل باعتباره مظهراً اتساقياً في المرتبة الخامسة بعد الإحالة النصية والإحالة المقامية والاستبدال والحذف. وإذا كان هذا التصنيف يقصد إلى الترتيب الأولوي، فإننا لن نؤيد الموقف، لأن الوصل مظهر مهم من مظاهر الاتساق النصي المهمة، ولا يمكن تصور نص خال من الوصل،

<sup>1</sup> فان دايك : النص والسياق، ص.ص 82-83.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص.83.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص.132.

<sup>4</sup> عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 215.

بل إنه من أكثر ما يرد وجوده في النص العربي عموماً، ولا يمكن أن تحفل النظرية النصية العربية هذا الاحتفال الباهر بالوصل لو لم يكن من أهم أدوات الاتساق التي تفعل الربط للبنى النصية والخطابية، وتجمع شحمة النص، وتعبّر عن مقاصد تفهم من خلال أدوات الربط، حيث الاختلاف بين أداة وأداة يعني الاختلاف في المعنى، ودوماً المبنى اللغوي تابع للمعنى الخطابي.

إن الوصل مختلف عن كل أنواع علاقات الاتساق السابقة، وذلك لأنه لا يتضمن إشارة موجهة نحو البحث عن المفترض فيما تقدم أو فيما سيلحق كما هو شأن الإحالة والاستبدال والحذف<sup>1</sup>، لكن لا يعني ذلك التقليل من وجوده وأهميته القصوى في ربط شحمة الخطاب، إذ يكفي أنه "تحديد للطريقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق بشكل منظم"<sup>2</sup>. معنى هذا أن النص عبارة عن جمل أو متتاليات متعاقبة خطياً، ولكي تُدرك كوحدة متماسكة تحتاج إلى عناصر رابطة متنوعة تصل بين أجزاء النص، وهذه الروابط كما أسلفنا لها وجودها في بناء الدلالة والمقصد.

وحسب "الأزهر زناد" "يتوفر في كل نص قاعدة ضرورية هي قاعدة الربط، إذا توفر في أي نص جملتان أو أكثر ارتبطت الواحدة منهما بالأخرى ارتباطاً بأداة أو بغير أداة"<sup>3</sup>.

ترى النظرية اللسانية النصية أن الوصل مختلف عن كل أنواع علاقات الاتساق السابقة، وذلك لأنه لا يتضمن إشارة موجهة نحو البحث عن المفترض فيما تقدم أو ما سيلحق كما هو شأن الإحالة والاستبدال والحذف<sup>4</sup>، إذ هو تحديد للطريقة التي يترابط بها السابق مع اللاحق بطريقة منظمة تجعل النص منسجماً منظماً يشكل لحمه واحدة مترابطة يفهم تتابع الدلالات وتوارد المعاني في سيرورة نصية ثابتة رغم تباين الموضوعات وتنوعها واختلافها. والربط يجعل من النص نصاً واحداً ورغم اختلاف الموضوعات إلا أن

<sup>1</sup> محمد خطابي: لسانيات النص، ص22.

<sup>2</sup> هاليداي ورقية حسن: cohesion in English ، ص1. نقلاً عن محمد خطابي: لسانيات النص - مدخل إلى انسجام الخطاب، ص23.

<sup>3</sup> الأزهر زناد: نسيج النص، ص 28.

<sup>4</sup> محمد خطابي: لسانيات النص، ص22.

الموضوع العمدة يظل موضوعا واحدا تنضوي تحت لوائه بقية الموضوعات التي تشكل بنيات صغرى. والنص عبارة عن جمل أو متتاليات متعاقبة خطيا ولكي تدرك كوحدة متماسكة تحتاج إلى عناصر رابطة متنوعة تصل أجزاء النص.

إن الربط يدفع بحركة القول إلى الأمام دائما، حتى وإن كان لبعض أقسام الربط ما يعود إلى الوراء، إلا أن العودة إلى الوراء في كل مرة هي رغبة في بعث حياة جديدة للمظاهر المتوالية واللاحقة. ولكن دور الربط لا يتأتى فقط في شد شحمة السابق باللاحق، بل إنه يجسد كذلك السيورة الدلالية في أكبر مظاهرها وأعمقها.

والوصل في القرآن الكريم هو ربط لشحمة النص، ووصل لفعل الخطاب، له أهمية كبيرة حيث يختلف وجود رابط في كل موقع عن الموقع الآخر في التأدية الكلامية.

ومن النماذج التوضيحية المستقاة في هذا الصدد قوله تعالى: "إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (1) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (4) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (5)".

#### الانشقاق/ الآية 1 . 5

إن العطف علاقة توسيع في الفقرة، وتمديد في النص، وهو في الوقت ذاته وسيلة من وسائل الاقتصاد النصي، فهو من جهة يسمح للفقرة بالاتساع، أي أنه يسمح لها بأن تكون علاقة جديدة: جملة أو عبارة أو مفردة، بحيث يلتفت إلى ارتباطه بالعناصر السابقة. وهو من جهة أخرى وبالنظر إلى شكله وبنائه هو مجرد أداة قصد بها صاحب النص العطف، فيفهم المتلقي من خلال هذه الأداة أن المرسل يقصد إلى اشتراك التركيب الحالي مع سابقه في الحكم، لكنه من هذه الجهة يحقق الاقتصاد<sup>1</sup>.

حسب "فان دايك" يقع التباس وغموض في بعض الروابط كما هو الشأن مع "الواو" الذي ينبعته بالربط التشريكي، ذلك أن رابطا واحدا بعينه يجوز أن يعبر عن مختلف أنواع الربط، وأن نوعا واحدا من

<sup>1</sup> عمر محمد أبو خرمة: نحو النص - نقد النظرية وبناء أخرى، ط1، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، 2004، ص184.

الربط يمكن أن يعبر عنه بروابط مختلفة، فالواو تحمل معنى (المكان)، وتفيد معنى إذن، وتفيد معنى وعلى ذلك وهكذا، وتحمل معنى إذا كان فيأذن<sup>1</sup>. وإن كان للواو في هذا المقام دورا في ترتيب الكلم، وتنظيمه، وترتيب الحدث.

يقول تعالى في نظم شبيه بهذا النظم اعتمادا على الرابط الواو: "إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (14)" التكوير.

إن الرابط الطبيعي "الواو" يكون ربطه صادقا لجملتين متتابعتين (أ وب) "إذا فقط إذا كان الموصولان (القضيتان المتعاطفتان) كلاهما صادقين أو بوجه عام مستوفيين للشروط في حال عالم متحقق"<sup>2</sup>، ومن البديهي أن حديث - الله جل وعلا- صادق فيما يقول ويجبر به. واستعمال التعبيرات العطفية "يشير إلى الارتباطات الواقعة بين الحوادث والمواقف"<sup>3</sup>.

لا يقوم الوصل على "الواو" فحسب وإن كان الرابط الأكثر استعمالا ووجودا في الخطاب العربي على الأقل، فلكل أدوات الربط وجودا مهما وتميزا واضحا ودورا لا يحيد عنه الاستخدام اللغوي في وصل الجمل والعبارات.

ومن النماذج المستقاة في هذا الصدد قوله تعالى: "فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11) وَيَصَلِّي سَعِيرًا (12)". الحاققة/ الآية 7، 12.

<sup>1</sup> فان دايك: النص والسياق، ص90.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص. ص 96، 97.

<sup>3</sup> حسام أحمد فرخ: نظرية علم النص، ص94.

ويقول المولى في موضع آخر من سورة أخرى: "كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِنَا لَمَحْجُوبُونَ (15) ثُمَّ

إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (16) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (17)". المطففين/ الآية 15، 17.

ثم يقول في السورة ذاتها في موضع موالي: "وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ

انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (32) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33) فَالْيَوْمَ

الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34)". المطففين/ الآية 30، 34.

"إن المهمة الأساسية للروابط هو التعبير عن العلاقات بين الأحداث"<sup>1</sup>. ولا يصنع العلاقات بين

الكلمات والجمل وإنما يصنعها بين الأحداث المتحققة في الواقع الذي يعبر عنه الخطاب.

وقع الربط بين البنيات في هذه الآيات الكريمات بواسطة الواو والفاء وثم وإذا. وكل أداة تحقق

وجودها وحياتها داخل النص، واستُخدمت بحسب متطلبات السياق النصي. فأدوات الوصل تربط بين

الشيئين اللذين لهما نفس الحالة (المكانة)، فكلاهما صحيح (موجود) في عالم النص، وهي علاقة إضافة

سابق للاحق تربط صورتين أو أكثر من صور المعلومات بالجمع بينهما، إذ تكونان متحدتين من حيث

البيئة أو متشابهتين<sup>2</sup>.

يحدد "الجرجاني" الاستخدامات الدقيقة لهذه الأدوات وأدوارها داخل حياة النص بقوله: "الفاء

توجب الترتيب من غير تراخ، و"ثم" توجهه مع تراخ و"أو" تردّد الفعل بين شيئين وتجعله لأحدهما لا بعينه،

فإذا عطفت بواحد منها الجملة على الجملة ظهرت الفائدة، فإذا قلت: أعطاني فشكرته، ظهر بالفاء أن

الشكر كان معقبا على العطاء ومسببا عنه. وإذا قلت خرجت ثم خرج زيد. أفادت "ثم" أن خروجه كان

<sup>1</sup> فان دايك: النص والسياق، ص103.

<sup>2</sup> حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، ص95.

بعد خروجك، وأن مهلة وقعت بينهما. وإذا قلت يعطيك أو يكسوك، دلت "أو" على أنه يفعل واحدا منهما لا بعينه<sup>1</sup>.

أما "السكاكي" فيقول: "اعلم أن تمييز موضع العطف عن غير موضعه في الجمل كنعو أن تذكر معطوفا بعضها على بعض تارة، ومتروكا العطف بينها تارة أخرى، هو الأصل في هذا الفن، وإنه نوعان: نوع يقرب تعاطيه ونوع يبعد ذلك فيه. فالقريب هو أن تقصد العطف بينها بغير الواو، أو بالواو بينها، لكن بشرط أن يكون للمعطوف عليها محل من الإعراب. والبعيد هو أن تقصد العطف بينها بالواو، وليس للمعطوف عليها محل إعرابي. والسبب في أن قرب القريب وبعد البعيد هو أن العطف في باب البلاغة يعتمد معرفة أصول ثلاثة"<sup>2</sup>، ويحدد "السكاكي" هذه الأصول الثلاثة فيقول: "أحدها: الموضع الصالح له من حيث الوضع، وثانيها: فائدته، وثالثها: وجه كونه مقبولا لا مردودا. وأنت إذا أتقنت معاني الغاء ثم وحتى ولا وبل ولكن وأو وأم وأما وأي على قولي حصلت لك الثلاث لدلالة كل منها على معنى محصل مستدع من الجمل، بينا مخصوصا مشتملا على فائدته وكونه مقبولا هناك"<sup>3</sup>.

وهذا ما نلاحظه في الآيات الكريمة "فسوف يحاسب حسابا يسيرا.. فسوف يدعو ثورا"، حيث كان التراخي فكان الحساب بالنعيم أو بالجحيم تابعا للطريقة التي سوف يأتي بها كتابه، فإن كان من أهل اليمين كان حسابه يسيرا، أما إن كان من أهل الشمال فسوف يكون حسابه عسيرا.

لا يخلو النص القرآني من الربط في كل جزئياته، ربط بين البنى على مستوى البنية السطحية. تمثل أنواع هذه الضرورات "مسلمات أساسية لعالمنا من جهة كونها تصلح في أي موضع من الأحداث الممكنة المتفككة مع مجاري الأحداث المتحققة"<sup>4</sup>، وقد نجد نصا طويلا لا تحكمه أداة ربط وإنما يتربط بالفصل، كما

<sup>1</sup> عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص.ص 216، 217.

<sup>2</sup> السكاكي: مفتاح العلوم، ص 249.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

<sup>4</sup> فان دايك : النص والسياق، ص.ص 108، 109.

يقول "روبرت دي بوجرند": العلاقات المختلفة بين صور المعلومات يمكن في الغالب أن تقع دون التصريح بوسيلة الربط، ذلك بأن للناس طرقاً تنبؤية لتنظيم المعلومات<sup>1</sup>. وهذا ما قصده "الجرجاني" بقوله "معرفة الفصل من الوصل"، إذ ليس كل تركيب وامتتالية جمالية تستدعي رابطاً، فقد يكون الرابط عدم وجود رابط، وقد يحدث الوصل بالفصل، أي ذلك الفراغ أو التتابع النسقي، أو رد المعلومة التالية إلى السابقة. والفصل حسب "السكاكي": "ترك العاطف وذكره على هذه الجهات وكذا طي الجمل عن البين ولا طيها، وإنما لمحكّ البلاغة"<sup>2</sup>.

إن الربط فضلاً عن دوره الذي يتحدد بترتيب مواقع المقاصد له أهمية في تحقيق سبك النص، ولا يمكن الحديث عن نص تام، كامل له معنى ووظيفة تواصل دون أن نعطي أهمية قصوى للربط سواء الوصل بأدواته المختلفة، أو عن طريق الفصل الذي قد يحدد بدوره تماسك النص وحسن سبكه.

#### ب - الاستبدال والحذف:

تعد روابط الاستبدال والحذف من الروابط المهمة التي ذكرها "هاليداي" و"رقية حسن"، وكانت هذه الروابط مستقلة عن بعضها البعض بادئ الأمر، ثم جعلهما "هاليداي" و"رقية حسن" فئة واحدة تحت مسمى الاستبدال والحذف. ذلك لأن الحذف والاستبدال حسب رأيهما لا فرق بينهما فلا يعدو أن يكون الحذف استبدالاً بالصفير<sup>3</sup>. غير أن الدرس اللغوي والبلاغي العربي يميز الحذف بأن يجعله مساحة معدومة تفهم من خلال مبدأ التأويل المحلي الذي يستشف البياضات، والشأن نفسه مع المقاربة الأسلوبية التي ترى في البنية التركيبية أن الحذف ملمح أسلوبية له أهمية تجعله يعبر في وجوده الصفير دون أن يعوضه

<sup>1</sup> روبرت دي بوجرند : النص والخطاب والإجراء، ص 347.

<sup>2</sup> السكاكي: مفتاح العلوم، ص 249

<sup>3</sup> هاليداي ورقية حسن: cohesion in English، ص 145. نقلاً عن: جمعان عبد الكريم: إشكالات النص - دراسة لسانية نصية، ص 354.



أي مركب مهما كانت صفته. أما الاستبدال فهو استبدال عنصر بعنصر يكافئه في خاصية من الخواص، وإن كان الاستبدال في هذا المقام يقصد به استبدال لفظ بلفظ يحقق دلالاته بشكل تام.

#### أ- الاستبدال:

الاستبدال هو أحد عناصر السبك بين أجزاء النص الواحد، وهو عبارة عن "تعويض عنصر في النص بعنصر آخر"<sup>1</sup>. "والشيء يبدل مما هو مثله أو أكثر منه"<sup>2</sup> وعادة ما يكون العنصر المستبدل سابقا عن العنصر المستبدل منه، وينقسم الاستبدال إلى ثلاثة أقسام:

- استبدال اسمي: ويتم باستعمال عناصر مثل: آخر، آخرين، نفس. إلخ.

مثال: الكتاب الذي أعترته لي قطعة من ألم.. هلاً أعترني آخر.

- استبدال فعلي: ويمثله استعمال الفعل. مثال . يحج المسلم أرض الله الحرام عبادة وطاعة وتبركا، وكل مسلمي العالم يقومون بذلك.

- استبدال قولي: ويستعمل فيه أدوات مثل: كذلك، أيضا، لا، نعم، أجل، شرحه. حيث تعوض تلك المفردات عن جملة أو جمل كاملة<sup>3</sup>. مثال: صمت عرفة ليغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، وكذلك فعلت عائلتي كلها.

وفي القرآن الكريم نماذج معتبرة من الاستبدال، لا يهيمن وجوده على النص القرآني، لكن لا يعدم

ذكره في سياقات محددة. ومن الأمثلة على ذلك: قوله تعالى: "كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ

كَانُوا يَعْلَمُونَ (33)" الحاققة/ الآية 33.

<sup>1</sup> هاليداي ورقية حسن: cohesion in English، ص 145. نقلا عن: جمعان عبد الكريم: إشكالات النص - دراسة لسانية نصية، ص 354.

<sup>2</sup> عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 149.

<sup>3</sup> جمعان عبد الكريم: إشكالات النص - دراسة لسانية نصية، ص 354.

حيث استبدل بلفظة "كذلك" جملة تعبر عن قوله الضمني أنه هذا هو العذاب في الحياة الدنيا،

فاختزلت واختصرت لفظه "كذلك" تعبيرا بحجم مفهوم واسع يفهم من خلال تفسير الآية كلها.

ويقول المولى - تبارك وتعالى - في موطن آخر: "أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُنْعِيهِمُ الْآخِرِينَ

(17) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18) وَإِنَّا يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (19)". المرسلات/ الآية 16، 18.

استبدل في هذا المقام الإهلاك بلفظة "كذلك"، تجنباً للتكرار، وتحقيقاً للاختزال والاختصار.

ناهيك عما يتحقق من نعمة إيقاعية وجمالية تطرب النفوس أمام التلقي المميز بإيقاعية ناتجة عن الانسجام

الواقع بين الأصوات فيما بينها، والكلمات وكيف أختيرت بدقة متناهية.

يلاحظ على الآية الكريمة من سورة الملك في قوله تعالى: "تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا

فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ

إِن أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (9)". الملك/ الآية 8، 9.

استعمال أداة للاستبدال وهي: "بلى" التي يمكنها أن تعوض - في العادة - الجملة السابقة عليها، لكن

في هذه الآية وردت أداة الاستبدال "بلى" ثم تبعها الجملة الشارحة التي ما كان المعنى ليختل أو يشوش

على الأذهان دون ذكرها، لكن الذكر في هذا المقام بالذات كان من أجل تأكيد القول خاصة، وأن

السياق الذي ورد فيه يستدعي ذلك، حيث المتكلم الذي هم الكفار يؤكدون بكل الأدوات التعبيرية أنهم

كانوا مخطئين وما رهم بظلام لهم.

فالاستبدال معناه قريب من الحذف، وهو بهذا المفهوم أقرب منه إلى التكرار المعنوي، فالعبارة الأصل

موجودة في الخطاب القبلي، ونستخدم ملفوظا معوضا على أن يتحقق المعنى وكأن اللفظة المستبدلة موجودة

في النص. وللاستبدال قيمة في تحقيق التماسك النصي.

## ب - الحذف:

الحذف يعني الاكتفاء بالمعنى العدمي حسب "روبرت دي بوجرنند"، فالبنىات السطحية في النصوص غير مكتملة غالبا بعكس ما قد يبدو في تقدير الناظر، لأن البنيات وقع فيها عنصر الحذف بحسب ما يقتضي مبدأ السبك<sup>1</sup>. وللحذف دوره ومكانته وقيمته في علم النص وفي المنهج الأسلوبي وفي النظرية البلاغية العربية القديمة، ولا يخلو منه أي خطاب إنشائي - جمالي يتبغي التميز والتفرد. كما أن له دورا في ربط شحمة النص وأوصاله ليكون مفتاحا يجسد مفهوم الاتساق النصي.

حدد "عبد القاهر الجرجاني" مفهوم الحذف بدقة، يقول في "دلائل الإعجاز": "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتحدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبين"<sup>2</sup>. فللصمت والتجاوز والمساحات البيضاء مقام جميل وجليل في التأدية الكلامية. قد تكون البلاغة في الصمت ولا تكون في الكلام، وقد تصل رسائل عميقة للمتلقي يفهمها بلغة الصمت ولا يفهمها بلغة الكلام.

كما يفسر "تمام حسان" معنى الحذف الذي يعدُّ أساسا للسبك النصي بقوله: "لا ينبغي لنا أن نفهم الحذف على معنى أن عنصرا كان موجودا في الكلام ثم حُذِفَ بعد وجوده، ولكن المعنى الذي يفهم من كلمة الحذف ينبغي أن يكون الفارق بين مقررات النظام اللغوي وبين مطالب السياق الكلامي الاستعمالي"<sup>3</sup>. فلا يجعل الحذف المعنى يحتل، بل على عكس ذلك يكتف وجوده ويؤكد على قوته وقوة التعبير وعمق الدلالة.

<sup>1</sup> روبرت دي بوجرنند: النص والخطاب والإجراء، ص340.

<sup>2</sup> عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص149.

<sup>3</sup> تمام حسان: اللغة العربية - معناها ومبناها، دط، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1994، ص298.

وإذا كان "الحذف ظاهرة لغوية مشتركة بين اللغات الإنسانية، وإن كانت تتفاوت في بروزها بين هذه اللغات"<sup>1</sup> فإن بروزه يتأكد في اللغة العربية بشكل لافت للنظر، والخاصية الجمالية تتبدى في ذلك البياض الذي يتركه، وفي ذلك الجهد الذي يقوم به المتلقي أمام العملية التأويلية، فضلا عن الحس الجمالي الذي يبسطه على الخطاب كله.

أما "هاليداي" و"رقية حسن" فينظران إلى الحذف على أنه استبدال لعنصر معجمي سابق بما يغني عن تكراره، فهو عندهما علاقة قبلية. أما كيفية إسهامه في تدعيم الترابط النصي، فإن الاستبدال يحصل بالتعويض عن العنصر المستبدل بالمستبدل به في إطار العلاقة القبلية بحيث يمكن الحديث عن الاستمرارية (أي وجود العنصر المستبدل، بشكل ما في الجملة اللاحقة، ومعرفة الكيفية التي يسهم بها الحذف تبدو غير واضحة<sup>2</sup>).

"من الممكن تأثير الحذف في الربط بين أجزاء النص في العملية الذهنية الدينامية التي يقوم بها المتلقي لردم فجوة الحذف أي أنه استبدال ذهني، وهنا تتضح أيضا مدى أهمية الجوانب الأخرى المحيطة بالنص في القيام بإكمال فجوات الربط النصي لتتسق عندئذ عملية التماسك الكلي للنص"<sup>3</sup>.

أنواع الحذف عند "هاليداي" و"رقية حسن" مثل أنواع الاستبدال، فهو حذف اسمي وحذف فعلي وحذف شبه جملة. فالحذف بداية لا بد فيه من دليل على المحذوف<sup>4</sup>. والدليل على المحذوف هو الذي يبقى على المعنى المراد وهو الذي يجعل المتلقي يستنتج المحذوف الذي يُستغنى عن ذكره.

وإن ما يقوم به الحذف من تقريب المسافة بين المفردات الظاهرة في سطح النص، والتي كان العنصر المحذوف يفصل بينها، تعكس رغبة الكاتب في إظهارها قريبة لقارئه لهدف ما، ما يؤكد أن

<sup>1</sup> محمد سالم أبو عفرة: السبك في العربية المعاصرة بين المنطوق والمكتوب، ط1، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2010، ص116.

<sup>2</sup> هاليداي ورقية حسن: cohesion in English، نقلا عن: محمدخطابي: لسانيات النص، ص 21.

<sup>3</sup> جمعان عيد الكريم: إشكالات النص - دراسة لسانية نصية، ص356.

<sup>4</sup> المرجع نفسه، ص357.

التشكيلات اللغوية انعكاس مباشر لتشكيلات نفسية<sup>1</sup>. وهذا ما يفعل نجاح الحذف دون حدوث شرح في فهم النص.

إن الكاتب يضيف معنى جديدا لكل عبارة مرتبطة بالجملة المحذوفة، والتي يظل تواجدها الدلالي الفعلي للمعنى قائما، إذ غياب الجملة المحذوفة لا يعني غياب المعنى، والكاتب يعمل على وضع الجمل والتراكيب للجملة المحذوفة في نفس قالب الذي وضعت فيه الجمل غير المحذوفة المرتبطة بها، وبهذا تدور الجملتين (المحذوفة وغير المحذوفة) في إطار واحد وفي موضوع محدد، وبهذا يسهم الحذف في توسيع قاعدة المعنى الرئيسي بذكر كل ما من شأنه أن يرتبط به<sup>2</sup>.

### أقسام الحذف:

1 - حذف مستند تفسيره المقام: كقولك لمن ضرب شقيقك الصغير الذي تعزه جدا مستنكرا فعلته:

"محمد... ضربت محمدا؟".

2 - حذف مستند تفسيره النص: وينقسم قسمين:

أ- حذف مستند تفسيره النص نحويا فقط: أي يقوم تقدير المحذوف بناء على الصناعة النحوية

أو النظرية النحوية باختلاف أنواعها.. وهذا الحذف لا يسهم في ترابط النص بقدر ما يسهم في ترابط القاعدة.

ب- حذف مستند تفسيره النص معجميا ونحويا: أي لا بد من دليل لفظي على المحذوف سواء

أكان سابقا على المحذوف، وهو الأكثر، أو متأخرا عنه وهو أسلوب يرد في اللغة العربية كقول الشاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، ص90.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص93.

<sup>3</sup> جمعان عبد الكريم: إشكالات النص - دراسة لسانية نصية، ص357.

لا تكاد تخلو سورة من القرآن الكريم من ظاهرة الحذف، ولنا في هذه الأمثلة النموذج الموضح:

"وَلَا تُطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَبِيرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14)" القلم/ الآية 10، 14.

يظهر الحذف فقط عندما تشتمل عملية فهم النص على إمكانية إدراك الانقطاع على مستوى

سطح النص<sup>1</sup>. حيث حذف ما يستغني عنه التعبير، وكان في حذفه مزيد تأكيد على التعبير وتقريب

مساحة التأثير، فلم يكن هناك داع لأن يكرر المولى مع كل آية قوله "ولا تطع". ومن جهة ثانية حُذف

اسم المعنى بالتعبير القرآني، والمشهور أن الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، حيث أخرج "ابن جرير عن ابن

عباس" قال: نزلت على النبي - صلى الله عليه وسلم - "وَلَا تُطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَاءٍ

بِنَمِيمٍ (11)" فلم نعرفه، حتى نزل عليه بعد ذلك: "عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13)" فعرفناه له زغمة كزغمة

الشاة "أي الجزء المسترخي من أذنها حين تشق، ويبقى كالجذء المعلق"<sup>2</sup>. وإن كان هذا الحذف لاسم لم

يترك فراغا لأن الحذف اعتمادا بالمبنى العدمي<sup>3</sup> كما يقول "روبرت دي بوجرنند". وعليه يمكن أن يندرج

هذا السلك من التعبير (عدم ذكر اسم الوليد بن المغيرة صراحة) في الاستبدال أكثر منه في مبحث

الحذف.

إن عدم ذكر اسم "الوليد بن المغيرة" هو كراهة له، وإثبات لجرم فعله المشين حيث أشير إليه

بصفات كانت تصقله وتطبع شخصيته الحاقدة الكافرة. ثم إن التلميح باعتماد الكنية يجعل معنى الخطاب

ينظر إليه بعموم لفظه لا بخصوص سبب النزول، وهي دعوة للمتلقي في كل الأزمنة والأمكنة لأن يتجنب

طاعة كل كافر كذاب منان، هماز، مشاء، نميم، فلم يقتصر الخطاب على الوليد بن المغيرة، كما لم يقتصر

الإرسال على زمن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

<sup>1</sup> حسام أحمد فرج: نظرية علم النص - رؤية منهجية في بناء النص النثري، ص 87.

<sup>2</sup> وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج 29، ص 51.

<sup>3</sup> روبرت دي بوجرنند: النص والخطاب والإجراء، ص 34.

ثم نلاحظ نمطا آخر من الحذف في قوله تعالى: "إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (2) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5). نوح/ الآية 1، 4.

فتقدير الكلام دون حذف بالنظر إلى نمط ترتيب الجملة العربية في الأداء هو: "إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ (مأمورا) أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) (ف) قَالَ (لقومه) يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (2) (أنذركم) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4) (لكن قومه عصوا ولم يأتروا ف) قَالَ (نوح) رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا(5)".

إن هذا النوع من الحذف هو نوع من الإيجاز، وهي فرصة للمتلقي كي يستخدم مداركه الذهنية، ويتدبر في قراءته ليفهم تلك المساحة الفارغة اعتمادا على معطيات السياق النصي، وحتى السياق الخارج النصي. فالحذف هنا مثال آخر للتناوب بين الإيجاز وسرعة الإتاحة، والإيغال فيه يتطلب جهدا أكبر لربط نموذج العالم التقديري للنص ببعده بعض في الوقت الذي يقتطع من البنية السطحية بشدة. حيث اقتطاع مقاطع من البنية السطحية هو تعميق لدلالة البنية العميقة<sup>1</sup>.

نرصد حذفًا آخر في آيات من سورة "المزمل" نفهم من خلاله كيف يتفرد النص القرآني بنظم مميز: "إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ... "المزمل". وتقدير الكلام المحذوف هو: "إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ (للصلاة) أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ و (أحيانا تقوم) نِصْفَهُ و(أحيانا تقوم) ثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ (يقومون معك)...".

<sup>1</sup> روبرت دي بوجرند: النص والخطاب والإجراء، ص345.

وإنه ظاهر للعيان أن معاني السورة تتضح حتى بالحذف، ولأن البلاغة في الإيجاز فإن الآيات بالحذف كانت أبلغ وأمتع وأكثر تأثيراً، وفي هذا السياق نستحضر قول عميد البلاغة العربية "عبد القاهر الجرجاني" مرة أخرى مؤكداً هذه الرؤية: "رُبَّ حذف هو قلادة الجيد، وقاعدة التجويد"<sup>1</sup>.

نجد في الخطاب القرآني حذفاً واسعاً، يُفهم اعتماداً على الاستنتاج، وقد يحتاج إلى التأويل النصي والخارج نصي اعتماداً على بقية النص القرآني الذي يشرح بعضه بعضاً ويكمل بعضه بعضاً، ومن هذه النماذج قوله تعالى: "لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4)" القيامة/ الآية 1، 4.

ويفهم المعنى المغيب في السورة تغييراً ظاهرياً بفهم المقصود الذي هو المعنى العميق منه، من خلال ملاءم البياض الذي يتضح جلياً وجوده مباشرة بعد نهاية الآية الثانية ومستهل الآية الثالثة، وصورة هذا الفراغ تشرح معناه الآية الثالثة. والمقصود الضمني من القول هو: "لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2)" (أنا سنعيد الحياة للإنسان يوم القيامة بعد أن يكون عظاماً وسنعيده سيرته الأولى) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4)" القيامة/ الآية 1، 4.

إن "كل ما يعدّ غير موجود يمكن أن يضاف بالاستنتاج"<sup>2</sup>. ومعرفة المرسل والمتلقي للأعراف اللغوية أمر هام - ومن البديهي أن النص القرآني نص عربي، يراعي القاعدة النحوية العربية، فقد أنزل بلفظها وشكلها وصورتها ولغتها - فالمرسل يعتمد الحذف في خطابه وهو يتوقع من المتلقي أن يدرك المحذوف.

<sup>1</sup> عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 152.  
<sup>2</sup> روبرت دي بوجرند: النص والخطاب والإجراء، ص 344.



إن الحذف يضفي عنصر السرعة على القراءة، حيث يتواجد المحذوف مفهوما في الكلام، وإن كان غير موجود لفظا، فيسهل التواجد المفهومي في استمراره كعنصر فاعل دلاليا<sup>1</sup>.

### 3 - الاتساق المعجمي:

تعد الروابط المعجمية من الروابط المهمة التي يحقق بها النص تماسكه، وهي تختلف عن الروابط الشكلية - الدلالية أو الروابط الزمانية أو غير ذلك من الروابط، كالحذف والاستبدال التي عدتها "هاليداي" و"رقية حسن" روابط تتم بواسطة النحو بأدوات، أو بطريقة نحوية - معجمية حذفاً أو استبدالاً، أو بطريقة دلالية كإحالة التي تتم عندهما في مستوى الدلالة. أما الروابط المعجمية فتتم بواسطة المفردات المعجمية التي تكون النص إما متكررة أو متضامة، فهو ربط معجمي ليس غير، ولذلك فقد أطلق على هذه الروابط مصطلح التماسك المعجمي الذي ينقسم إلى قسمين<sup>2</sup>:

أ - التكرار: وهو إعادة العنصر المعجمي نفسه، أو إعادة العنصر المعجمي باستخدام كلمة عامة أو ترادف، أو شبه ترادف، أو بالاسم الشامل. والربط بواسطة التكرار بإعادة الكلمة نفسها أو بأنواعه الأخرى يحصل عندما يحيل اللفظ الثاني المكرر إلى اللفظ الأول مما يحدث نوعاً من الربط بين الجملتين اللتين حدث فيهما التكرار في إطار النص. وهو نوع من الربط البديهي الذي يقوم في حقيقته على مبدأ التشابه أو التماثل حين تلحق التماثلات أو المتشابهات من الأشياء<sup>3</sup>. كما أن إعادة الكلمة أو الكلمات مرة أخرى داخل النص نفسه يمثل دعماً للربط الدلالي<sup>4</sup>.

كما يوظف التكرار من أجل تحقيق العلاقة المتبادلة بين العناصر المكونة للنص، ويشترط لتحقيق هذه الوظيفة أن يكون لهذا العنصر المكرر نسبة ورود عالية في النص تميزه عن نظائره. وأن يساعدنا رصده

<sup>1</sup> حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، ص98.

<sup>2</sup> جمعان عبد الكريم: إشكالات النص - دراسة لسانية نصية، ص359.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

<sup>4</sup> حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، ص106.

على فك شفرة النص وإدراك كيفية أدائه لدلالته. فالتكرار يعمل على تحقيق السبك النصي وذلك عن طريق امتداد عنصر من بداية النص حتى آخره، كما يؤدي وظائف دلالية هامة<sup>1</sup>. ومن الباحثين من يعتقد

أن تكرار الظاهرة اللغوية التي تنشأ الأسلوب يعني تكرار المعنى المحجاسي<sup>2</sup>

ولابد من الأخذ بعين الاعتبار أن التكرار في النص القرآني لا يتعلق بالتكرار الواقع في السورة

نفسها بل قد يكون تكرارا لألفاظ وجمل وردت في السور السابقة عليها، اعتبارا من أن النص القرآني كل موحد، والنظر إلى بنياته متعلق بالنظر في البنية الكلية.

إن التوكيد اللفظي بتكرار اللفظ يمثل التكرار في أجلى أنواعه، غير أن قيمته في الربط تكاد تكون

صفرا لأنه كثيرا ما يكون تكرارا في إطار الجملة، كما أنه إذا تعدى الجملة لا يسمى توكيدا لفظيا إلا إذا تجاوز المؤكد والمؤكد في صورة متمثلة، كما أن قيمته الرابطة تضعف لتجاوز الجملتين<sup>3</sup>.

#### - أنواع التكرار:

أ - تكرار الكلمة: دون أن يقع فيها أي تغيير.

ب - التكرار بالترادف أو شبه الترادف: أي الاتفاق في المعنى مع الاختلاف في الشكل.

ج - التكرار المعنوي: تحوم حول اللفظ الرئيسي مثل تكرار الأمل والنور والبعث والبشاشة في محور الحياة وتكرار الانكسار والنهاية والقنوم والاسوداد في محور الموت.

د - التكرار بالاسم الشامل: وهي التي تدخل تحت مظان حقل دلالي معين كحقل النبات الذي يشمل الورود والزهور والحشيش والنخيل والشجر وغيرها.

<sup>1</sup> حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، ص106.

<sup>2</sup> L.Hyelslev : Le langage, Edition Minuit, Paris 1966, P 180

<sup>3</sup> جمعان عبد الكريم: إشكالات النص - دراسة لسانية نصية، ص.ص 361، 362.

هـ - تكرر مركب: وهو تكرر جملة سواء تشكلت من مركبين أو أكثر، وهذا النوع له وجوده المكثف في الخطاب القرآني.

للتكرار طاقة وظيفية مهمة تتمثل في الدعم الدلالي لمفردات محددة في النص. وتكرار المفردات بعينها دون غيرها يؤكد على أهميتها في بناء المعنى كما يؤكد على محوريتها.

نجد التكرار بكل أشكاله وألوانه في كلا الجزأين، يتعلق خصوصا بأسماء الله وصفاته. كما أن ما يميز القرآن المكّي، وخصوصا جزء المفصل ذلك التكرار الواضح لأسماء يوم القيامة داخل السورة الواحدة، فضلا عن تكراره المكثف في الجزأين المعانيين.

ومن بعض الأمثلة المستقاة من فصار السور قوله تعالى في سورة الناس: "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ

(1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3)". الناس / الآية 1، 3.

حيث تكررت لفظة الناس ثلاث مرات تحقيقا للتكرار البسيط بالكلمة نفسها، والمعنى نفسه، كما نستقرئ تكرار المترادفات (رب، ملك، إله)، وهي بالمدلول نفسه في هذا السياق، وهذا النوع من التكرار ينعت في عرف الدراسات الأسلوبية التكرار المعنوي.

ومن نماذج التكرار البسيط والمتعلق بتكرار اسم الجلالة - عز وجل - ما ورد في سورة الإخلاص،

من تكرر لاسم "الله" مرتين: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2)". الإخلاص / الآية 1، 2.

وهو تكرر يقصد من خلاله التأكيد أن المقصود بإفراد العبودية والوحدانية إنما وحده الله - جل

وعلا.

كما ظهر جليا التكرار البسيط للفظ القارعة، وهي من أسماء يوم القيامة في مستهل قوله

تعالى: "الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3)". القارعة / الآية 1، 3.

حيث تكررت اللفظة ثلاث مرات تأكيداً لخبر الهول الحاصل يوم القيامة، وهذا النوع من التكرار يسمى التكرار الكلي، فقد تكررت الكلمة دون تغيير، ويشترط للتكرار اللفظي "وحدة المحيل إليه في اللفظين المتكررين حسب مبدأي الثبات والاقتصاد"<sup>1</sup>.

ومن نماذج التكرار الجميل الذي يبعث على الانتباه والتأثر البالغ ما ورد في أول آيات من سورة العلق. يقول تعالى: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ (6) أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَى (7) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى (8)" العلق/ الآية 1، 8.

في هذه الآيات تكرار بسيط ومكثف لأغلب البنيات المحورية: اقرأ، خلق، الإنسان. حيث تكرر فعل "اقرأ" مرتين بالمصطلح نفسه، ومرة في شكل تضام مترادفات ليضم إلى محور التعليم "علم"، "القلم"، كما تكرر فعل "خلق" مرتين، وتكرر مصطلح "الإنسان" مرتين كذلك كشكل من أشكال التكرار البسيط. وميزة التفرد في هذه الآيات هو تكرارها بشكل متخالف، حيث تتداخل المصطلحات المكررة فيما بينها مشكلة بذلك تآلفاً جميلاً نعدمه في الخطاب البشري، وهو لون آخر من ألوان الإعجاز البياني في القرآن الكريم استهل به بداية الوحي مع أول ما نزل من القرآن الكريم.

ويتكرر في سورة "الكافرون" فعل العبادة ثماني مرات باشتقاقته المختلفة: "قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)". الكافرون/ الآية 1، 6.

وهذا النوع من التكرار يسمى حسب "روبرت دي بوجرند" التكرار الجزئي. أي استعمال المكونات الأساسية للكلمة مع نقلها إلى فئة أخرى: (من فئة الاسم إلى فئة الفعل)<sup>2</sup>. وفضلاً عن الإيقاع

<sup>1</sup> روبرت دي بوجرند: النص والخطاب والإجراء، ص303.  
<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص303.

الموسيقي الذي شكلته السورة كان لها تأثيرا وضغطا كبيرا على القارئ حيث يتفعل خطاب الإثبات والتأكيد أن الرسول لن يرضخ لمساومات الكفار وطمعهم في أن يعبد يوما إلههم ويعبدون يوما إلهه، فكان هذا التكرار صورة عن الغضب والتنديد والإنكار.

وقد يكون التكرار قصدا لتأكيد خبر البعث كقوله تعالى: "كَأَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَأَلَّا

سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَأَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5)". التكاثر/ الآية 3، 5.

لكن ما يميز هذا التكرار أنه فضلا عن كونه تكرارا لحدث متعلق بالحساب، فهو تكرار مركب من

أكثر من كلمتين، أي تكرار لجملة تامة.

وهذا التكرار بدوره يتكثف وجوده في الخطاب القرآني. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: "إِنَّا

أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3)". القدر/

الآية 1، 3.

فكان التكرار المركب ذا حلية تجميلية وله دور في الاتساق النصي، كذا له دوره في التأكيد

والإثبات. والشأن نفسه مع قوله جل وعلا: "فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6)".

الشرح/ الآية 5، 6.

وهنا التأكيد من خلال الأداة "إن" ومن خلال التكرار، تأكيد لا مجال لدحضه أو مخالفته.

كما يتكرر في سورة المرسلات قوله تعالى "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ" عشر مرات. فخطاب سورة

"المرسلات" مميز من حيث هذه الغزارة بإعادة ذكر مركب كامل، مجسد في آية تربط بنيات كل السورة.

إن سورتي "المرسلات" و "الرحمن" - بالنظر إلى هذا النوع من التكرار - سورتان مميزتان. وشكل

التكرار الذي ينبسط على مساحتهما يعدّ ظاهرة فريدة من نوعها في القرآن الكريم، سواء بالنظر إلى حجم

التكرار، أو بالنظر إلى الشكل الذي انتظم به لغرض التنبيه والتهويل، ودعما للرأي، ودعوة للإيمان.

لقد نظرنا مع هذه الأمثلة إلى التكرار المتعلق بالسورة الواحدة، مادام أساس الدراسة هو إثبات الاتساق النصي، أي كيف تترايط الآيات بعضها ببعض، لذلك ليس من الداعي أن نبحث عن هذا الاتساق في الجزأين معاً، مع التأكيد أن التكرار حتى بالنظر إلى الجزأين معاً نجده يرتبط بتكرار ذكر اسم العزة - سبحانه وتعالى - وبتكرار ذكر المؤمن والكافر، وبتكرار ذكر أسماء ليوم الآخر بمسمياته المختلفة وبمترادفاته المتنوعة، ويتكرر ذكر الجنة وجهنم بألقابهما المتعددة، وكل هذا لتحقيق المبدأ الأساسي الذي يقوم عليه القرآن المكي وهو إفراد الله عز وجل بالعبادة من جهة، مع تأكيد حقيقة الحياة والجزاء والحساب بعد الموت.

#### ب - التضام:\*

يقصد بالتضام المعجمي الذي يقوم على التلازم بين الكلمات في سياق ما، فتأتي أزواج من الكلمات متصاحبة دائماً، فذكر أحدهما يستدعي ذكر الآخر لوجود علاقة بين اللفظين، ومن ثم لا يجئان إلا معاً، وبشكل عام، إن أي عنصرين من الكلمات لهما نفس النمط من التلازم - أي لهما ميل للظهور في السياق نفسه - سيولدان قوة ترابط إذا وجدا في جمل متجاورة<sup>1</sup>. فالتضام هو توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة نظراً لارتباطها بحكم هذه العلاقة أو تلك<sup>2</sup>.

#### أنواع التضام: يمكن أن يقسم التضام إلى الأنواع التالية:

أ - التضاد بجميع درجاته: سواء كان بين الكلمتين تضاد كامل مثل: ولد/بنت. أو كان بينهما تخالف أو تناقض مثل أحب/أكره. أو كان بينهما تعاكس مثل: أمر/أطاع.

#### 2 - الدخول في سلسلة مرتبة مثل: السبت/الأحد.

\* يترجم الدكتور حسام أحمد فرج في كتابه "نظرية علم النص - رؤية منهجية في بناء النص النثري"، مصطلح Colocation بـ "المصاحبات اللغوية، ثم يقسم هذه المصاحبات اللغوية (التضام) إلى خمسة أقسام: علاقة التضاد، التدرج التسلسلي، علاقة الجزء بالكل، علاقة الجزء بالجزء، علاقة التلازم الذكري.

<sup>1</sup> هاليداي ورقية حسن: cohesion in English، ص 145. نقلاً عن: جمعان عبد الكريم: إشكالات النص - دراسة لسانية نصية، ص 366.

<sup>2</sup> محمد خطابي: لسانيات النص - مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 25.

3 - علاقة الكل - الجزء أو الجزء - الجزء مثل البيت / النافذة/ الباب.

4 - الاندراج في قسم عام: مثل كرسي طاولة (كعنصرين من عناصر التجهيز). وقد يتسع

التضام ليشمل مجموعة من الكلمات لا زوجا واحدا، مثل: شعر، أدب، القارئ، الكاتب، الأسلوب.

يمكن أن يدخل هذا التضام الأسلوبي الذي يقوم على المجازات والاستعارات والتشبيهات القريبة

المبتدلة التي تستعمل في اللغة العادية كنوع من أنواع التضام بين العناصر هذا عند خلو التشبيه من أدواته<sup>1</sup>.

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في شكل تضاد تام في قوله تعالى: "فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6)

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9)" القارعة/ الآية 6، 9.

هنا شكل التضام في تضاد تام ومتخالف بين عبارات الآيات بين "من ثقلت موازينه" و"من خفت

موازينه"، وبين "هو في عيشة راضية" و"أمه هاوية"، حيث انبت أربع آيات في شكل ثنائيات متقابلة

ضديا، وهو لون بياني، وإضافة إلى الأثر البلاغي، له وقع جمالي وتأثير على المتلقي في إيصال الرسالة

التأثيرية التي تقصدها الرسالة الربانية.

وكان الاتساق في سورة "الليل" يبني كله وفق قاعدة التضام.. بل إن ما يميز سورة "الليل" بالذات هو

التكثيف من ظاهرة التضام الذي كانت معانيه مرتبة وفق قاعدة التضام. يقول تعالى: "وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى

(1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى

(5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9)

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ

وَالْأُولَى (13) فَانذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16)

وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17)". الليل/ الآية 1، 17.

<sup>1</sup> جمعان عبد الكريم: إشكالات النص - دراسة لسانية نصية، ص.ص 36، 367.

يربط التضام أجزاء السورة بعضها ببعض، ويضم أشتات البنية السطحية لها، والتضام هنا مشكل بدوره وفق التضاد سواء بالتخالف أو التضاد بين الكلمات.

ومن التضام الوارد أيضا في هذين الجزأين المعانيين.. قوله عز وجل: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)" الزلزلة/ الآية 7، 8.

تضام آخر في شكل صورة متضادة دائما تحويها الآيات الآتية "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7)". البينة/ الآية 6، 7. في الآيتين تضاد بين "شر البرية" و"خير البرية".

ومن أشكال التضام الواردة في هذا السياق أيضا ما يعرف بالملفوظات المندرجة في قسم عام أو في حقل دلالي واحد، وله وجود عميق وكثيف، ومن أمثلة ذلك على سبيل الذكر لا الحصر ما تعلق بذكر مرتبط بمحور الزمن في سورة المزمل مثلا: كذكر الليل والنهار والمشرق والمغرب في قوله تعالى: "إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيَلًا (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (7) وَادْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (9)". المزمل/ الآية 6، 9 .

ومنها ما تعلق بنعم الله كالثياب والإستبرق والأساور والفضة والشراب الطهور، في قوله تعالى: "عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَخُلُوا أُسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21)". الإنسان/ الآية 21.

ومن أمثلة التضام ما تعلق بحقل الآيات الكونية مثل قوله تعالى: "إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6)". الشمس/ الآية 1، 6.

كذا قوله تعالى وفي المحور ذاته أيضا: "إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكُوكَبُ انْتَشَرَتْ (2)



وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) الانفطار/ الآية 1، 3.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: "وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا

(3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6)". الضحى/ الآية 1، 6.

فهذه النماذج كلها شواهد على التضام الذي تدرج مصطلحاته في قسم عام، وهو شكل من

أشكال تواصل الدلالة النصية، وشكل من أشكال الاتساق النصي. فضلا عن وجود علاقة بين ملفوظات

تشكل علاقة الجزء - بالجزء حيث تكون في مستوى تعبيرى تنتمي إلى كلية واحدة.

ومن نماذج ذلك قول المولى تبارك وتعالى: "أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9)"

البلد/ الآية 8، 9.

فالعينان واللسان والشفتان كلها تنضوي تحت مسمى واحد ومدلول واحد وهو مكونات جسم

الإنسان.

أما قول المولى - جل وعلا - في آية تجسد التضام مرة أخرى: "يُبْصِرُونَهُمْ يُؤدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ

يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِنْدٍ بِنَيْهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَقَصِيْلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَنْ فِي

الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (13)". المعارج/ الآية 11، 13.

فهذا الشكل من التضام يدعى الدخول في سلسلة مرتبة، حيث يكمن الترتيب لعلاقة الإنسان

بالإنسان في التدرج من الابن إلى الزوجة إلى الأخ ثم الأقارب ثم خلق الله جميعا.

إن اتساق النص القرآني تجلّى من خلال مظاهر الاتساق كلها التي تربط مركبات البنية السطحية،

من إحالة وربط وحذف واستبدال وتكرار وتضام. ووجودها في النص القرآني ضرورة تفرضها متطلبات

النصية، أما توزيعها فكان بحسب حاجة السورة الواحدة، وحسب دواعي المقاصد التبليغية التي تختار في

نظمها شكل من أشكال الاتساق دون غيره.

وقد قمنا في الجدول الآتي بتتبع كل مظاهر الاتساق الموجودة في سورة "العلق" فقط لاستحالة التطبيق على كل السور المعانية. حاولنا تتبع مظاهر الاتساق في كل آياتها بتقسيم السورة إلى مركبات وقد نضطر إلى تقسيم المركبة إلى جزأين أو أكثر حسب ورود نوع الاتساق، فكان الجدول يحمل ثلاثة خانات الأولى للمركبات والثانية لنوع الاتساق والثالث للعائد عليه.

المركبات	نوع الاتساق	العائد عليه
اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ	إح.م	الرسول (ص)
الَّذِي	إح.نص.ق	الله
خَلَقَ (1)	حذف	الخالق
خَلَقَ	تكرار	خلق
الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2)	إح.نص.ق	ربك
اقْرَأْ	تكرار	اقرأ
وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3)	إح.نص.ق	الرسول (ص)
	وصل	الواو
الَّذِي	إح.نص.ق	ربك
عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4)	حذف	الإنسان

علم	تكرار	عَلَّمَ الْإِنْسَانَ
من قبل	حذف	مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)
علم . لم يعلم	تضام	
أأكد	حذف	كَأَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَعَى (6)
الإنسان نفسه	إح. نص. ق	أَنْ رَأَهُ اسْتَعَى (7)
الرسول (ص)	إح. نص. ق	إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى (8)
أبو جهل	إح. م	أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9)
عن الصلاة	حذف	عَبْدًا إِذَا صَلَّى (10)
أرأيت	تكرار	أَرَأَيْتَ
الناهي	حذف	إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ
هذا الناهي	حذف	أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ

أرأيت	تكرار	أرأيت
عن الحق	حذف	إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى
أبو جهل	إح. نص. ق	أَمْ يَظُنُّ أَنْ يُكْفِرَ بِاللَّهِ يَكْفِرًا (14)
أبو جهل	إح. نص. ق	كَأَنَّمَا لَيْسَ لَهُ لُبٌّ فِي بطنِهِ
عن هذا المنكر	حذف	لَنْ نَسْفَعَنَ بِالنَّاصِيَةِ (15)
ناصية	تكرار	نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16)
هذا الناهي	إح. نص. ق	فَلْيَدْعُ
قومه وعشيرته	إح. م	نَادِيَهُ (17)
الله	إح. نص. ق	سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18)
أبو جهل	إح. نص. ق	كَأَنَّمَا لَا تُطِيعُهُ
الله	حذف	وَاسْجُدْ ..
منه	حذف	وَاقْتَرِبْ (19)
أسجد . اقترب	تضام	

نتيجة:

صنفنا انطلاقا من هندسة الجدول أعلاه أنماط ورود الاتساق بمظاهره المختلفة، ونلاحظ أن الإحالة هي أكثر أنماط الاتساق ظهورا في سورة "العلق". حيث وردت حوالي 14 مرة، وعلى الخصوص الإحالة القبليية حيث ظهرت 11 مرة. في حين وردت الإحالة المقامية 3 مرات. أما الإحالة البعدية فلم ترد نهائيا في السورة المعانية.

- ورد الحذف بنسبة أقل: 11 مرة.

- ورد التكرار: 6 مرات.

- ورد التضام مرة واحدة.

- ورد الرابط "الواو" مرة واحدة.

من البديهي أن الأدوات التي تحقق الاتساق ترد دوما بشكل متفاوت بين سورة وأخرى، وعادة ما

ترد أدوات الربط والإحالة بشكل أكثر مقارنة مع بقية مظاهر الاتساق، لحتمية وجودها في الخطاب اللغوي

- التواصلية.

## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

### تمهيد

#### 1 - الأفعال الكلامية الجزئية وتجسيد سلطة الإلزام

1 - 1 التأمل في عظمة خلق الله

2 - 1 إقرار حقيقة البعث

3 - 1 التزام الأخلاق الفاضلة

#### 2 - الفعل الكلامي الكلي وإخلاص العبادة لله وحده

2 - 1 سلطة الأمر المباشر إقرار لحق العبودية.

2 - 2 الفعل الكلامي الكلي المضمّر رسالة في التوحيد.

## تمهيد

تدرج نظرية أفعال الكلام في حقل معرفي واسع يسمى التداولية La pragmatique.

وحسب معطيات المنهج التداولي نرى اندراجه في حقل معرفي أوسع وهو علم النص.

التداولية من أحدث المناهج النقدية - اللسانية التي تقوم بمعاينة الخطابات les discours

معاينة تقترب بها من الدقة لما لها من آليات وإجراءات استبطانية تحليلية تحاول الولوج إلى المعنى ومعنى

المعنى. ومن أهم التحديدات الشائعة التي توصف بها التداولية أنها منهج يقوم بدراسة اللغة في علاقتها

بمستعملها، أي تدرس استعمال اللغة في المقامات، وهذه رؤية حديثة وقديمة قدم البلاغة، على الأقل في

الدراسات التراثية العربية التي لا تقبل معاينة النصوص إلا بالنظر إلى السياق المحيط بها، وقد قيل قديما

"لكل مقام مقال". وهذا ما جعل التداولية تقترب بشكل كبير من البلاغة، وعلى هذا الأساس ظهرت

رؤى تقول بترجمة المصطلح الفرنسي la pragmatique بعلم المقاصد عوض المصطلح الشائع التداولية

مادام أساس هذه المقاربة دراسة مقاصد الخطاب اعتمادا على إجراءات خاصة بها.

يعاين المنهج التداولي اللغة عند استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة، أي باعتبارها "كلاما

محددًا" يصدر عن "متكلم محدد" ويوجه إلى "مخاطب محدد" بـ "لفظ محدد" في "مقام تواصل محدد"

لتحقيق "غرض تواصل محدد"<sup>1</sup>، فالتداولية لا تدرس البنية اللغوية لذاتها وفي ذاتها باعتبارها بنية مغلقة شأن

المناهج المحايثة. ومن هذا المنظور تقترب التداولية من لسانيات النص وتتفق معها في معظم المفاهيم

الأساسية، إضافة إلى رفضها مبدأ المحايثة في معاينة الخطاب تنادي بضرورة الأخذ بمقولة السياق واعتماد

المقصدية كأهم دعامة ينبغي أن تقوم عليها مقارنة الخطابات. فالتداولية شأنها شأن لسانيات النص إجراء

واسع من علم أوسع يسمى علم النص.

<sup>1</sup> مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب - دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ط1، بيروت، لبنان 2005، ص26.

## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

ظهرت نظرية الفعل الكلامي إذن بمفهومها الحدائثي عند الغرب وبالضبط على يد الفيلسوف الأمريكي المعاصر "أوستين" J.L.Austin وطورها تلميذه الفيلسوف "سيرل" J.Searle فأعطاهما صيغتها النموذجية النهائية.

تعمق "أوستين" في إنجاز فلسفة دلالية تهتم بالمضامين والمقاصد التواصلية، وتختلف عما عرفناه عند علماء الدلالة اللغويين وخصوصا البنيويين منهم. و"تقع في موقع متميز من المذهب اللساني الجديد في تصور المعاصرين ويشكل جزءا أساسيا من بنيتها النظرية بتصريح العلماء الغربيين المؤسسين للتداولية أنفسهم"<sup>1</sup>. وقد أضحت نواة مركزية لكثير من البحوث التداولية، وعليه فإن البحث في الموضوع هو بحث في بوتقة الاهتمام الأولى للتداولية اللغوية، وهو بحث في المقاصد الدلالية. كما أن البحث في المقصدية هو عماد البحث في مجال لسانيات النص.

خالف "أوستين" الفلاسفة الكلاسيكيين ووافق أسلافه من فلاسفة التحليل في اعتمادهم مفهوم المقصدية Intentionnalité في فهم الملفوظات وتحليل العبارات اللغوية، وهو مبدأ اعتمده الفيلسوف "هوسرل" "husserl"، واعتمده الظاهراتية وبهما تأثر "أوستين"، فاستثمر مفهوم المقصدية في تحليل العبارات اللغوية مع مراعاة غرض المتكلم والمقصد العام من الخطاب في إطار مفاهيمي مستوف للأبعاد التداولية للظاهرة اللغوية<sup>2</sup>.

فنظرية أفعال الكلام تتجاوز النظر في اللغة باعتبارها مجرد أداة تواصل إلى كونها تحقيق لأفعال إنجازية من خلال ملفوظات قولية، والغاية تتحقق من خلال مدى تأثيرها على المتلقي. إذ يرى "أوستين" أن الوحدة الدنيا للتواصل الإنساني ليست هي الجملة، ولا أي تعبير آخر، بل هي استكمال (إنجاز) بعض

<sup>1</sup> مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص26.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص10.



أنماط الأفعال، وبهذا فالمتكلم ينجز فعلا أو آخر بتلفظه بجملة ما وأحيانا بعدد من الأفعال<sup>1</sup>.

وبالرجوع إلى ما كتبه الفيلسوف "أوستين" وتلميذه "سيرل" حول هذا المفهوم فإن الفعل الكلامي يعني التصرف (أو العمل) الاجتماعي أو المؤسسي الذي ينجزه الإنسان بالكلام. ويراد به الإنجاز الذي يؤديه المتكلم بمجرد تلفظه بملفوظ. وبالنظر إلى هذا المعنى في اللغة العربية فإن المقاصد والمعاني والإفادات التي تستفاد من صيغ التواصل العربي وألفاظه كمعاني الأساليب العربية المختلفة خبرية كانت أم إنشائية ودلالات حروف المعاني ودلالات الخوالب وأصناف أخرى من الصيغ والأساليب العربية هي التي تمثل نظرية الأفعال الكلامية في التراث العربي<sup>2</sup>.

أصبح مفهوم الفعل الكلامي نواة مركزية في الكثير من الأعمال التداولية، فكل ملفوظ يقوم على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري. وفضلا عن ذلك يعد نشاطا ماديا نَحْوِيا يتوسل أفعالا قولية *actes locutoires* لتحقيق أغراض إنجازية *actes illocutoires* (كالطلب والأمر والوعد والوعيد...) وغايات تأثيرية *actes perlocutoires* تخص ردود فعل المتلقي كالرفض والقبول. ومن ثم فهو فعل يطمح لأن يكون فعلا تأثيريا، يؤثر على المخاطب، اجتماعيا أو مؤسسيا ليجز شيئا ما<sup>3</sup>.

يرفض "أوستين" ثنائية الصدق والكذب، ويلاحظ أن هناك جملا ذوات بنية مشابهة لحمل الإثبات والتي يمكن للمتكلم أن يصطنع منها أشياء عديدة: الأمر، التقرير، التنبيه... غير أن هذا التماثل الموجود في بنية بعض الجمل خداع.

- أمرك بالجمي (أمر).

- أمره بالجمي (وصف - تقرير حال).

<sup>1</sup> فرنسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ترح سعيد علوش، دط، مركز الإنماء القومي، الرباط، دت، ص60.

<sup>2</sup> مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص10.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص40.

ويخلص "أوستين" إلى وجود جمل وصفية إثباتية أو تقريرية يمكن أن تكون كاذبة أو صادقة وجمل

ذوات نمط خاص لا يمكن أن يجري عليها هذا المعيار.

- إن خاصية الجمل الأخيرة تكمن في أنه عندما نتلفظ بها ننجز في الوقت ذاته أعمالا. وكذلك

بالنسبة للأقوال التالية:

أتمنى لكم سفرا ممتعا.

- أرجو منكم المعذرة

- نشكركم على حسن انتباهكم.

لا يمكن أن نصف هذه الأقوال بالصدق أو الكذب، وكل ما يمكن قوله أن هذه الأقوال قد تنجح

وقد تخفق أو أنها تستجيب لمقتضى الحال أو لا.

ويسمى "أوستين" هذه الأقوال بالأفعال الإنشائية *acte performatif* على عكس الزمرة

الأولى وهي التي يطلق عليها اسم الأفعال التقريرية *acte constatifs*، وهكذا عند التلفظ بها ننجز في

الوقت ذاته عملا. أرجو منكم المعذرة هو طلب للمعذرة وإعراب عن رجاء<sup>1</sup>.

استفاد "سيرل" من دروس أستاذه "أستين" فيما يتعلق بنظرية الفعل اللغوي، لكن اقترح بعض

التعديلات ليطور بذلك نظرية الفعل الكلامي ويبعث فيها نفسا جديدا، مقسما الفعل الكلامي إلى فعل

مباشر وغير مباشر.

عمل "سيرل" على تحديد كل العوامل والشروط التي تسهم في نجاح الفعل اللغوي<sup>2</sup>. وهو يربط

بين الكلمات والجمل المنطوقة والأفعال المتضمنة في القول، إذ بمجرد نطقها يتم إنجاز الفعل، وذلك أمر

<sup>1</sup> الجبلاي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترح محمد يحياتن، دط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 22.

<sup>2</sup> J. Searle : les actes de langage, Hermann, Paris , 1972, P70

يتفق مع فرضيته الأساسية القائمة على اعتبار فعل الكلام أو فعل الكتابة في أي لغة مقترنا بإنجاز أفعال الكلام، وهي في الغالب لا تبتعد عن طرح أسئلة أو إصدار أمر أو التماس أذار أو إعلان وعود<sup>1</sup>.

إن القول عند "سيرل" شكل من السلوك الاجتماعي، ينجز أربعة أفعال في الوقت نفسه<sup>2</sup>:

acte d'énonciation - فعل القول

acte propositionnel - فعل الإسناد

acte performatif - فعل الإنشاء

acte perlocutif - فعل التأثير

يقصد بفعل القول فعل التلفظ، أي النطق بكلمات وجمل، ويقصد بفعل الإسناد ربط الصلة بين

المتكلم الأول والمتكلم الثاني بإحالة على الأنا والآنتم، ويجسد فعل الإنشاء التحقيق الكائن للفعل

الإنشائي - الإنجازي ويكون إما تهديدا أو وعدا أو أمرا. في حين يشكل فعل التأثير الأمارات الإضافية

للفعل الإنشائي كالتنغيم والإيماء والحركة التي ترد في حال التواصل العادي لتدعم القول الإنشائي. علما

أن المستمع يعتمد على جميع العناصر المقامية situationnels لتأويل دور المتكلم التأثيري وتفسيره

التفسير المناسب الذي يرتضيه مقام إطلاق القول<sup>3</sup>.

ومهما بلغت جدية نظرية الفعل الكلامي فإنها قد بحثت قديما عند المسلمين في النظرية التراثية

العربية في مباحث الخبر والإنشاء، حتى وإن لم يكن البحث تأسيسا لنظرية في حد ذاتها فقد كان خدمة

لكتاب العربية الأكبر - القرآن الكريم - لكن مفاهيم نظرية الفعل الكلامي كما هي واردة في مباحث

الغريبيين في القرن الواحد والعشرين لا تختلف عما وردت عند العرب في بحوثهم البلاغية المتعلقة بمبحث

<sup>1</sup> J. Searle : Sens et expression étude de théorie des actes de langage, Minuit, Paris, 1982, P101

<sup>2</sup> الجليلي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص25.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص.ص 26، 27.

الخبر والإنشاء، فلطالما حفلت النظرية البلاغية العربية بهذا المجال وجعلته إجراء يندرج في مستوى علم المعاني الذي يعد من الأقسام الثلاثة لمباحث البلاغة العربية التي جعلها البلاغيون بيانا وبديعا ومعاني. كما أثبت الباحثون وجود هذا النمط من الأبحاث عند الفقهاء وعلماء الكلام.

ولا غرابة في هذا فمن سنة العلوم والمعارف مهما تطورت أن تلتقي وتتحاور وتتناقح ويضيف بعضها إلى بعض. لكن لا يكون الانطلاق من عدم، وكل خطوة رائدة وجديدة في ميدان البحث العلمي هي تابعة لمجموعة خطوات مرت منذ زمن قريب أو بعيد.

### 5- الأفعال الكلامية الجزئية وتجسيد سلطة الإلزام:

يؤدي الخطاب القرآني وظيفة الانحياز بمجرد التلفظ بالقول، والقرآن الكريم خطاب حجاجي من الدرجة الأولى، يهدف إلى تغيير المعتقدات والقناعات، ويطلب الإذعان إلى سلطة أمرية لها موقعها المؤسسي. إن الخطاب الإنجازي المشكل من الفعل الكلامي يشمل جميع السور القرآنية وتحتويه أغلب الآيات، تتحكم فيه سلطة قوية باعتبارها سلطة مقدسة وهي الذات الإلهية العليا. ويتراوح خطاب الفعل الكلامي بين التوجه المباشر وغير المباشر.

تحقق الفعل الكلامي المباشر من خلال الأمر والنهي والاستفهام والدعاء، في توجهه الظاهر نحو المتلقي من الدرجة الأولى وهو النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - والمتلقي من الدرجة الثانية الذين يتفاوتون حسب الموضوعات من خطاب إلى آخر. تحقيقا لخطاب الالتزام بأمر (الأمر بالمعروف) أو الابتعاد عن أمر (النهي عن المنكر)، كما يظهر صوت الهدوء من خلال اللامباشرة في توجيه الفعل الكلامي مراعاة لنفسيات المتلقين المتعددين.

تتداخل الأفعال الكلامية المباشرة مع الأفعال الكلامية غير المباشرة، وتنضوي جميعها تحت لائحة

## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

فعل كلامي كامل هو الأمر، ومع لائحة هذه السلطة الأمرية التي تقصد إلى الالتزام ينضوي خطاب الترغيب والترهيب، وكلاهما دعوة إلى إخلاص العبادة لله إثبات لوحديته، دعوة إلى الإيمان بالله وإقرار الطاعة له وحده.

رغم محدودية البنى المتعامل معها من الخطاب القرآني، إلا أن جزأ "تبارك وعم" كافيان لتجسيد صورة الفعل الكلامي وطاقاته التعبيرية والإنجازية في القرآن الكريم كله. فالجزءان يمثلان الصورة المصغرة للخطاب القرآني. يحتويان على كل الأنماط التعبيرية والأساليب البلاغية التي يمكن أن نجد لها حضورا مع بقية الأجزاء من الخطاب القرآني. وعلى هذا الأساس ظهر صوت الترغيب والترهيب، صوت الغضب والهدوء، صوت اللين والشدة في توجيه الخطاب العملي، لأن القرآن الكريم هو الذي يعطي الصورة العملية والإنجازية التي يعبر عنها الفعل الكلامي. إنه ليس فعلا توصليا بقدر ما هو فعل تغيير، وليس فعلا لغويا (مجرد ملفوظ) بقدر ما هو فعل إنجازي.

والفعل الكلامي المحقق للإنجازية الفعلية للخطاب يظهر كثيرا بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وقد يتداخل الفعالان الكلاميان معا.

تناول جزأ "تبارك وعم" ثلاثة محاور أساسية، تغطي مساحة ثلاثة أفعال كلامية كبرى تجسد سلطة أمرية تتفرع بدورها عن فعل أكبر هو الأمر بإخلاص العبادة لله وحده. وهذه الأفعال الكلامية الثلاثة تجسد أهم التقسيمات الموضوعاتية\* للخطاب القرآني، سواء ما تعلق منها بالأمر في تأمل عظمة خلق الله، أو إقرار حقيقة البعث والنشور، أو التزام الأخلاق الفاضلة.

\* اعتمدنا في هذا التقسيم على التفسير الموضوعي وهو منهج يعتمد في تفسير القرآن من جهة الموضوع، الذي يراد معالجته في ضوء الكتاب، ويراد تحديده معالمه، ولذلك يعد الموضوع أحد أهم أركان هذا المنهج الأساسية التي يبنى عليها كمنهج متميز، وتصبح بقية الأركان عناصر ثانوية تستخدم خدمة للموضوع لإبرازه من جميع زواياه. ينظر: أحمد رحماني: التفسير الموضوعي - نظرية وتطبيقا، ص6.

1- 1- التأمل في عظمة خلق الله: تناول الخطاب القرآني في موضوعاته محورا مهما من محاوره

التي ما تلبث تتكرر من سورة إلى أخرى ومن آية إلى أخرى، وهو موضوع عظمة الله عز وجل وكثيرا ما يقتزن هذا المحور بمحاور مرتبطة به تتعلق ببديع خلق الله وعظيم صنعه في الكون، قدرته الفائقة في خلق السماوات والأرض والفلك والبحار والمحيطات وتسخيرها كيف ما شاء إظهارا لوحدانيته وعظمته وتفردته بالخلق، إنما من آيات الله التي تعطي صورة للآخر لإثبات أحقيته بالعبودية والألوهية والتقديس.

كانت الدعوة في كل مرة إلى التأمل والتدبر مع زجر وتعنيف وإنكار، وهذا ما نستشفه من سلطة الفعل الكلامي التي تضمها معظم تلك الآيات الواردة في جزأي "تبارك وعم" حيث تتداخل الأفعال الكلامية المباشرة مع الأفعال الكلامية غير المباشرة، وهي جميعها تنضوي تحت فعل كلامي واحد كبير وهو الأمر، كما هو الشأن في هذه الآيات من سورة "الملك": " تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ (2) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِمًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4)" الملك/ الآية 1، 4.

إن الله سبحانه وتعالى لا يفخر بنفسه فخر بني آدم بأنفسهم في قوله "تبارك"، إنما يوجه الخطاب للمتلقى البشري (المتلقي الواقعي والجمهور الكوني) ليلبغ رسالة ضمنية مفادها: آمنوا بالذي كثر إنعامه عليكم. إنه الله تعالى تنزه عن الشرك والشريك. فعل كلامي غير مباشر، فظاهر القول سرد ووصف للحالة لكنه يتضمن أمرا قويا، والسلطة المقدسة تتعامل في توجيه الخطاب الزجري والتنبيهي بسلطة الأمر، والأمر صيغة تستدعي الفعل أو قول نبي عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء، والمقصود بالاستعلاء أن الأمر ينظر لنفسه على أنه أعلى منزلة ممن يخاطبه أو يصدر إليه الأمر، سواء أكان هذا

الأمر عاليا في الواقع أم لا<sup>1</sup>، لكن الأمر في الخطاب القرآن كان إقرارا بالتعالي والتميز والتفرد، يكفي أنه خطاب مقدّس، ويكفي أنه خطاب إلهي - رباني حتى وإن ظهر اللين في الخطاب لكن السياق يوجه المعنى ويجدد الدلالة. وبعض من الأفعال الكلامية الإنجازية تتضح من خلال قواعد اللغة العامة، والبعض الآخر منها يظل بحاجة إلى تحقيق بعض الشروط الخارج - لسانية - العرفية كالشروط المؤسساتية ذات الأبعاد الاجتماعية<sup>2</sup>. كما أنه يجب النظر إلى القرآن الكريم باعتباره سورة واحدة أو مجموعة سور يكمل بعضها البعض ولا يمكن قراءة (فهم) سورة بمعزل عن الأخرى ومعزل عن السياق العام الذي يتنزل فيه القرآن.

إن الذي بيده الملك والسلطان والقدرة، الذي خلق الموت والحياة، وخلق سبع سماوات أحق أن يؤمن به، أحق أن يعبد. أحق أن يكون إلهًا. فالآيات بفعالها الكلامي غير المباشر الإنجازي تدعو إلى التدبر والنظر ببصر وبصيرة بلسان خفي يقول بصريح العبارة: أنظروا في الذي بيده ملكوت كل شيء.

استهلت السورة بتعريف المؤمنين معاني من العلم بعظمة الله تعالى وتفرد به بالملك الحق والنظر في صناعته المتقنة التي تقر بوحدانيته، وتؤكد على تفرده بالألوهية. وذكرت السورة بقدرة الله الذي أقام للحياة والموت نظاما لتظهر مجاري أعمال العباد في ميادين السبق إلى أحسن الأعمال ونتائج مجاريها، كما بينت السورة أن الله وحده من يجازي على نتائج أعمال العباد<sup>3</sup>. وداخل هذا الفعل الكلامي غير المباشر في نداء التأمل في عظمة خلق الله ينبعث صوت ثلاثة أفعال كلامية غير مباشرة:

استفهام إنكاري يقع وسط أمرين: "فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ

كَرَّتَيْنِ" والاستفهام الإنكاري في هذا الصدد جاء لتعريف المخاطب أن ذلك المدعي ممتنع عليه وليس من

<sup>1</sup> محمود سليمان ياقوت: علم الجمال اللغوي (المعاني، البيان، الابدع)، ج1، دط، دار المعرفة الجامعية 1995، ص7.

<sup>2</sup> فرنسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ص61.

<sup>3</sup> محمد طاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مجلد 12، ج29، صص8،7.

قدرته<sup>1</sup>. أي ليس بمستطاع المرء مهما أوتي من قدرة ودقة نظر وعلم ومعرفة أن يجد اختلافا في خلق الله. تحمل هذه الأفعال الكلامية إضافة إلى قوة الإنجاز صبغة الإنكار مع اللوم والعتاب: طلب المحاولة (قيام بالفعل)، وطلب المحاولة مرة أخرى (إعادة القيام بالفعل نفسه)، ليثبت الفشل الذريع (تأكيد على فشل الفعل). بتأثير سلمي للمتلقي وإيجابي للمرسل). "يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ". فعل كلامي غير مباشر يبعث بصوت النداء في مستواه العالي: أقر بضعفك يا ابن آدم فإنك لن تجد في خلق الله أي خلل أو فطور.

ترتسم مرة أخرى خارطة دلائل قدرة الله - عز وجل - مع القوة الإنجازية التي تُحوّل الفعل من سياق القول إلى سياق الفعل التي تصبغ عليه صبغة التأدية الفعلية لعمل لساني إنحازي تأثيري، ففي السورة نفسها نستقرئ سلسلة أفعال كلامية مباشرة في قوله تعالى: "أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21)". الملك/ الآية 19، 21.

إن فعل الإخبار يستلزم حسب "سيرل" وجود بعض القواعد كالصدق والنزاهة والقدرة على تقديم دليل على أن الخبر صادق<sup>2</sup>، والخبر في القرآن الكريم وفي الآيات المعانية ثابت الصدق والنزاهة، ودليله أن مرئيات معانية نلاحظها في الوجود الكوني. وفيها إخبار وتنبيه وتذكير يشتمل - كما يقول "الطاهر بن عاشور" - بعجيب خلقة الطير في طيرانها على ضرب من الإطناب لأن الأوصاف الثلاثة المستفادة من قوله: "فوقهم صافات ويقبضن" تصور صورة حركات الطير للسامعين فتنبئهم لدقائق أغفلهم عن تدقيق

<sup>1</sup> الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ص517.  
<sup>2</sup> J. Searle : Sens et expression, P105



النظر فيها نشأتهم بينها من وقت ذهول الإدراك في زمن الصبا... وكم غفل الناس عن دقائق في المخلوقات من الحيوان والجماد ما لو تتبعوه لتجلى لهم منها ما يملأ وصفه الصحف<sup>1</sup>. تجسّدت هذه الرؤية في الخلق الرباني من خلال سلسلة أفعال كلامية تجسّد الاستفهام الإنكاري بأسلوب ردع وزجر ضمنين مع التأكيد من خلال التكرار في كل مرة: أو لم يروا إلى قدرة الله المجسدة في الطائر الذي يطير بجناحين بإرادته. بلى إنهم رأوا لكن رؤية الأعمى للنور؟ ثم من أعانكم في ما ابتغيتموه من مكاسب إن لم يكن الله وحده المعين والمستعان. ومن يرزق الخلق إن أمسك رزقه والنعم كلها بين يدي رحمته.

وعلى النمط نفسه من الإنكار: لوم وتذكير، زجر وتعنيف نستقرئ قوله تعالى في الآية الموالية:

"أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (22) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (23)". الملك/ الآية 22، 23.

احتوت الآيتان بدورهما على ثلاثة أفعال كلامية مباشرة: استفهام إنكاري يردفه استفهام إنكاري آخر، يتبعه أمر. أما الاستفهام الذي يعني حسب تحديد البلاغة العربية: "طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل بأداة خاصة"<sup>2</sup>، فإن لغته الظاهرة تنطق عن لغة الجحود في خلق البشر حلقة سوية مقارنة بالدواب هو المعنى الأولي. الظاهر الذي يفهم من العبارة في قراءتنا الأولى لها. أما معنى المعنى على حد تعريف "الجرجاني"، أي باطن القول ومقصد الخطاب من خلال هذه الكناية فإنما هو تصوير لذلك الذي يرى حقيقة الوجود وحقيقة وجود خالق لهذا الوجود، ذاك من يمشي سويا. أما الآخر فإنه مثل الزواحف تمشي على بطنها فلا ترى ما فوقها، وهو إنما يمشي على وجهه فلا يرى الحقائق المحيطة به ولا يبصر النور الذي يبصر به غيره. فالصنف الأول هم الكفار، والصنف الثاني هم المؤمنون حقا. إنه أسلوب السخرية

<sup>1</sup> محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مجلد 12، جزء 29، ص37.

<sup>2</sup> ابن عبد الله شعيب: الميسر في البلاغة العربية (علم البيان، علم البديع، علم العاني)، دط، دار الهدى، الجزائر، ص191

والتهكم وهو كما يقول "الزرکشي" التهكم "استهزاء بالمخاطب"<sup>1</sup>.

أما الأمر فكان للرسول - صلى الله عليه وسلم - باعتباره متلقيا واقعيًا من الدرجة الأولى في خطاب أمري يقر بالتنفيذ مع الإقرار بنجاح الفعل في الواقع من خلال الطرف الثالث من الأطراف التشكيلية للفعل الكلامي والمسمى بالفعل التأثيري *Perlocutoire* . ورغم السلطة التي يتمتع بها النبي - صلى الله عليه وسلم - على وجه الأرض بين صحابته وبين كل المسلمين باعتباره المختار والمصطفى فإنه وفي مقام خطاب رب العالمين، رب الخلق أجمعين يكون هو المأمور الأول وعليه واجب الالتزام بسلطة الأمر الموجهة نحوه. وينعدم الحوار إطلاقًا حين ينتزل الخطاب هذه المنزلة: أمر بمأمور. فالخطاب الرباني لا ينتقد ولا يراجع ولا يعارض. ويعطيه هذه المكانة في السلم المؤسساتي إيمان المؤمن بأنه كلام رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أي تتحكم في قيمته وقديسيته قناعات الفرد فتكسبه هذا الغطاء من التعالي والتسامي والتنزه والتفرد. والخطاب الديني يحمل قدسية في ذاته ومن خلال قناعات المؤمن به، لذلك فالفعل التأثيري يختلف في السورة الواحدة، وفي الآية الواحدة من متلق إلى آخر.

يتواصل الخطاب القرآني مع أفعال كلامية تابعة ومنبثقة عن الفعل الأصل بأمر حوّل وجهة الخطاب بشكل تام. فرغم سلطة الأفعال الكلامية المباشرة التي تظهرت مع الاستفهام الإنكاري فإن هذين الفعلين الكلاميين ينضويان تحت فعل كلامي غير مباشر جاء تابعا وشارحا: "قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ". والتقدير "أشكروه!" فعل كلامي غير مباشر مفاده: أشكروه على نعمة السمع والبصر، وأشكروه بدءا على نعمة الإسلام.

وفي تحديد "سيرل" لمعنى الفعل الكلامي غير المباشر أقر أن هناك من الأقوال ما يتوفر على تطابق

<sup>1</sup> الزرکشي: البرهان في علوم القرآن، ص462.

تام بين معنى الجملة ومعنى القول، وهذا النوع من الفعل هو الذي يعتبره "سيرل" فعلا كلاميا مباشرا كما أكد على ذلك في كتابه الموسوم بـ "Sens et expression". فحين يقول القاضي في المحكمة أعلن عن افتتاح الجلسة (وهذا المثال كثيرا ما يتكرر عند كل المشتغلين بنظرية الفعل الكلامي فهو قريب جدا لتجسيد فهم توافق القول بالفعل في نظرية الفعل الكلامي) فإن قول القاضي هو إعلان عن افتتاح الجلسة فعلا، وبداية أشغال الحكم، لا يمكن في أي حال أن نفهم شيئا آخر غير هذا، لأنه يتوفر لهذا الفعل المنجز سمة التواضع والاصطلاح، شريطة أن يكون المتكلم فعلا قاضيا وتكون هناك محكمة ومحكمة. وفي كل الأفعال الكلامية المباشرة نجد هذا التجسيد لسمة التواضع والطقوسية التي تتحكم فيها السلطة المؤسساتية. أما قولي: أعدك بأنني سأزورك غدا مساء، فهو فعل الوعد، يقتضي تحقيقه سلسلة مشكلة من أربعة أفعال كلامية - كما مرّ بنا سابقا - ولا يمكن أن نفهم الجملة إلا باعتبارها وعدا بالزيارة. إن الوعد صادر من مرسل نحو متلقٍ تحكهما علاقة خاصة كأن يكونا صديقين أو قريبين. أما إن كان السياق غير هذا كأن يصدر القول من مجرم نحو شرطي يتبعه فإن الفعل لن يعني في هذه الحالة القول كما ورد، إنما يعني شيئا آخر، فالوعد بالزيارة في هذه الحالة يعني التهديد. والمقصد الأقرب: أي أعدك بأنني سأفتك بك غدا مساء. فالوعد بقي وعدا لكن القول بالزيارة تحول إلى فعل التهديد. والذي استخلصنا معناه من خلال معرفتنا بالمرسل والمتلقي والسياق المحيط بهما. إنه "حين يكون الأمر بسيطا يتلفظ المتكلم بجملة ليقصد الدلالة بالضبط على ما يقوله حرفيا، أما حين تتعدد الأمور فإن معنى الجملة كما هي والمعنى الذي يتلفظ به المتكلم يتوقفان عن التغطية. وندخل من ثم في عالم هو بالأحرى العالم السحري الذي تكون مظاهره شراكا، إذ ينزلق تحت العشب الأخضر ثعبان السخرية والإيحاء والتلميح ومضمرات الالتباس والمعاني المزدوجة. وهكذا يجتمع التأدب الرهيف والتهمك الماكر، وتتكون طبقة مهمة لهذه الحالات عند

أولئك الذين يتلفظ أحدهم بجملة يريد أن يقول بها بالضبط ما يقول، ويريد أن يقول كذلك شيئاً آخر<sup>1</sup>.

فعل كلامي آخر يتجلى تحت غطاءه نداء التأمل في عظمة خلق الله نرى كيف تبدلت أقطاب

التواصل لسيرة خطاب جزئي داخل خطاب كلي، وهي الحوارية التي كانت بين النبي "نوح" عليه السلام

والمولى تبارك وتعالى ليصير المرسل متلقياً والمتلقي مرسلًا. يقول تعالى على لسان النبي "نوح" عليه السلام:

"ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ

كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَاتٍ

وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ

خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16) وَاللَّهُ

أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ

بَسَاطًا (19) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (20)". نوح/الآية 8، 20.

ورد في تفسير "الزمخشري" أن نوحا عليه السلام أمر قومه بالاستغفار، أي "التوبة عن الكفر

والمعاصي، وقدم إليهم الموعود بما هو أوقع في نفوسهم، وأحب إليهم من المنافع الحاضرة والفوائد العاجلة،

ترغيباً في الإيمان وبركاته والطاعة ونتائجها من خير الدارين<sup>2</sup>.

إنه نداء إلى كشف حجب الضلال، نداء إلى الإيمان بالله وعبادته وحده، بالتذكير بنعمه وآلائه

وعظمة خلقه وسعة ملكوته وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما يقوله "أوستين" أن اللغة درست في ذاتها بكثير

من العمق، وهي اليوم يستلزم أن تدرس من أجل حقيقة أخرى هي حقيقتنا نحن كأشخاص نتكلم<sup>3</sup>. فإننا

<sup>1</sup> فرنسواز أرمينيكو: المقاربة التداولية، ص 71.

<sup>2</sup> أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي: الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل، شرح وضبط يوسف الحمادي، ج4، ط1، مكتبة مصر، القاهرة 2010، ص.ص 525، 526.

<sup>3</sup> J.L.Oustin, Quand dire, c'est faire, introduction : Gilles Lane, Editions du Seuil, 1970, P12

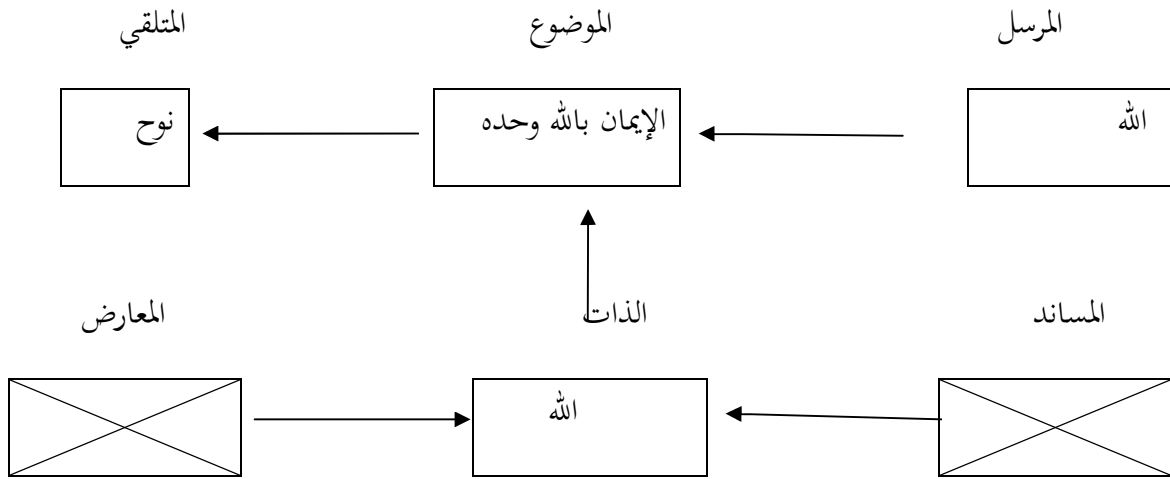
## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

نفهم ذلك النداء الذي ترسله تلك الروح الطاهرة، نداء يبعث به نبي ظلم واضطهد. وقد استولى عليه اليأس من طول ما دعاهم واشتكاهم إلى خالقه، وهو يسرد على المولى قصة دعوته وتذكيره لهم وهم كالأنعام لا يفقهون قيلا.

إن سلطة الفعل الكلامي في هذا الخطاب الحواري الذي يضم ثلاثة أقطاب: الله تعالى ونوح عليه

السلام وقوم نوح عليه السلام وفق الترسيمتين التاليتين:

### ترسيمة (1)

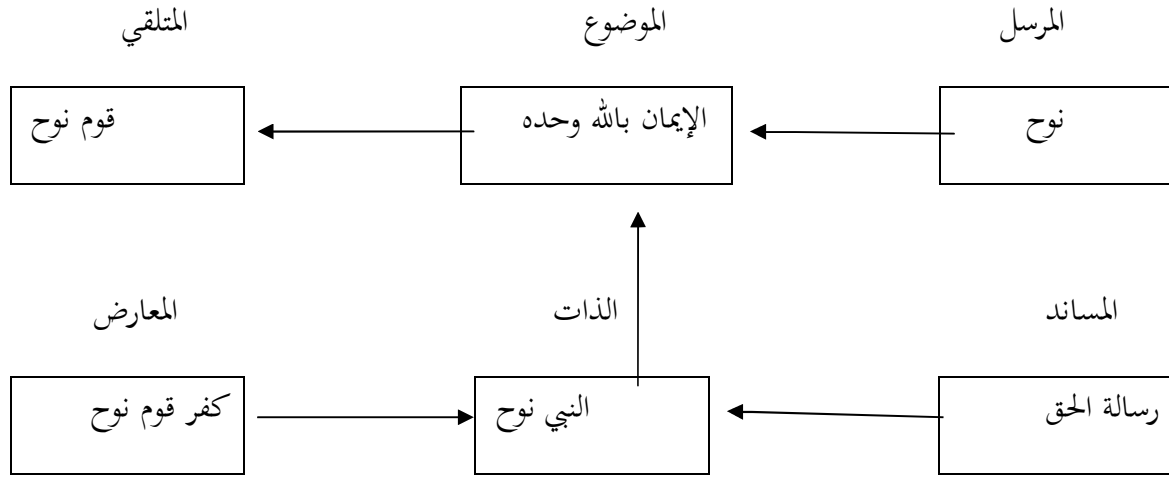


إن خانتتي المساند والمعارض فارغتان، لأن الله سبحانه وتعالى أمره بين الكاف والنون وإذا أراد شيئا

فإنما يقول له كن فيكون، لذا لن يحتاج إلى مساندة أو مساعدة بشرية أو غيرها، ولن يعيق أراذته وفعله أي

قوة كونية مهما كان شأنها.

ترسيمة (2)



يسرد "نوح" . عليه السلام . على الخالق تبارك وتعالى قصته مع قومه الذين اختاروا العصيان وقد أمره الله جل شأنه بدعوتهم إلى دين الحق، بأسلوب حوارى بالغ التأثير. مع العلم أن القصد من دراسة أسلوب الحوار هو اكتشاف القوانين الحاكمة لانتظام النصوص والملفوظات التي تتخذ من الحوار شكلا لها<sup>1</sup>. فكان الطلب أول فعل كلامي يتجه به خطاب نوح عليه السلام نحو قومه: "فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا"، يتبع ب: "مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا" حيث تحول الفعل الكلامي من الطلب إلى اللوم والعتاب، فلسان حال "نوح" عليه السلام يقول مبرئا نفسه من قومه أمام خالقه: فكيف بعد هذا كله مما قلته ومما كان من دلائل نعمه جل وعلا وبراهين وحدانيته تكفرون به. إنها فعلة لا يفعلها إلا أراذل القوم.

وتتتابع سلسلة الأفعال الإنشائية بلغة العرب التي تثبت الإنجاز، فبعد اللوم والعتاب يأتي صوت الاستفهام الإنكاري: "أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا" إنكار أن يكون هؤلاء القوم لا يرون قدرات الله المحيطة بهم، وهذا ما تثبته الآيات التابعة التي تصف قدرة الله الذي خلق السماوات والأرض

J. M. Adam : les textes : types et prototypes, Armand Colin, Paris, 2011, P153 <sup>1</sup>

والشمس والقمر، وخلق البشر من تراب وخلق الأرض وجعلها بساطا مستويا للماشي والراكب يتحركون فيها كيفما شاءوا.

فعل كلامي واحد يجسد الاستفهام الإنكاري مستغريا تحجر عقول أقوام يرون الحق ولا يرونه ويصرون الطريق لكن لا يبصرونه، لكن بقدر ما يجسد هذا الخطاب اللوم والاستغراب فإنه يعبر أيضا عن الغضب. وما تكرر "نوح". عليه السلام. على الله أنه أدى الأمانة وبلغ الرسالة إلا تأكيدا وإقرارا بالهزيمة في هداية هؤلاء الأقوام. والتأكيد من أفعال العرض عند "أوستين" وهو من أفعال الإثبات عند "سيرل"<sup>1</sup>.

إن هذه الآيات من سورة "نوح" ترسم معلما واضحا من معالم قدرة الله في الخلق، وعظمته في تصويب الملكوت بثلاثة أفعال كلامية كانت كافية لرسم صورة هذا الخطاب الإعجازي.

تتواصل صورة التأمل في الآفاق بفعل كلامي مباشر في هذه الآيات من سورة "المرسلات" يقول المولى تبارك وتعالى: "أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25) أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا (26) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (27)" المرسلات/ الآية 25، 27.

رغم وجود أداة الاستفهام (ألم) فإن الله سبحانه وتعالى لا يستفهم بل يؤكد، فصورة الفعل الكلامي هي "لقد جعلنا الأرض كفاتا أحياء وأمواتا"، حيث خرج الاستفهام عن غرضه الذي كان له في الأصل إلى غرض غير مباشر وهو التأكيد. وهذا النوع من الأفعال الكلامية صنفه "سيرل" ضمن لائحة أفعال الإثبات، وأفعال الإثبات "غايته الكلامية تكمن في جعل المتكلم مسؤولا عن وجود وضع للأشياء"<sup>2</sup>، ويثبت وقع هذا التأكيد باستهلال السورة بالقسم، إذ أركان الآيات كلها ترتبط به، أي بقوله

<sup>1</sup> عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء المنهج التداولي، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر 2003، ص160.  
<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص160.

## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

تعالى: ( والمرسلات عرفا)، والقسم في الخطاب القرآني كما يقول "الزركشي": "لفظه لفظ الخبر، ومعناه الإنشاء والالتزام بفعل المحلوف عليه أو تركه وليس بإخبار عن شيء وقع أو لا يقع، وإن كان لفظه لفظ المضى أو الاستقبال، وفائدته تحقق الجواب عند السامع وتأكده ليزول عنه التردد فيه"<sup>1</sup>. إن خطابه يقر بأن الله هو الخالق ووجوده ظاهر من خلال هذه الآيات البيّنات. فهل يعقل أن يكون مثل هذا التصميم الذي تصفه السورة إنما هو بناء صدفة؟ وهذه الآيات التي وعد الله أن يرينا إياها في الآفاق إنما هي صورة عن خلق وُجد من دون موجد؟

بالأسلوب نفسه وبالبدعائم الأسلوبية نفسها ترسم مرة أخرى صورة للتأمل في خلق الله، فكانت الآيات نسيجا للتأمل في بديع صنعه وملكوته وقدرته جل وعلا في سورة "النازعات": "أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (33)". النازعات/ الآية 27، 33.

يتكرر في هذه الآيات الفعل الكلامي، وككل مرة دوره إنكار أن يكون لأحد قدرة على الخلق مثل خلقه جل وعلا. فقد بنا السماء ورفعها من غير عمد، وجعل الليل سكنا ومنه كان النهار والضحى. وبسط الأرض وأخرج منها الرزق العميم، وخلق الجبال الثوابت لتكون شاهدة على عظيم قدرته وجلال قوته. إنه فعل كلامي يفيد الإنكار أن يكون لأحد قدرة على هذه الصناعة، أو على جزء من هذه الصناعة. إنه إنكار إذن، والاستفهام الإنكاري كثيرا ما يتكرر في القرآن الكريم وهو دائما يكون إنكاريا حين يكون مرسله هو الله - جل وعلا - بغض النظر عن المتلقي سواء أكان نبيا مرسلا أو مؤمنا طائعا أو

<sup>1</sup> الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ص542.



جاحدا كافرا. لأن علم الله وسعة مداركه لا تحدها حدود. فمن غير المعقول أن ننتظر منه - جل وعلا - أن يطرح سؤالاً طالبا للإجابة منتظرا الرد على خبر يجهله.

ثم كان الأمر بصيغة الاستفهام في قوله تعالى: "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20)" بإقرار ضمني مفاده أنظروا إلى الإبل كيف خلقت، وانظروا إلى السماء كيف رفعت، وانظروا إلى الجبال كيف نصبت، وانظروا إلى الأرض كيف سطحت. فهو أمر بصيغة الاستفهام يدعو إلى التدبر وإعمال الفكر، إنه ليس مجرد تأدية لغوية تواصلية بل هو تأدية إنجازية تحقق الفعل من خلالها بالقوة "فالحقيقة الوحيدة التي تسند إليها الأفعال الكلامية هي الإنجاز"<sup>1</sup>.

تتواصل سلسلة الأفعال الكلامية المباشرة وغير المباشرة مبيّنة عظمة الله المجسدة في الصورة الكونية التي تحيط بالبشر والمجسدة في خلقه للبشر أنفسهم.. صورة خلق الإنسان، تكوينه من عدم، نفخ الروح، أطوار النشأة داخل الرحم ثم مراحل النمو. نواميس عجيبة من خلق الله لا يصنعها إلا الله، ووجود إعجازي رباني لا تستطيعه أيدي البشر مهما أوتيت من علم ومعرفة وتحضر ورقي، يظل سر الخلق من أسرار الخالق. هي محطة أخرى من دلائل قدرته سبحانه وتعالى المستقرأة من خلال هذين الجزأين: "سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ" فصلت/ الآية 53.

فكان في "وفي أنفسهم" ما كان في أوائل سورة الإنسان التي استهلكت بفعل كلامي مباشر الذي يجسد الاستفهام الإنكاري، فالله عنده علم كل شيء وهو لا يحتاج جوابا حين يسأل، لذلك نرى أن أغلب أنواع الاستفهام الوارد في الخطاب القرآني حين يكون المستفهم هو الله تعالى يكون إنكاريا. إنه لا

<sup>1</sup> عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء المنهج التداولي، ص 157.

يطلب الرد ولا ينتظر الجواب إنما يقصد به التوبيخ أو الزجر أو اللوم والعتاب: " هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2)". إن قدرة الله تعالى ليس فقط بما خلقه من كون واسع يحيط بالخلق، ليس فقط بروعة التصوير وجمال التصميم الرباني لما هو منتشر في الآفاق من ضخامة الجبال وعلو السماء وعمق البحار وانسباط الأرض وتنوع الحيوانات من كبار إلى صغار إلى صغار الصغار، بل هناك ما هو أكبر وأجل وأعظم خلقا وأكبر إعجازا.. إنه خلق الإنسان، كيف صار موجودا قبل أن يكون شيئا مذكورا، عظمة خلق البشر من ماء مهين ليصير بعد زمن بشرا يسمع ويعقل ويتحرك.

إن قصة خلق الإنسان من عدم في هذا المقام كانت بصيغة الاستفهام الإنكاري، وغرضه لفت الانتباه من جهة، والتوبيخ على التعنت ورفض الإذعان لصوت الحق من جهة ثانية. فعل كلامي يضم معنى إيحائيا، فالمقصد من القول: "إنك لم تكن شيئا مذكورا أيا أيها الإنسان". فعل كلامي غير مباشر، تذكير وتوبيخ، خروج عن ظاهر القول وغوص في باطنه من خلال ما تحمله أساليب اللغة العربية من تصرف في القول يحكمه منطق المقابلة وبلغة الأعراب "لكل مقام مقال". يتضح القول من خلال الآية التابعة، وهي عبارة عن تفصيل للفعل الكلامي السابق غير المباشر: أن الإنسان مخلوق من نطفة أمشاج، وهو نداء رباني مفاده: "آمن بالذي خلقك من عدم. استخدم حواسك لترى الحقيقة التي تنكر. إن خلقك وخلق النفس البشرية وبعث الروح هي من أكبر المعجزات الدالة على قدرة الله وعلى وجوده الحق تبارك وتعالى.

والصورة نفسها تحويها آيات من سورة "المرسلات" في حديث الفعل الكلامي عن تجليات قدرة الله سبحانه وتعالى ومظاهر عظمته الذي يتجلى في خلقه النفس البشرية: "أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22)".

وككل مرة، وصف حالة وإقرار واقع من خلال فعل كلامي مباشر. إنه الاستفهام الإنكاري الذي يتكرر في كل مرة. صوت اللوم والعتاب وآخر للزجر والوعيد، إنه مقام التوبيخ والتفريع كما يقول بذلك "الطاهر بن عاشور". والتقرير والتفريع في مقتضيات ترك العطف لشبهه بالتكرير، فهو ليس تكرير لفظ لكنه تكرير معنى، والتكرير شبيه بالأعداد المسرودة لذا واجب فيه ترك العطف فيه، وقد جاء التقرير هنا على ثبوت الإيجاد بعد العدم ليدل على كمال الحكمة والقدرة ليفضي بذلك التقرير إلى التوبيخ على إنكار البعث والإعادة وإلى إثبات البعث بإمكانه بإعادة الخلق كما بدئ أول مرة، وكفى بذلك مرجحا لوقوع هذا الأمر الذي يعتقده الجاحدون مستحيلا، لأن القدرة تجري على وفق الإرادة بترجيح جانب إيجاد الممكن على عدمه، رسالة من أهل السماء إلى سكان الأرض<sup>1</sup>.

أفعال كلامية متتالية ضمنية فتقدير القول: ألم نخلقكم من ماء مهين؟ ألم نجعل ذلك الماء المهين في قرار مكين، ألسنا نحن من قدرنا وإنا لنعم القادرون. وصورة الإعجاز في خلق النفس البشرية، "ألم نخلقكم من ماء مهين": "كناية رمزية عن عظيم قدرة الله تعالى إذ خلق الخلق من هذا الماء الضعيف إنسانا شديد القوة عقلا وجسما"<sup>2</sup>. هو فعل كلامي إذن يقصد إلى إعطاء صوت قوي يسكب على حقيقة وجود خالق لهذا الكون من خلال البراهين والأدلة العقلية والمنطقية. إن خلق النفس وبث الروح من أكبر دلائل إعجاز الله. يقول تعالى: "وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)

<sup>1</sup> الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مجلد 15، ج 29، ص 430.  
<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 431.

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ". والقسم من الأفعال الكلامية القوية والتي تحقق الإنجاز، إذ ينجر عنه باعتباره كلاماً إنشائياً تحقيق لفعل القسم الذي يمارس قوة على المتخاطبين. إن قوة القسم في كونه يؤكد الإثبات والتأكيد على شيء، ولأن القسم من الله فهو يحمل دلالة تكريم هذا الإنسان، حيث أعطى له المكانة والتقويم الذي يجعل حتى أقدس سلطة وهي السلطة الربانية تقسم له على أنه مخلوق الله المفضل على سائر مخلوقاته، والمنعم عليه نعماً أجل من كل النعم التي أعطيت لبقية مخلوقاته. لقد فضله الله على الموجودات وعلى سائر المخلوقات لقبوله حمل عبء الأمانة: "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72)" الأحزاب. فحتى وإن لم يكن في مستوى تأدية هذه الأمانة فإنه حملها، لهذا فالمؤمن الصالح من بني البشر أسمى وأكرم من الملائكة التي خلقت في أصلها من أجل الطاعة.

وكانت الآيات الأولى من سورة "العلق" أول آيات تنزل على قلب النبي . صلى الله عليه وسلم .  
وكما هو معلوم فإنها تدعو إلى القراءة: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2)  
اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)".

فعل كلامي أمري غرضه وجوب الالتزام وهو الفعل الكلامي نفسه الذي يعطي لنا بدوره ومرة أخرى صورة عن قدرة الله العظمى التي تتجلى في الخلق. كيفية خلق الإنسان من علق. ولعظمة أمر الخلق، عظمة الله في تمديد النسل البشري بطريقة عجيبة وغريبة ومحيرة ومعجزة، قرن الله هذه الآية بآية التعلم والقراءة. أمر - صلى الله عليه وسلم - أن يقرأ الكتاب (القرآن العظيم) فكانت عظمة هذا الكتاب، مرتبطة بعظمة خلق الإنسان. فعل كلامي أمري، والمتلقي واضح وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم - وجه إليه الخطاب مباشرة. مع العلم وكما أشرنا إلى ذلك سالفاً أن العبرة بعموم اللفظ لا

بخصوص السبب، "فقد يكون السبب خاصا والصيغة عامة لينبّه على أن العبرة بعموم اللفظ"<sup>1</sup>. فالرسول - صلى الله عليه وسلم - متلق من الدرجة الأولى، والجمهور الكوني (العالمين من البشر) متلق من الدرجة الثانية. والأمر يظل أمرا لكلا الصنفين وتبقى درجة نجاح الفعل الكلامي هي التي تختلف ما بين تأكيد نجاحها مع المتلقي الأول ويظل قبولها وتأثيرها على الجمهور الكوني نسبيا منذ النزول إلى اليوم ما بين القابل والرافض، الجاحد والعاصي والمنكر لها أصلا.

أما في سورة "عبس" فكان دعاء الله على الكافرين الجاحدين: "قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (19)".

هناك معان في القرآن تصلح لموقف ولا تصلح لموقف آخر، وهناك كلمات لا يراد بها معناها اللغوي وإنما يراد بها معان أخرى يتطلبها المقام، ومنها الدعاء على جهة الذم فلا يراد به الوقوع، كقوله تعالى "قتل الخراصون" وقوله "قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ"<sup>2</sup>. ما أحقرك أيها الإنسان! ما أحقرك مرتين! حين خلقت وكان خلقك من نطفة.. من ماء مهين. وحين تكبرت وتجبرت على خالقك مقرًا برفضك الإيمان ورفضك الإذعان لصوت الحق. إنه فعل كلامي غير مباشر، دعاء وتعجب ثم استفهام إنكاري لغرض التحقير. والتحقير "هدفه الإزراء بالمخاطب والتقليل من شأنه وقدراته"<sup>3</sup>، متبوع جواب استفهام في ثلاث مركبات جمالية بسيطة كانت كافية لبث صوت اللوم والغضب والزجر والتهديد الضمني بسلطة للفعل الكلامي المتحقق من خلال قيمة الخطاب في حد ذاته، والفعل التأثيري بالنظر إلى واقع تلقي الخطاب الذي يسكب صوت القبول والانبساط الواسع لصوت الحق .

<sup>1</sup> الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ص 33.

<sup>2</sup> فتحي أحمد عامر: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، ص.ص 32، 33.

<sup>3</sup> محمد سليمان ياقوت، علم الجمال اللغوي، ج1، ص430.

كان نداء التأمل في عظمة خلق الله عز وجل، وكان النداء بإقرار أحقيته بالعبودية والألوهية من خلال محور يجسد سلطة أمرية تدعو إلى التأمل في خلق الله بما كان له من صنع وتديير في الآفاق وفي أنفس البشر.

1 - 2 - إقرار حقيقة البعث : يقر القرآن المكي في عمومه حقيقة عظمى هي حقيقة الحياة بعد الموت، وجود آخر وعالم آخر إليه يكون مآل الإنسان بعد رحلته مع العالم الدنيوي، ذلك هو يوم القيامة، يوم الحساب، يوم يصنف بني البشر في زمرتين واحدة للجنان وأخرى للنيران جزاء بما كسبتا. إنه التأكيد على هذه الحقيقة الكبرى والتأكيدات Assertifs تجعل المتكلم ينحرف (بدرجات مختلفة) في حقيقة القضايا المعبر عنها، على أن يكون شيء ما حالة بالفعل لتعين قيم الحقيقي والخاطئ فنجد أن الكلمات تجهد نفسها لمطابقة الواقع<sup>1</sup>.

إنها الحقيقة العظمى التي يكذب بها الكافرون، وقد جعلها الإسلام ركنا من أركانه، فمن شاء أن يؤمن فعليه أن يؤمن باليوم الآخر. هي دعامة أخرى من كبار الدعائم تصنف بني البشر إما في سلك المؤمنين الطيبين أصحاب اليمين، وإما في سلك الكفار الجاحدين أصحاب الشمال.

وإنه مستوى أساسي يتكرر وروده في القرآن المكي عموما وفي جزء المفصل خصوصا، تكرر لا تعدمه أية سورة من سور هذين الجزأين بأفعال كلامية مباشرة وغير مباشرة، وإن كان الخطاب في صورته العامة خبريا لكنه يحمل في كل مرة رسالة ضمنية ويتولى الفعل الكلامي شرح هذا الخطاب لحياة أخرى لبني البشر.

<sup>1</sup> فرنسواز أرمينيكو: المقاربة التداولية، ص67

## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

كان الإقرار بحقيقة البعث والنشور نفهمه من خلال السياق النصي والمقامي و سنوضحه من خلال ارتباط آي القرآن ببعضها البعض. فعل كلامي غير مباشر هو أمر "وهو صيغة تستدعي الفعل أو قول ينبئ عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء"<sup>1</sup>، يتضمن صريح الأمر بالالتزام ويتضمن التنبيه والتحذير والتخويف. كما نستقرئ سلسلة أفعال كلامية مباشرة متعددة الأصناف وإن تجسدت خاصة في القسم والاستفهام، فكان القسم دائما يعطي الصورة التأكيدية على وجود البعث، وكان الاستفهام في أغلبه إنكارا أن يكون هناك حساب بعد عمل وجزاء بعد طول اختبار .

يقول تعالى في سورة الملك: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ الْمَصِيرُ (6) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (9) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10)" الملك/ الآية 6، 10.

وأما قوله: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ الْمَصِيرُ" فيجسد فعلا كلاميا غير مباشر مفاده إياكم والكفران! لأن الله لا يتمتع الله بتعذيب عباده وهو القائل في حديث قدسي: "يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي. يا ابن آدم: لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي. يا ابن آدم: إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة"<sup>2</sup>. ثم ألم يرسل الرسل حاملين على أعناقهم رسالة الدعوة والتبليغ ليعلموا الناس ويعلموهم بالحقيقة.. حقيقة وجود خالق لهذه الأكوان وحقيقة الحياة بعد الموت وحقيقة الجنة والنار؟

<sup>1</sup> محمود سليمان ياقوت: علم الجمال اللغوي، ج1، ص42  
<sup>2</sup> أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي: الجامع الصحيح، تحق وتعلق إبراهيم عطوة عوض، ج5، ط2، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1962، باب في فضل التوبة والاستغفار، رقم الحديث 3540، ص548.

وداخل هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة، وفي نزل العذاب تتضح صورة الخزي والمذلة، نقرأ مشهدا حواريا بين ملائكة العذاب وأهل الجحيم، حوار يحمل في طياته صوت اللوم والعتاب من قبل الملائكة وصوت المذلة والحسرة لأهل السعير. ويُسم الحوار بسلسلة أفعال كلامية استهلّت باستفهام ملائكة العذاب عن سبب دخول أهل النارِ النارِ بقولهم: "أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ". إنه استفهام، والاستفهام من الأفعال الكلامية التي التبس تحديدها على "أوستين" و اعتبرها "سيرل" جزءا من أفعال التوجيه<sup>1</sup>، وفي "البرهان" أن الهمزة في الخطاب القرآني لها خصوصية ف"لا يُستفهم بها حتى يهجس في النفس إثبات ما يستفهم عنه بخلاف "هل" فإنه لا ترجح عنده بنفي أو إثبات"<sup>2</sup>. ولكن الاستفهام في الخطاب القرآني يحمل خصوصية وموضعا متميزا في كل مرة بالنظر إلى السائل الذي تكون معرفته أكبر من معرفة المسؤول. فهل يخفى على الملائكة أن الله قد أرسل النذر؟ وهل يخفى عليها أن الله ليس بظلام للعبيد؟ حقيقة الاستفهام إقرار بأن الله قد أرسل النذير. ليجيب أهل الجحود والضلال: "وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ" إنه اعتراف مؤكد. والاعتراف من الأفعال الكلامية المدرجة في سلك لائحة الأفعال التمرسية حسب تصنيف "أوستين" وتقوم على إصدار قرار لصالح أو ضد<sup>3</sup>. لكنه هنا اعتراف مقرون بالاستغاثة. وهذا من دلائل إعجاز الخطاب القرآني، تداخل الأفعال الكلامية وتعدد مقاصدها، والفعل واحد حين يكون غير مباشر. كما الشأن في هذا المقام. فعل كلامي اعتراف ويأس واستغاثة في الآن ذاته. لكن تحقق الفعل الكلامي التأثيري كان سلبيا بالنظر إلى المتلقي (الكفار) حيث لم ينجح فعل الاستغاثة في الواقع لأنه جاء متأخرا، وتؤكد عدم النجاح من خلال الآية الأخيرة التي يختتم بها المشهد الحوارية داخل حلبة الجحيم بتحول الخطاب إلى السلطة الإلهية مباشرة "فَسُخِّقُوا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ" دعاء من الله على الكفار بتحول في السلم التراتبي، إذ إن الدعاء يكون من الأقل رتبة في السلم

<sup>1</sup> عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء المنهج التداولي، ص 162.

<sup>2</sup> الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ص 527.

<sup>3</sup> فرنسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ص 62.



## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

المؤسساتي نحو الأعلى رتبة. والدعاء في الأصل إنما يصعد من بني البشر إلى الله، ولكن هنا الله هو الذي يدعو على أصحاب السعير: دعاء فعلي إنجازي متحقق: أدعو عليكم بالسحق لا كلاما ولكن عملا تتذوقونه. فتحقق الفعل الكلامي بإنجازية ناجحة فلا توبة لكم اليوم ولا غفران ولا مخرج لكم ولا نصير.

وفي السورة نفسها نرى كيف يتكرر مشهد يوم القيامة بسلسلة أفعال كلامية متتالية مفادها الاستفهام عن حقيقة وجود الآخرة والوعد الحق: "وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (26) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (27)".

استفهام حقيقي بقولهم "متى هذا الوعد" مستعمل في التهكم فمن عادة الجاحدين الاستهزاء بالوعد الحق<sup>1</sup>، يقر فعلا كلاميا هو سؤال عن الوعد الحق متى هو؟ سؤال مفاده هل لكم من حجة تجعلنا نتيقن فعلا بأنه هناك يوم القيامة، يوم الجزاء والحساب؟ ولأن المقام مقام حوارى بحضور وهمي لأقطاب التواصل الذين يفعلون مسار تحقق الفعل الإنجازي، بعد الاستفهام يتحول الخطاب من الكفار إلى الله بأمر موجه نحو النبي - صلى الله عليه وسلم - برسالة تربوية توجيهية تلقنه فن الحوار والرد والتبليغ قائلا "قل يا محمد" فالأمر هو الله والمأمور هو النبي الكريم - عليه الصلاة والسلام - ويجب أن يكون ثمة التزام بالأمر لأن الله صاحب السلطة العليا أعز مقاما وأجل شأنًا، وأوامره تنفذ دون رد أو رجوع، والأخص حين يكون المأمور هو الرسول - صلى الله عليه وسلم - النذير المبين لا حكم له بعد حكم الله تعالى ولا تدبير له مع تدبير الله ليختتم بفعل كلامي غير مباشر حين ترسم صورة البعث الذي يكذبون به أمام الناظرين وتقدير الأمر: "أنظروا إلى المشهد الذي كنتم به تكذبون".

<sup>1</sup> محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مجلد 12، ج 29، ص 49.

مشاهد ليوم القيامة تتكرر وصور للبعث والنشور ترتسم أمام مخيلة القارئ وصور تناجي حوارات جلية وخفية يظهرها الفعل الكلامي الذي يجسد قوة التحقق بما له من سلطة مؤسساتية مقدسة كلها تنهج نهجا واحدا وتعبّر بصوت واحد: إن الآخرة حق. فكما أن الموت والحياة حق فإن الحياة بعد الموت حق. والجنة حق والنار حق لا مرية ولا مرء فيها، بصوت يتراوح ما بين الهدوء والغضب.

وعلى المعلم نفسه بأفعال كلامية مباشرة كان منظر يوم القيامة باستفهام ودائما لن يكون للسؤال حين يكون على لسان رب العزة إذ سلطة القدرة الإلهية أثبتت بدهامة أن علمه وسع كل شيء: "يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19)" غافر، له علم كل شيء متى كان ومتى يكون والذي لم يكن لو كان كيف كان سيكون. فمن البديهي كما أسلفنا الذكر أن الاستفهام في القرآن الكريم إنما هو استفهام إنكاري، فهو بعيد كل البعد عن السؤال الذي ينتظر الجواب لأنه من قبل علام الغيوب وعالم بجزايا النفوس.

فعلان كلاميان مباشران متتابعان: "الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3)". استفهام "ما الحاققة" واستفهام ثان تابع له مؤكد على فعل السؤال بأداة أكثر قوة: "وما أدراك ما الحاققة". فعل كلامي يثبت مقام التعجب والتهويل والتأكيد على وعد الله بحضور بني البشر ليوم عظيم هو يوم الحاققة، يوم البعث والنشور، هيئوا أنفسكم وانتظروا وعد الله الحق، كان التكرار لتأكيد مقام التهويل علما أن التوكيد صنف من أضرب الخبر وله الدرجة الثالثة في القوة بالنظر إلى المخاطب الذي يكون منكرا للحكم فيضطر الخطاب إلى تأكيد الخبر بمؤكدتين أو أكثر<sup>1</sup>. فكان التكرار هنا للفظ الحاققة ثلاث مرات ضرب من التأكيد القوي على وقوعها ووجودها.

<sup>1</sup> ابن عبد الله شعيب: الميسر في البلاغة العربية، ص160.

والصورة نفسها ترسمها الآيات الأولى من سورة "المعارج" على أن الفعل الكلامي غير مباشر، استفهام بصيغة خبر على لسان بني آدم: "سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقِيعٍ (1) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (2) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (3) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (5) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (7) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (8) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (9) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (10)" المعارج / الآية 1، 10.

عن "قتادة": سأل سائل عن عذاب الله على من ينزل وبمن يقع؟ فنزلت على هذا الوجه مضمن معنى غني واهتم<sup>1</sup>. فأول فعل كلامي ينضوي تحت هذه المركبة من الآيات هو الاستفهام غير المباشر بتقدير ضمني مفاده هل حقا سنصاب بعذاب، بتقدير تقريبي أكثر من خلال مستوى التأويل السطحي المحدود بحدود الفهم من خلال السياق النصي. هل فعلا يوجد بعث وحياة بعد الموت؟ والسؤال هنا بدوره وإن كان المرسل هو بشر حيث تسقط عنه صفة التنزه والقدرة، لكن يبقى الاستفهام بدوره إنكارا، فهذا الجاحد إنما ينكر وجود البعث من خلال هذا الاستفهام غير المباشر. ثم يحمل التحقيق إثبات هذه الحقيقة بخطاب سماوي أعلى من خلال إعادة سرد الاستفهام غير المباشر ليصير في هذه الحالة إنذار مفاده: إياكم والنكران! فالآخرة حق، والويل الذي سيدوقه الكافرون حق. ثم تتوقف سلطة الفعل الكلامي فاسحة المجال إلى وصف ذلك اليوم الرهيب، ليتبع بعدها مباشرة بفعل كلامي مباشر وقوي خارج عن دائرة وصف الآخرة وإقرار حقيقة البعث والنشور. لتتبع الآية بعد ذلك مباشرة بفعل كلامي موجه من الله كمرسل نحو الرسول الكريم. عليه الصلاة والسلام. كمتلق واقعي: "فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا". إن استعجال الكفار بالعذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله - صلى الله عليه وسلم - والتكذيب بالوحي وكان ذلك

<sup>1</sup> الزمخشري: الكشاف، ج4، ص518.

## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

مما يضجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأمر بالصبر عليه<sup>1</sup>. إنه أمر واضح ومباشر، اصبر يا محمد على كفر الكفار وظلم الظلام وجحود الجاحدين وتعب الدعوة. اصبر على أن يكون صبرك جميلاً، قويا، لا يشوبه فتور أو حقد. ودرجة تحقق الفعل في الواقع يثبت نجاحه ليس بنجاح الدعوة فقط ولكن بما اتسم به الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام - من حسن خلقي جعله بهجة قلوب كل المسلمين.

يعود المقام بالخطاب مرة أخرى مع السورة نفسها ومع الآيات التوابع إلى وصف الآخرة وحقيقة البعث مع قرب الموعد: "إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا" بفعل كلامي غير مباشر بخطاب تلميحي ينضوي على خطاب أمري فيه التنبيه والتحذير بلسان حال يقول: اقترب الوعد الحق فهيأ نفسك واحذر!

ومع السيرورة الدلالية يستمر وصف للحالة أبلغ في كل مستوى يرتقي إليه الخطاب القرآني مع تنمة السورة في آياتها الأخيرة: "فَدَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (43) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (44)".

إنه فعل الوعد الذي يندرج ضمن لائحة الالتزامات Commissifs وهو الصنف الثالث من تصنيفية الفعل الإنجازي السيرلي الذي يختلف عن تحديد أستاذه "أوستين". إذ إن الالتزامات هي الأفعال الإنجازية التي تكون فيها الوجهة في جعل المتكلم ينخرط في إنجاز فعل مستقبلي. وتعد وجهة الإنجاز تعبيراً عن الحالة السيكلوجية المخصصة في التصريحات Expressifs ضمن شروط الإخلاص وتعلق بحالة أشياء محددة في المضمون القضوي<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> الزمخشري: الكشاف، ج4، ص 519.  
<sup>2</sup> فرنسواز أرمينيكو: المقاربة التداولية، ص67.

## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

إنه الوعد إذن والوعد من أفعال الالتزام، وعد بأن سيكون مآلكم الخزي ونهايتكم المذلة جزاء بما كسبت أيديكم. فرغم تعدد أصناف الأفعال الكلامية في هذه الآيات فإنها تظل مرتبطة بالفعل الكلامي الرئيس الذي استهلته به السورة وهو الاستفهام وتظل بقية الأفعال الكلامية المتجسدة في هذا المقام في الأمر والنداء الطلبي تابعة للاستفهام الأول مرتبطة به.

استفهام بصورة أخرى لكنه إنكاري، فعل كلامي قوي كان للتنبيه، والصورة المشككة هي صورة الإقرار بحقيقة البعث والنشور، هو مسار عقائدي يعيد تشكيل البنية التفكيرية التي لا تؤمن بالحياة الأخرى، وترى أن الموت هو النهاية وهو الفناء وهو الخاتمة لكل بداية. وحين يكون السائل هو الله فإن الاستفهام حتماً يكون إنكارياً، لأن علم الله يتجاوز حدود المتوقع إلى اللامتوقع، وإنما يقصد إليه للإنكار والتأنيب والتنبيه واللوم والتذكير. أما حين يكون من بين البشر فهو عادة ما يكون على لسان الكفار، فهو سؤال عن موعد الساعة من باب الاستهزاء بالنبي وبالبعث.

ودائماً مع رسم خارطة وجود عالم آخر: "فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ

شِيبًا(17)". عبارة إنشائية للتفريع والتهويل من يوم يصير الولدان من شدة هوله شيباً. هو فعل كلامي وسلطان قوله يقرع الأسماع. كيف يمكن اتقاء النجاة من هول هذا اليوم؟ فلا تكفروا. آمنوا التماساً للنجاة! يومها تكون: "السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا" فلا تحسبن الله يخلف وعده.

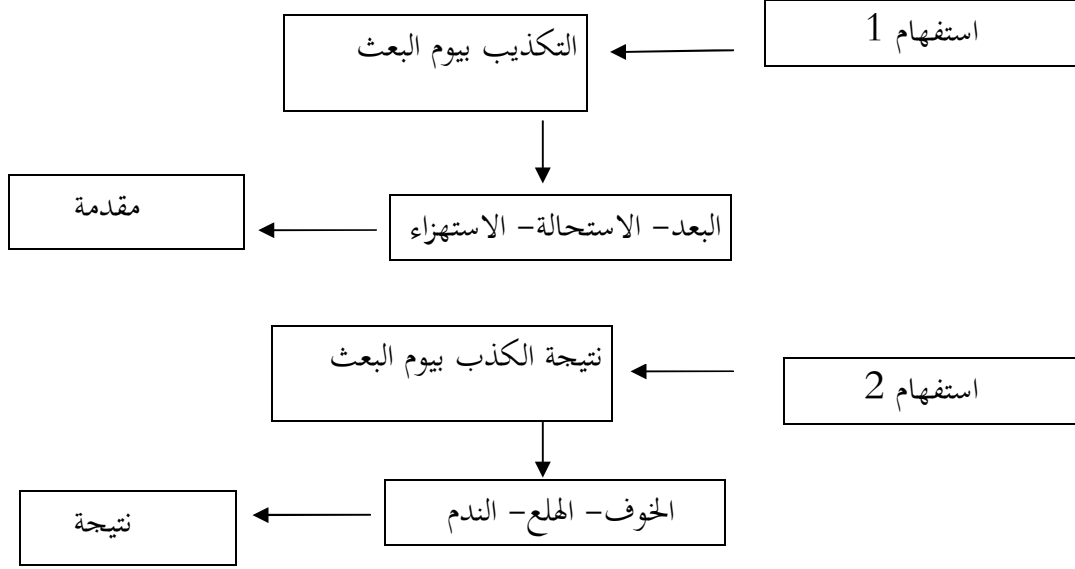
إن فعل الوعد كما أسلفنا الذكر له قوته في ذاته حيث يفرض على المرسل الالتزام. وحين يكون صاحب الخطاب هو الذي يقر على نفسه الالتزام بهذا الوعد فإن قوة الفعل الكلامي تتضاعف أضعافاً كثيرة مقارنة مع ما كان في غيرها. ولا نتظر في هذه الحالة نتيجة الفعل التأثيري لأنها متحققة فعلاً بالنظر إلى صاحب الخطاب ونوع الخطاب القرآني. ويثبت هذه الإنجازية الفعل الماضي الناقص: "كَانَ وَعْدُهُ

مَفْعُولًا". أي أن أمر الله واقع لا محالة.

ويتواصل مسار الخطاب القرآني في سيرورته الدلالية راسما . مرة أخرى . بوحى الكلمات صورة الحقيقة الكبرى للنهاية المحتومة للبشر والتي تنذر ببداية أخرى لعالم آخر. استفهام.. فعل إنشائي يث صورة الحياة بعد الموت والحساب بعد العمل والجزاء بالجنة أو النار يوم القيامة: "يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6) فإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12)". ترسم هذه الآيات صورة لمشهد الآخرة. دعوة إلى الإيمان به والعمل له وإعداد العدة لاستقباله.

إن هذا الإنسان الذي يسأل عن يوم القيامة مشككا في حقيقة البعث من باب الإنكار سيلاقي لا محالة نصيبه من عذاب الهون جزاء كذبه وجرأ تماديه وتطاوله على حرمة الخالق وملكوته وقدرته التي تتجاوز آفاق الزمان والمكان.. إن هذا الجاحد الكافر يسأل عن حقيقة يوم القيامة، استهزاء وسخرية، لكنه حتما سيلاقي جزاءه بما كسبت يده حين الواقعة يتحول السؤال من باب السخرية إلى باب الخوف والهلع سائلا بصريح العبارة: أين المفر! إنه وبالنظر إلى الزمن الذي يتعامل به بنو البشر فإن الاستفهام الأول: "سأل سائل بعذاب واقع" فعله التأثيري متحقق ونجاح نجاحا سلبيا بالنظر إلى تحقق فعل الاستفهام في الواقع. ومعلوم أن الكفار كان هذا سؤالهم المتكرر. أما فشله فيعني الفشل الإيجابي بالنظر إلى السلطة الدينية الإسلامية حيث إن فعل الاستهزاء الواقع فاشل في حقيقة الأمر لأن البعث حق. أما الفعل الكلامي الثاني وهو بدوره استفهام مباشر فإن تحققه باعتماد المقياس الزمني البشري لا يمكن الحكم عليه بالنجاح ما لم يتم فعل النجاح، إذ الآخرة لم تقم بعد، ولكن تحققه ثابت من خلال السلطة التي تقول به وتقره في هذه الآية وفي الكثير من الآيات القرآنية التي تقصد دوما إلى إثبات حقيقة البعث والنشور.

ويمكن التمثيل لهذين الفعلين الكلاميين بالشكل التالي:



ويتواصل الاستفهام ويتكرر بأنماط مختلفة وبأشكال متعددة كلها تثبت الإنجازية المتحققة إيجاباً أو سلباً وهو في أغلبه إنكاري يثبت دائماً مسار نهاية الكون وبعث يوم جديد وحياة جديدة مقامها بداية التصفية الربانية للزمرة الناجية والأخرى المهالكة. علماً أن "سيرل" يعتبر الاستفهام جزءاً من أفعال التوجيه وغايتها حمل الشخص على القيام بفعل معين وتشمل الأمر، النهي، الطلب<sup>1</sup>.

إن الفعل الكلامي الذي يتحقق بصيغة الاستفهام لا يكون دائماً استفهاماً، فقد يكون طلب الحصول على معرفة، كما يظهر مع مجموعة من السور القرآنية من جزء المفصل التي استهلّت هذا الاستهلال المميز الذي يضيف على المعنى قيمة وعلى المقصد عمقاً يستشف من خلال البنية النصية ومن خلال القراءة الاجتهادية - التفسيرية المحكمة بالمعرفة الكونية دون أن تتجاوزها إلى التأويلات الخارج النصية التي تطبع على المعرفة الاستكشافية رؤى ذاتية وتبعده عن حياته الخطائية إلى حياة المتلقي الخاصة.

<sup>1</sup> عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء المنهج التداولي، ص 160.

واعتبارا من كون الخطاب القرآني خطابا تحيطه القدسية من كل جانب فيلزم متلقيه بالتعامل في إطار ما أرسل من أجله واعتماد السلطة الواسطة التي هي النبوة في كشف مغاليقه المقصدية، فهو نص محكوم بمرسَل خاص وممتلق أول خاص ثم بمتلقين من الدرجة الثانية تلقيهم له حتما ينبغي أن يمر على السلطة الواسطة من أجل الاقتراب منه أكثر. وهنا تفشل النظرية التأويلية التي تجتهد في تحوير العلامة اللغوية وإضفاء الطابع الذاتي عليها في محاولتها إبداع نص جديد من نص موجود في الأصل\*، كما تفشل المناهج النصية المحايثة كالبنيوية فشلا ذريعا في اعتمادها على فهم الخطاب القرآني على البنية النصية المغلقة بالنظر إلى النظم فقط. فالجمل في هذه الحالة يكون لاكتشاف جمالية الأسلوب أما المعنى فسيظل معتما، ويستلزم حضور السياق والمعرفة المعمقة بأقطاب التواصل.

يقول المولى تعالى في مستهل سورة "النبأ": "عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ

فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5)". النبأ/ الآية 1، 5.

ورد في "الكشاف" أن "مستهل الخطاب استفهام، ومعنى هذا الاستفهام تفخيم الشأن كأنه قال:

عن أي شأن يسأل بعضهم بعضا أو يتساءلون غيرهم من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نحو يتداعونهم ويتراءونهم والضمير لأهل مكة، كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث ويتساءلون غيرهم عنه على طريق الاستهزاء و"عن النبأ العظيم" بيان للشأن المفخم، وكان فيهم من يقع القول بإنكار البعث ومنهم من يشكُّ، وقيل الضمير للمسلمين والكافرين جميعا، يسألون عنه، أما المؤمن فليزداد خشية واستعدادا، وأما الكافر فليزداد استهزاء"<sup>1</sup>. هو الاستفهام إذن بحضور ثلاثة أقطاب: الله . جل شأنه، والرسول . صلى الله عليه وسلم، والكفار.

\* وإن كنا لا نؤمن بوجود نظرية بهذا الاسم فالتأويل اجتهاد وليس إطلاقا نظرية إذ النظرية تتطلب آليات علمية تعتمد في التحليل والقراءة في حين أن التأويل ليست له أية آيات سوى آلية الفهم الشخصي القريب أو البعيد للخطاب، لذا عادة ما نجد أن التأويل يخرج النص من حقيقة وجوده النصية إلى عوالم أخرى زائفة لا ترتبط بالنص إطلاقا.  
<sup>1</sup> الزمخشري: الكشاف، ج4، ص584.



## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

فالمستفهم الأول هم الكفار ومتلقي السؤال هو الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمستفهم الثاني هو الله جل وعلا ومتلقي السؤال (المتلقي الواقعي) هو الرسول - صلى الله عليه وسلم - على عكس ورود هذا الاستفهام في الآية الكريمة حيث تحول المستفهم الثاني إلى أول، وهو الله جل وعلا، والمستفهم الثاني في النظم الحوارية هم الكفار، على أن المتلقي هو الرسول - عليه الصلاة والسلام. وقع ما يسمى بتحول في الأدوار. لكن ما بين الاستفهام الأول والثاني اختلاف في المقصد والتوجيه. فسؤال الكفار هو تشكيك وعدم تصديق وطلب بالتعجيل لإعطاء الدليل، في حين إن استفهام الله سبحانه وتعالى هو إنكار لسؤال الكفار لأنه أعلم بشكوكهم وكفرهم، فاستفهام الله سبحانه وتعالى هو من باب التأكيد واللوم والعتاب والتحذير. يتأكد هذا من خلال إجابته في قوله: "عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ". أي إن سؤالهم واختلافهم كان حول يوم القيامة، ثم الوعد المقرون بالتهديد في تأكيد خطاب الحق بوجود مشاهد البعث: "كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5)" والفعل الكلامي الكلي المشتمل تحت مظان هذا الجزء الأول من السورة هو التأكيد لحقيقة البعث والنشور. وتظهر صيغ التأكيد هذه مع تتابع الفعل الكلامي في الآيتين التاليتين في قوله تعالى: "إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (17) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (18) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (19) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (20) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (21) لِلطَّاغِينَ مَابًا (22) لَا يَبِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (23) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (24) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (25) جَزَاءً وَفَاقًا (26) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (27) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (28) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (29) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (30)". النبا / الآية 17، 30.

فالخطاب يتواصل ويظهر معه أمارات البعث تأكيدا على حقيقة يوم الهول بتصوير لمظاهر العقاب بأفعال كلامية تأكيدية من خلال الأداة "إن"، ليشكل مرة أخرى هذا الشكل من الأسلوب

الخبري الذي يحمل طابع تأكيد الإنكار ما يستلزم الاعتماد المكثف على أدوات التأكيد بسبب إنكار المخاطب للحكم<sup>1</sup>.

وفي سورة الشرح يوجه الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم - صلى الله عليه وسلم - مجموعة متتابعة من الأسئلة: "أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)". سورة الشرح.

"إن ظاهر القول استفهام وباطنه تذكير. فالسورة في مجملها تذكر بعناية الله تعالى لرسوله - صلى الله عليه وسلم - لطفه به، وإزالة الغم والحرج عنه، وتشريف قدره لينفس عنه. فمضمونها شبيه بأنه حجة على مضمون سورة "الضحى" تشبثا له بتذكير سالف عنايته به، وإنارة سبيل الحق ورفع الدرجة ليعلم أن الذي ابتدأه بنعمته ما كان ليقطع عنه فضله. وكان ذلك بالتقرير بماض يعلمه النبي - صلى الله عليه وسلم، وأتبع ذلك بوعده بأنه كلما عرض له عسر فسيجد من أمره يسرى كدأب الله تعالى في معاملته، فليتحمل متاعب الرسالة ويرغب إلى الله عونته"<sup>2</sup>، دفعا به إلى الصبر، مواساة وتأكيد أن ربه معه يسمع ويرى ويقف إلى جانبه فما عليه إلا أن يصبر فورا كل عسر يسرا. ولأنه في كل مرة تؤكد على العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإن النداء والطلب للبشر أجمعين غير مختص بالنبي الكريم وحده، إذ إن قوله "فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6)" خطاب للجمهور الكوني. والأمر بالاستقامة لله والرغبة إليه كذلك موجه للجمهور الكوني. إنه لا يخص بالمتلقي الواقعي الذي هو الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام.

<sup>1</sup> ابن عبد الله شعيب: الميسر في البلاغة العربية، ص 160.

<sup>2</sup> الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مجلد 15، ج 30، ص 407، 408.

ويتواصل هذا النمط من الاستفهام الذي تستهل به بدايات بعض من قصار السور. فيقول المولى في سورة الماعون: "أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (3) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (7)". فعل كلامي آخر تعجب واستغراب بصيغة الاستفهام "تعجب من حال من كذبوا بالبعث وتفضيع أعمالهم من الاعتداء على الضعيف واحتقاره، والإمساك عن إطعام المسكين، والإعراض عن قواعد الإسلام من الصلاة والزكاة لأنه لا يخطر بباله أن يكون في فعله ذلك ما يجلب له غضب الله وعقابه"<sup>1</sup>. والاستفهام مستعمل في التعجب من حال المكذبين بالجزاء، وما أورثهم التكذيب من سوء الصنيع. فالتعجب من تكذبيهم بالدين وما تفرغ عليه من دع اليتيم، وعدم الحض على طعام المسكين. وقد صيغ هذا التعجب في نظم مشوق، لأن الاستفهام عن رؤية من ثبتت له صلة الموصول يذهب بذهن السامع مذاهب شتى من تعرف المقصد بهذا الاستفهام، فإن التكذيب بالدين شائع فيهم، فلا يكون مثارا للتعجب، فيترقب السامع ماذا يرد بعده<sup>2</sup>.

إنه رغم تداخل الأفعال الكلامية فيما بينها في السورة الواحدة، فإن هناك مجموعة من السور تستقل بمبنى أسلوبية وملح بلاغي مميز. اعتمادا على نظرية علم المعاني. وعليه يمكن ضم بعض الأفعال الكلامية في زمرة واحدة. وقد لاحظنا أن أكبر المجموعات المتعلقة بالفعل الكلامي الذي يقر حقيقة البعث -إضافة إلى الاستفهام - هو القسم ودرجة أقل الأمر.

ويندرج القسم ضمن لائحة أفعال الوعد حسب تقسيم "أستين" وفي "الإتقان" إن القصد بالقسم في القرآن الكريم تحقيق الخبر وتوكيده<sup>3</sup>، فله دور كبير في التأدية الكلامية وفي تعديل خطاب التأكيد

<sup>1</sup> الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مجلد 15، ج 30، ص 564.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

<sup>3</sup> السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج4، ص46.

الإجباري والإلزام المحتوم. يقول المولى تعالى في مستهل سورة القيامة: "لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ (3) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4)". إن نفي القسم في هذا الموضع بالذات هو تأكيد القسم. والمعنى إن الأمر لا يحتاج لأن أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة. إن قوة القسم تكمن في كونه قسما فهو يحمل قوته في ذاته، وعدم الإنجاز تنجر عنه عقوبة معنوية باعتباره كذبا، فمن الناحية الشرعية تلزمه الكفارة حين يكون يمينا منعقدة لم يتمكن من الالتزام بها ويكون يمينا غموس تغمس صاحبها في النار حين يتعمد القسم على الكذب، وتتكفل القوة الإلهية بتحقيق هذه العقوبة في الآخرة. أما في هذه الحالة ولأن القسم كان من قبل أكبر سلطة وهي السلطة المقدسة فإن القسم هناله قيمته الأخرى وإنجازيته من خلال النظر إلى المقسم وهو الله - جل وعلا - دون نفي نظرة المتلقي إلى نوع هذا الخطاب ما بين المتلقي المسلم وغير المسلم.

والفعل الكلامي المنضوي تحت هذا الأسلوب الخبري الذي يرسم للفعل الكلامي دافعه الإنجازي

غير المباشر هو: أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة أن الحياة بعد الموت حق!

إن الله يدرك هذه الحقيقة وقد ذكرها وأعاد ذكرها مرات عدة ليؤكد عليها لأنها حقيقة تجعل

الإيمان بها يفتح صفحات البشر على الإيمان بالله، ومن ثم تحقيق صلاح البشرية للدارين مع إقرارها بحق

عبودية الخالق وحده لحكمة في خلقه هي: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" الذاريات/ الآية 56.

إن القسم من أفعال الكلام التي تتكرر لتؤكد وعد الله، وإنه حين يكون من الله فله قوة وتأدية

كلامية كبيرة. نجاحه ثابت بالنظر إلى المتلقي المسلم الذي يؤمن أن الله لا يخلف الميعاد. يقول تعالى في

مستهل سور عديدة من جزء المفصل كلها تنبني على أسلوب واحد وكلها تحوي قسما مباشرا في مستهلها

لتؤكد حقيقة البعث والنشور بعد ذلك تأكيدا صريحا أو مضمنا في تأكيدات أخرى متعلقة بالمجال العقدي:

"وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (2) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (3) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (4) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (5)" النازعات. "وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3)" البروج. "وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2)" الطارق، "وَالْفَجْرِ (1) وَلَيْالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4)" الفجر. "وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7)" الشمس. "وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (3)" الليل. "وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2)" الضحى. "وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)" التين. "وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2) فَالْمُعِيرَاتِ ضُبْحًا (3)" العاديات. "لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3)" البلد.

أحصينا عشرة سور تستهل كلها بالقسم. فقد أقسم الله - عز وجل - بمخلوقاته بمختلف أشكالها وألوانها وأنواعها الكبير منها والصغير، أقسم سبحانه وتعالى بطوائف من الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد<sup>1</sup>، أقسم بالنجوم وبعض الكواكب، ثم أقسم بنجوم السماء المضيئة ومنها الثواب التي تثقب الظلام بضوئها. "أقسم بما الله تعظيما لها لما عُرِفَ فيها من عجائب القدرة ولطف الحكمة ثم إظهارا لفخامة شأن المقسم به"<sup>2</sup>. وأقسم المولى تبارك وتعالى بعد ذلك بصلاة الفجر وبالليالي العشر التي هي العشر الأيام الأوائل من شهر ذي الحجة لاختصاصها بفضيلة ليست لغيرها، وبالشفع والوتر، وأقسم

<sup>1</sup> الزمخشري: الكشاف، ج4، ص592.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 628.

بالليل الذي يمضي على العموم"<sup>1</sup>.

كما أقسم الله سبحانه وتعالى في سورة "البلد" بالبلد الحرام وبما بعده على أن الإنسان خلق مغمورا في مكابدة المشاق والشدائد، هو قسم بالبلد الحرام أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد. ثم أقسم في سورة "الشمس" بالشمس وضوئها إذا أشرقت وقام سلطانها، والقمر طالعا من غروبها آخذا من نورها وذلك في النصف الأول من الشهر وقيل إذا استدار فتلاها في الضياء والنور، وأقسم بالليل المغشى بالشمس أو بالنهار، بكل شيء يواريه بظلامه، والنهار الذي يظهر بزوال ظلمة الليل. كما أقسم بوقت الضحى والليل الذي يركن ظلامه ويسكن. ثم أقسم بالتين والزيتون لأنهما كما يقول "الزرکشي" "عجيبان من بين أصناف الأشجار المثمرة وأضيف طور أي الجبل إلى سنين وهي بقعة أرضية، وانضاف القسم إلى البلد الحرام، وهي مكة ومعنى القسم بهذه الأشياء الإبانة عن شرف البقاع المباركة وما ظهر فيها من الخير والبركة سكنى الأنبياء والصالحين"<sup>2</sup>.

إن القسم بكل هذه الأشياء الدالة على قدرة الله وسعة ملكوته وقوة سلطانه تنضوي كلها في لائحة فعل كلامي قوي يحقق الإنجاز، إنه قسم بملكوت الله في أرضه، قسم بالسموات والأراضي والبحار والشمس والقمر، بالشجر، بالليل والنهار والفجر والضحى، قسم بالملائكة والبلد الحرام. أقسم المولى في قرآنه الكريم بكل هذا وبغير هذا على أن وعد الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الإنسان يبعث من بعد الموت إلى حساب فحياة أخرى في جنة النعيم أو في دار الشقاء. كان القسم يحمل صورة القوة الربانية وصوت المقدر الإلهية، تحقيق وتأكيد وإثبات. وإذا قيل ما معنى القسم منه تعالى فإنه إن كان لأجل المؤمن فالمؤمن مصدق بمجرد الإخبار من غير قسم، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيدته وقد أوجب

<sup>1</sup> الزمخشري: الكشاف، ج 4 ، ص 639.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ج 4 ، ص 636.

كما يذكر "السيوطي" "أن القرآن نزل بلغة العرب ومن عاداتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمرا. وأجاب "أبو القاسم القشيري" بأن الله ذكر القسم لكمال الحجّة وتأكيدهما، وذلك أن الحكم يفصل باثنين: إما بالشهادة وإما بالقسم، فذكر المولى - عز وجل - النوعين حتى لا يبقى لهم حجة. وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله تعالى: "وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23)". الذاريات. صرخ وقال من ذا الذي أغضب الجليل حتى أُلجأه إلى اليمين!"<sup>1</sup>.

وظهر الأمر واضحا بقوته في توجيه الخطاب التنفيذي وفي قوته التي ميزته بهذا الاستهلال البديع والبلغ لسورة "العلق" يقول تعالى: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ (6) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى (7) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى (8)". العلق/ الآية 1، 8.

إن الأمر هنا هو الله، والمأمور هو النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - فعل قوي بالنظر إلى السلم التراتبي، وهنا تظهر مصداقية رسالة الرسول، إذ بهذه الأوامر التي تلزم التنفيذ تعطي الصورة التأكيدية التي يوردها القرآن في كل مرة بأن "محمدًا" نبي مرسل دوره حمل الأمانة وتأدية الرسالة، إنه قبل هذا هو عبد مأمور ويجب عليه الطاعة في كل ما أراده رب الخلائق. إنه خطاب أمري قوي استهل به الوحي السماوي واستهلته به رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم.

"اقرأ" فعل كلامي يتكرر في الآية الأولى والآية الثالثة من السورة، فضلا عن دور السبك الذي يفعله تكرار لفظة "اقرأ" - كما رأينا ذلك قبلا - لتفصح السورة عن حقيقة كبرى وهي حقيقة البعث بلسان حال يقول: قم يا رسول الله لأمر الدعوة فقد جاءك كتاب من عند الله وأوصل رسالة رب العالمين

<sup>1</sup> السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج4، ص 46.

أن الله الذي خلق الإنسان من علق وتولى رعايته إنه بعد موته يرجع إلى ربه ليحاسب. وهكذا كان أول ما نزل من القرآن فعل كلامي أمري له قوة إنجازية لا تراجع ولا يستهان بها. كان أول ما نزل من القرآن يقر هذه السلطة العليا لرب العزة. يقر بأنه وأمام مقام وجهه الكريم الكل مأمور حتى هذا النبي المصطفى الذي اختاره واصطفاه واجتباها. إنه مثل غيره، بل إنه أكثر من يخضع لهذه السلطة الأمرية ويلتزم بها التزاما صارما. وكان أول ما نزل من القرآن يختتم بآية الرجعي.. العودة إلى الله يوم القيامة للحساب، للجنة أو نار الخلد. اختتام السورة بإقرار حقيقة البعث، وإرادة الله أن تكون هي الآية الأخيرة كذلك شأن البشر لهم سعي في الحياة يعملون ويدبون فيها ثم نهايتهم العودة إلى الله. وهذا الاختيار مقصود لخدمة رؤى إعجازية ربانية في توافق ترتيب آيات القرآن الكريم وفق مسار حياة البشر.

والوقع نفسه جسده الآيات الأولى من سورة "نوح" في إقرارها بحقيقة البعث ولكن هذه المرة على لسان نبي كريم. وحين يتلوه الخطاب القرآني بين مرسلين متعددين داخل مقام إرسال أحادي هو الإرسال الرباني يكون للفعل الكلامي سلطة حجاجية أكبر. "قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (2) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4)". نوح/ الآية 2،4. في الآيات صوت نداء النبي "نوح" عليه السلام.. نداء بالإيمان والاستغفار والاستعداد ليوم البعث والحساب. يرى "ديكرو" أن دراسة مختلف الحوارات يظهر لنا أن التسلسل في الإجابات لا يتأسس عموما على ما قاله المتكلم وإنما على النوايا التي جعلته يقول ما قال<sup>1</sup> نداء متبوع بالطلب، طلب بالالتزام بثلاثة أشياء: عبادة الله والتقوى وطاعة النبي "نوح" عليه السلام فيما يأمر به. أما بالنظر إلى مدى نجاح الفعل فالثابت أن الفعل الكلامي فشل إذ إن قوم "نوح" ومن السياق يثبت أنه لم ينجح إلا بقدر في دعوته فقد كذبه قومه وكانت نهايتهم الغرق.

O.Ducrot : le dire et le dit, P97 <sup>1</sup>



## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

تتواصل مشاهد يوم القيامة، بصور حية تتحرك أمام المتلقي تعبر بالتصريح والتمثيل والتجسيد بأفعال كلامية مباشرة وغير مباشرة بأسلوب بلاغي إبلاغي، بلغة فوقية. يقول تعالى في مشهد آخر من مشاهد العجز: "يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43)". في الآية تحذير وتنبيه وتذكير: أسجدوا لله قبل أن تتمكنوا السجود فلا تستطيعون. كذلك هو أمر في صورة خبر، والغرض تنويع في الأساليب، وبث خطاب التعنيف والردع والتحذير في ثوب النصح بهدوء وخفوت نسبي في ثوب التمثيل والتصوير الدقيق للمنظر تأكيدا على خطاب كُذِّب.

وهكذا كان تصوير الله لحقيقة البعث في جزء المفصل. تصويرا يتراوح بين أفعال كلامية متباينة تجلت خصوصا مع الاستفهام الإنكاري، ومع القسم ومع الأمر، وكلها أفعال كلامية قوية لها سلطة في ذاتها وسلطة بالنظر إلى أقطاب التواصل ودورة الخطاب التي تتحدد من خلالها مقاصد أي خطاب مهما كان.

1 - 3 - الفعل الكلامي وميزان الأخلاق الفاضلة: من بين أهم موضوعات الخطاب القرآني إصلاح الأنفس وتهذيبها وغرس قيم النبيل والتسامي فيها. فقد كانت الأخلاق ومازالت السلاح الذي يعبر بالصورة الصامته عن أسمی القيم وأنبیل المبادئ. وقد حرص الإسلام على جعل الأخلاق الفاضلة دعامة من دعائمه ومقومها من مقوماته مصداقا لما تقوله السنة المطهرة: "ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، فإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء"<sup>1</sup>.

إن مكارم الأخلاق من طهر ونبل وفعل خير وإغاثة ملهوف وحسن جوار، وإكرام ضيف

<sup>1</sup> الترمذي: الجامع الصحيح، ج4، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم الحديث 2002، ص362.

## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

ومساعدة المحتاج، والوفاء بالوعد، والصدق، والأمانة، والبر، والإحسان، والكلمة الطيبة، والحياء، لهي قيم يشيد بها الإسلام في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة.

وكان لميزان الأخلاق الفاضلة وجوده في الخطاب القرآني وفي جزء المفصل، وكان الفعل الكلامي المباشر وغير المباشر يفتح مساحة للتأمل في هذه البطاقات من النسج الخلقى المتسامي.

وأول ما تنتبه إليه هو الإقرار بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان له من الخلق الكريم ما يرفعه إلى مصاف المختارين والأصفياء، وقد أثنى المولى تعالى عليه في آية تحوي على فعل كلامي قوي، تحققت قوته باعتبار المرسل الذي هو المولى - جل وعلا - مع اعتماده على صيغة التأكيد والجزم: "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)". حيث تؤكد الوصف والخبر بثلاث أدوات: و"التأكيد يتفاوت حسب قوة الإنكار وضعفه"<sup>1</sup>:

إن: أداة توكيد قوية + اللام + الإضافة بالوصف "عظيم".

وفي الإلتقان أنه "إذا اجتمعت إن واللام كان بمنزلة تكرير الجملة ثلاث مرات، لأن "إن" أفادت التكرير مرتين فإذا دخلت اللام صارت ثلاثاً"<sup>2</sup>. وهي نظرة ثاقبة من "السيوطي" إذ إن الآية لا تؤكد فحسب إنما تؤكد وتثبت وتخبر وتفعل الفعل الكلامي بقوة خبرية. إنك على خلق عظيم يا محمد، ما أنت بمجنون ولا مفتر، حافظ على خلقك يا "محمد" المصطفى.

وفي القرآن الكريم تفصيل لبعض هذه الأخلاق الفاضلة: فمما ورد منها في سورة "المعارج": "إِنَّ

الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا

<sup>1</sup> السيوطي، الاتقان، ج4، ص193.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص190.

الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ  
وَالْمَحْرُومِ (25)". المعارج/ الآية 19، 25.

إنه التأكيد على جبلة طبع عليها الإنسان: الهلع، والجزع، والمنع وهي صفات واردة في الذكر الحكيم من باب التنبيه على ضرورة تجنبها. ليس مستحيلا التخلص من هذه الصفات السلبية. إن التزام الإنسان الصلاة تجعله يتعلق بخالقه وبقدر تعلقه به يكون ابتعاده عن المعاصي، وتجنبه لأشكال المنكرات والفواحش "وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45)" العنكبوت. وتصنع إنسانا متزنا يلتزم بتزكية نفسه والتصدق عليها، وجهاده نفسه يعطيه الطاقة والقدرة التي تجنبه الصفات السلبية من جمع ومنع وجشع، وهو إقرار حق تنادي به سورة "الهمزة":  
"وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3)".

ولأن الخطاب القرآني يشرح بعضه بعضا فإنه ليس بعيدا عن الأذهان ولا عسيرا على الإفهام أنه على الرغم مما جبل عليه الإنسان من حب المال من الجمع والمنع لكن تظل هذه الأخلاق منبوذة في الشرع التربوي الإسلامي، إلا أن يكون الجمع في حدود ما أمر به الله مع الالتزام بإخراج الصدقات وإيتاء الزكاة وإعطاء ذي القربى ومساعدة المحتاج والمسكين وإلا فإن صاحبها آثم.

إن القرآن يدعو إلى التكافل والتضامن والتعاون والمال لن ينجي العبد يوم القيامة. أو كما يقول "أبو حامد الغزالي" في "الإحياء": "إن فتن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف واسعة الأرجاء والأكناف، ولكن الأموال أعظم فتنها وأعظم محنها، وأعظم فتنة فيها أنه لا غنى لأحد عنها، ثم إذا وجدت فلا سلامة منه، فإن فقد المال حصل منه الفقر الذي يكون كفرا، وإن وجد حصل منه الطغيان الذي لا تكون عاقبة

أمره إلا خسرا"<sup>1</sup>.

ويقول: "اعلم أن المال إن كان مفقودا فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص، وإن كان موجودا فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف، والتباعد عن الشح والبخل فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام وهو أصل من أصول النجاة"<sup>2</sup>.

كذلك أشار الفعل الكلامي غير المباشر المنضوي تحت لفظ التهديد "ويل" إلى خلق ذميم منبوذ وهو الحمز واللمز.. الغيبة والنميمة والسعي لإفساد ذات البين.. فهي مداخل الشيطان ومفاتيح للفرقة وغرس العداوة والبغضاء. والفعل الكلامي هنا بقدر ما يبعث برسالة تهديدية مقرونة بالتنبيه والتحذير يبعث بفعل كلامي آخر وهو الوعد، فالعقاب لن يكون يسيرا لمثل هؤلاء الأقوام يوم القيامة.

تتكرر مشاهد الإصلاح في القرآن الكريم تهديبا للنفوس، وترسيخا للقيم والفضائل، وتشجيعا على الإيمان ومواجهة الحياة بجلوها ومرّها، لذا كان الأمر بالصبر في ثلاث سور من الجزأين المعانيين: أمر بالصبر صريحا، ثم أمر بالصبر على فرعون ومحاطبته باللين والرفق، ثم أمر بالصبر على اليتامى والضعفاء والمساكين.

يقول الله تعالى: " فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ... (48)". القلم

"هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19)" النازعات.

"فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10)" الضحى.

<sup>1</sup> أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج3، ط1، دار قتيبية، دمشق 1992، ص341.  
<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 358.

ظهر خلق الصبر في هاتين الآيتين الكريمتين من خلال فعلين كلاميين هما: الأمر: "اصبر، اذهب، قل"، والنهي: "لا تقهر!، لا تنهر!". وكلها تندرج في دائرة فعل كلامي واحد أكبر وهو ضرورة الالتزام والتحلي بحلية الصبر.

وللصبر قدسيه وقيمة مميزة لقول المولى جل وعلا: "إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10)". الزمر. إنها من الصفات التي يحبها الله - سبحانه وتعالى - في عباده، ويجزل الأجر عليها. إنه يصنع مروءة الفرد ويدفع به إلى حسن الظن بالله وعدم الضجر من قضائه وقدره، ويدفع بالإنسان إلى الاستمرار والتحدي مهما كانت الصعوبات ومهما استطالت الأشواق.

ثم اختتمت سورة "الضحى" بالأمر لكن لخلق آخر من أخلاق السمو والرفعة وهو شكر النعمة: "وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)". والخطاب موجه للنبي الكريم - عليه الصلاة والسلام - تنبيه لئلا يتغافل عن النعم الكبرى التي أنعم الله بها عليه، بل واجب الاعتراف بالمنعم وشكر النعمة، ثم هو أمر للخلق جميعا ليذكروا نعم الله. فشكر المنعم واجب سواء كانت النعمة من عند الله جل شأنه أو البشر الذين يسدون المعروف ويقدمون يد العون.

نستقرئ من خلال سلطة الفعل الكلامي غير المباشر حسب تعبير "سيرل" الكثير من معاني الفضيلة ومعالم السمو والرفي بالفرد والمجتمع في الآيات الأربع من سورة "الفجر" التي تدعو إلى إكرام اليتيم والحث على إطعام المسكين. يقول المولى تبارك وتعالى: "كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20)". الفجر/ الآية 17، 20.

## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

والنفي الموجود في الآيتين الأوليين من عدم إكرام اليتيم وعدم الحث على إطعام المسكين، ثم التأكيد على أكل التراث وحب المال الحب الشديد، واللامباشرة في الخطاب ومن خلال سياق القول بطلب التجنب والابتعاد، إذ هي خصال لا يحبها الله، والفعل المنضوي تحت هذه اللائحة يقر باللوم والعتاب والأمر والطلب بمقصدية ظاهرة مفادها: لماذا لا تكرمون اليتيم؟ ولماذا لا تحضون على طعام المسكين؟ ولماذا تأكلون التراث؟ ولماذا تحبون المال هذا الحب العنيف؟ والقصد الذي يجعل الصورة أكثر شفافية هي أفعال كلامية غير مباشرة: الأمر والنهي: "أكرموا اليتيم، حضوا على إطعام المسكين، لا تأكلوا التراث أكلاماً، إياكم وحب المال ذاك الحب المطغي.

حرم الله بعض الأخلاق السيئة في المعاملات سواء السياسية أو التجارية محافظة على اللبنة الاجتماعية للهم المؤسساتي لمجتمع نضيف. ومن بين الأخلاق التي حاربها الإسلام ظاهرة التطفيف في الكيل والميزان. التحريم كان اعتماداً على فعل الوعد الذي يبعث التهديد، وقوة الوعد في كونه أمراً من عند الله فيقتضي التنفيذ والإنجاز دون مرأى أو شك أو ريب، فالله سبحانه وتعالى يتوعد هذه الزمرة بالويل الذي ينتظرهم لا محالة.

استهلت سورة "عبس" باللوم والعتاب مراعاة لمشاعر شريحة مهمة من شرائح المجتمع وهي شريحة المعاقين: "عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَا مَن اسْتَعْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي (7) وَأَمَا مَن جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10)". عبس/ الآية 1، 10.

أمر وتنبية ودعوة لمراعاة مشاعر هذه الشريحة فلا نجرحها ولا نهينها، فالله -جل وعلا - لا ينظر إلى صورنا وأجسامنا إنما يسأل عن أفعالنا، وأفضلنا عند الله أتقانا. وإنه يبتلينا بهذه الفعة التي جعلها شطراً

## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

من تكوين المجتمع الإسلامي فمن أحسن إليهم فقد راعى حرمة الله في خلقه وأدى واجبا نحو أخيه، ومن أساء إليهم فكأنما أساء إلى الله، وإنه لآثم على صنيعه.

إن الخطاب في هذه الآيات موجه للنبي - صلى الله عليه وسلم - لكن الأمر باحترام هذه الشريحة مسؤولية الجميع فالدعوة القرآنية عامة، والرسالة موجهة للجميع: المتلقي الواقعي والجمهور الكوني.

إن مستهل سورة عبس كان بأسلوب خبري، إذ تسرد علينا السورة قصة "ابن أم مكتوم" الكفيف . التي تعرضنا لها باختصار في المبحث الثاني من الفصل الثاني . ف "ابن أم مكتوم" هذا ذهب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - يستفهم عن مسألة تم دينه. وكان الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام منشغلا بالتحديث إلى نفر من الزعماء من الكفار، ولانشغاله فقد أعرض بوجهه عن هذا الكفيف، فأنزل الله قرآنا يتلى إلى يوم القيامة معاتباً النبي الكريم - عليه الصلاة والسلام - على هذا التصرف، على هذا التهاون واللامبالاة التي كانت تجاه هذا الكفيف.

فالفعل الكلامي المنضوي تحت خطاب السرد هذا إنما هو لوم وعتاب بلسان حال يقول: "لماذا تعبس في وجه أعمى وتعرض عنه وقد أتاك طالبا الموعظة". إنها قيمة من قيم التكافل والاحترام ومراعاة لمشاعر وإظهار المودة والأخوة للمؤمنين مهما كانت عيوبهم الخلقية ومكانتهم الاجتماعية "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ". الحجرات/ الآية 13، وهو ميزان المعاملات في الإسلام.

تتحلى لنا قيمة خلقية أخرى سامية في أواخر سورة "نوح" بفعل كلامي . إنجازي قوي إذ يقول المولى تبارك وتعالى على لسان النبي "نوح" عليه السلام: " رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ". إن الدعاء يستوجب معلما معيناً، إذ بالضرورة أن يتوجه من العبد نحو ربه.

وتحققه متوقف على شروط وأسس بالنظر إلى إيمان الفرد ومدى قربه من ربه، فكلما كان أقرب كان دعاؤه أقرب إلى الاستجابة. وفي الآية الكريمة تأكيد وعد المولى عز وجل: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186)" البقرة. وقوله في المزمور نفسه: " قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ... (77)" الفرقان. وقوله: " أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَّرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ... (62)" النمل.

إن الدعاء له قوة مجرد أنه دعاء، وله قوة لأنه يتوجه إلى الله سبحانه وتعالى فهو إذ يظهر ضعف العبد، يظهر أيضا عجزه وحاجته إلى خالق يفيض عليه من جزيل عطائه، إنه إقرار بالعبودية، فعن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء"<sup>1</sup>. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال "الدعاء مخ العبادة"<sup>2</sup>. رغم أن الدعاء "كلام مباشر ذو دلالة مباشرة وملموسة"<sup>3</sup>. لكنه في أحد معانيه: "رجاء المطلوب أو النعمة بالكلمة، وتيقن الداعي للاستجابة العاجلة أو الآجلة من الله. ولا يمكننا نعت هذا الأسلوب بأنه أسلوب موضوعي، بل هو أسلوب فرضه مقتضى القول، ووضعية مشافهة في سياق ثقافي. ديني"<sup>4</sup>.

إن الدعاء فعل كلامي قوي يطلب العون ويفترض الإنجاز، تحققه سلطة المتلقي (الذي وجه إليه الدعاء وهو الله عز شأنه)، والسلطة الدنيا بالنظر إلى قيمة المدعو هو النبي "نوح" عليه السلام. أما تحققه فكان بالنظر إلى مكانة هذين الطرفين في الترسيمية العاملة لدورة الخطاب. فالأول الله - جل وعلا - والثاني نبي مصطفى مختار مرسل، وكان الدعاء بالغفران لنفسه ولوالديه ولكل مؤمن ومؤمنة، ميزان للأخلاق الفاضلة بأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، وألا تنس فضل والديك فتدعو لهما في ظهر الغيب

<sup>1</sup> الترمذي: الجامع الصحيح، ج 5، كتاب الدعاء، باب ما جاء في فضل الدعاء، رقم الحديث 3370، ص 455.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ج 5، كتاب الدعاء، باب ما جاء في فضل الدعاء، رقم الحديث 3371، ص 456.

<sup>3</sup> وتيكي كميّة: كتاب الإمتاع والمؤانسة بين سلطة الخطاب وقصدية الكتابة، ط 1، دار قرطبة للنشر والتوزيع، المحمدية 2004، ص 90

<sup>4</sup> المرجع نفسه، الصفحة نفسها.



### الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

حياتهما وبعد موتهما. والدعاء بالخير للمؤمنين دليل على طهارة القلب وصفاء السريرة. والإنسان لم يُخلَق لنفسه إنه يعيش في جماعة يؤثر ويتأثر بها، ينتفع منها وتنتفع به، في صلوات وعلاقات من التعاون والتساند والعطاء المتبادل.

كانت الأخلاق الفاضلة عنوانا وعمادا مهما من الأعمدة التي اهتم بها الخطاب القرآني في رسالة ربانية كان لها أساسها الواضح في بناء مجتمع سليم نفسيا، متكافل متآخ يقوم على المحبة والتعاون والاحترام والمصلحة العامة، وكانت الأفعال الكلامية في توجيهها المباشر وغير المباشر معبرا يوصل سلطة الخطاب الرباني في قوته وتجسيده المتراوح بين الهدوء والغضب.

## 2- الفعل الكلامي الكلي وإخلاص العبادة لله وحده:

حدد "أوستين" في آخر مرحلة من مراحل بحثه مفهوم الفعل الكلامي الكامل حين قسم الفعل الكلامي إلى ثلاثة أقسام فرعية:

- فعل القول (الفعل اللغوي) *Acte locutoire* : ويراد بها إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم ولها دلالة<sup>1</sup>.

- الفعل المتضمن في القول *Acte illocutoire*: وهو الفعل الإنجازي الحقيقي، إذ إنه عمل يُنجز بقول ما<sup>2</sup>.

- الفعل الناتج عن القول *Acte perlocutoire*: أي التسبب في نشوء آثار في المشاعر والفكر، ومن أمثلة ذلك الإقناع والإرشاد<sup>3</sup>.

يقوم كل ملفوظ على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري. فضلا عن ذلك يعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل أفعالا قولية *actes locutoires* لتحقيق أغراض إنجازية *actes illocutoires* (كالطلب والأمر والوعد والوعيد...) وغايات تأثيرية *actes perlocutoires* تخص ردود فعل المتلقي كالرفض والقبول. ومن ثم فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلا تأثيريا. أي يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطب، اجتماعيا أو مؤسساتيا ومن ثم إنجاز شيء ما<sup>4</sup>.

أطلق "أوستين" على الفعل الكلامي الذي يحوي هذه الأفعال الثلاثة بـ"الفعل الكلامي الكامل"

*Acte de discours intégral* فهو تشكيلة الفعل الكلامي في بعدها اللغوي والتأثيري بالنظر إلى

<sup>1</sup> J.L.Oustin, : Quand dire c'est faire, introduction Gilles Lane, Editions du Seuil, 1970, P109

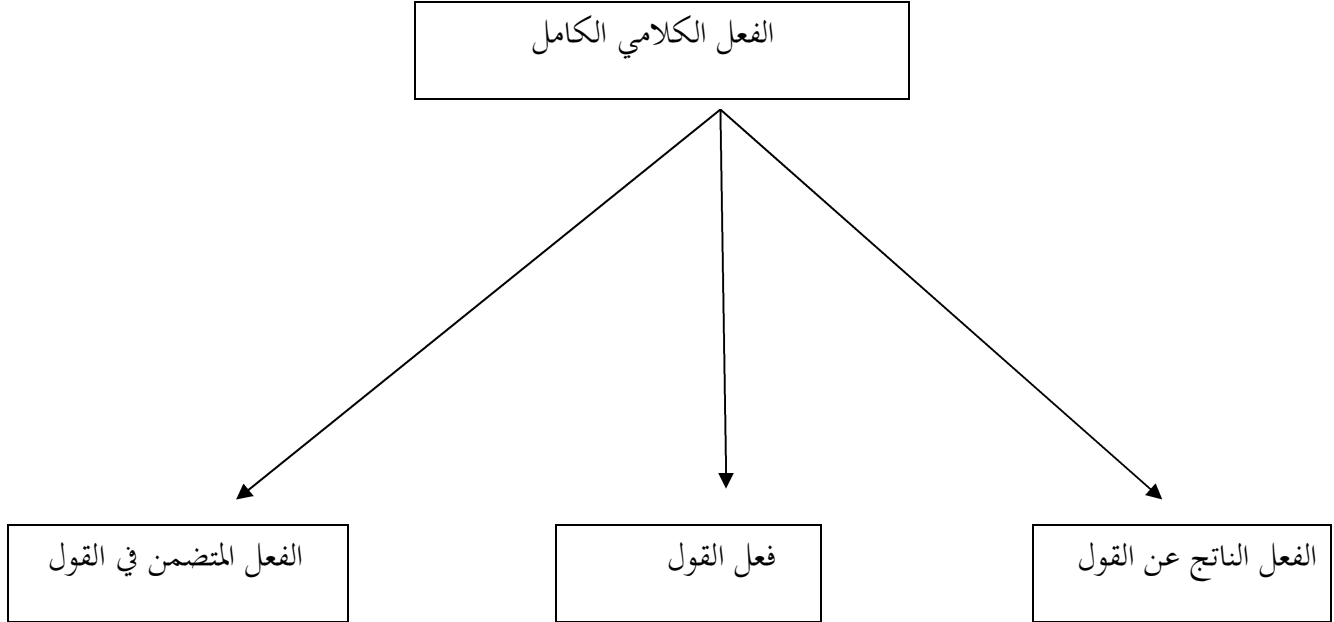
<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 114.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

<sup>4</sup> مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص 40.

إنجازية الفعل الكلامي في الخطاب المباشر الذي قيل فيه.

والهرم الآتي يوضح تشكيلة الفعل الكلامي الكامل:



لكن الفعل الكلامي الكلي ليس هو نفسه الفعل الكلامي الكامل، بل إن الكامل منه هو تقسيم

وهي للفعل الكلامي الواحد ليتحدد نمط التوجه والتلفظ والنجاح بالنظر إلى فاعلية التأثير، في حين أن

الفعل الكلامي الكلي هو ذلك الذي يضم بين جنبيه مجموع الأفعال الكلامية الجزئية التي تنبسط على

الخطاب، فكل خطاب يحوي على أفعال كلامية جزئية وفعل كلامي كلي تكون هذه الأفعال الجزئية جزءا

منه وعليه فالفعل الكلامي الكلي يتمظهر خصوصا في الخطابات، فكلما كان الخطاب أطول كان الفعل

الكلي أجلى وأوضح.

تنضوي تحت لائحة الفعل الكلامي الكلي للبنية النصية الكلية لجزأي "تبارك" و"عم" مجموعة

الأفعال الكلامية السابقة. فما خطاب التأمل في عظمة خلق الله وإقرار حقيقة البعث والنشور، وخطاب رسم صور الفضيلة في القرآن الكريم إلا صورة صغرى من فعل كلامي كلي وشامل هو فعل الأمر الذي يدعو إلى إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له. وكانت له صورة صريحة مباشرة، وصورة أخرى تنضوي تحت لائحة الأفعال الكلامية الجزئية المدروسة سابقا، وفي الخطاب القرآني لا يحتاج إلى كثير تأويل لأن المقاصد مرتبطة بالتفسير.

هناك قواعد تربط فهم المحلل باستنتاج الفعل الكلامي الكلي، من أهم هذه القواعد النظر إلى دورة الخطاب وبالتحديد التركيز على رتبة المخاطبين ونوع الخطاب. ولأن المخاطب في القرآن الكريم هو الله عز وجل فله مقام أعلى يحوله مقام فعل الأمر. والأمر كما أسلفنا الذكر هو "صيغة تستدعي الفعل، أو قول ينبئ عن استدعاء الفعل من جهة الغير على وجه الاستعلاء والمقصود بالاستعلاء أن الأمر ينظر لنفسه على أنه أعلى منزلة ممن يخاطبه أو يصدر إليه الأمر، سواء أكان هذا الأمر عاليا في الواقع أم لا"<sup>1</sup>. فالله عز وجل لا ينظر فقط إلى نفسه على جهة الاستعلاء إنما حتى المتلقي مهما كانت صفته وقناعته الدينية، وديانته فإنه ينظر إلى الله على جهة الاستعلاء، فتجده يركن إلى هذه السلطة المقدسة ركونا يتفاوت ما بين متلق وآخر حسب المعتقد والرسالة المعتقدية. لكن اعتبارا من أن الله موجود هو اعتقاد لا يكاد يختلف فيه اثنان، واعتبارا من أن وجوده علوي كذلك هو اعتقاد لا يكاد يختلف فيه اثنان، حتى الكافر بوجود الله يقتنع بأن للإله عند المؤمن وجودا علويا، وهذه هي قناعات البشر منذ وجود الخلائق، وأغلب الصراع الموجود في هذا العالم ليس تشكيكا في وجود إله إنما التشكيك في صفة هذا الإله ما بين موحد ومشرك، ثم اعتقاد كل معتنق لديانته أنه هو على حق والآخر على باطل.

ولو نظرنا إلى مدى نجاح الفعل الكلامي الأمري في الخطاب القرآني بالنظر إلى القطب الثالث

<sup>1</sup> محمد سليمان ياقوت: علم الجمال اللغوي، ج1، ص424.

## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

فإننا نتأكد من نجاحه من خلال: مدى تأثيره على الآخر (المتلقي). بل لقد بلغ الخطاب القرآني في تأثيره ونجاحه مبلغا خرق به العادة، في كل ما عُرف من كتب الله وما كتبه البشر، وقد خرج عن المعهود في سنن الله من التأثير النافع بالكلام وغير الكلام. وبيان ذلك أن الإصلاح العام الذي جاء به القرآن والانقلاب العالمي الذي تركه هذا الكتاب، ما حدث لم يكن ليحدث في عهد من عهود التاريخ قديمها وحديثها إلا على أساس من الإيمان العميق القائم على وجدان قوي، بحيث يكون له سلطان قاهر على النفوس، والحكم النافذ على العواطف والميول ما يصد الناس عن نهجهم الأول في عقائدهم التي توارثوها وعبادتهم التي ألفوها وأخلاقهم التي نشأوا عليها وعاداتهم التي امتزجت بدمائهم، وما يحملهم اعتناق دين جديد مقارنة مع التي سبقت في الحقبة الزمنية، دين هدم تلك الموروثات فيهم وحارب الأوضاع التي كانت مألوفة عند بني البشر ما كان منها على ضلال<sup>1</sup>.

هكذا أثبت الخطاب القرآني نجاحه في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - باعتباره متلقيا أول، وفي عهد صحابته الكرام إلى طول مسار الدولة الإسلامية التي ترتفع وتنخفض مع الزمن، ورغم ما يعرفه العالم الإسلامي من انحطاط في مجالات الحياة الفكرية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية إلا أن رسالة الإسلام ما زالت مستمرة بإشعاعها الأول رغم محاولات الإحباط والتشكيك في مفعولها، كل هذه المحاولات وغيرها وكل مظاهر الرفض لاحتكام السلطة الدينية لم تنجح في إقصاء الصوت الإلهي والخطاب الرباني الذي جاء به سيد المرسلين أجمعين - محمد صلى الله عليه وسلم. "ولقد حقق الإسلام ذاته في أكمل صورة في حياة المجتمع الإسلامي، وامتدت تياراته وتأثيراته كذلك في المجتمعات البشرية الأخرى، حتى التي حاربت الإسلام حربا جائرة حقبا متطاولة"<sup>2</sup>

<sup>1</sup> محمد عبد العظيم الزرقاني: ج2، ص 397.  
<sup>2</sup> سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، ص23.

ونحن نعلم أن نجاح هذه الرسالة بالنظر إلى المتلقي المسلم لن يكون إلا بالعلم الذي يجعله يعرف الدين الإسلامي على حقيقته كما أنزل وكما أراد الله تعالى، ويفهم مقاصده ويفهم خطابه بنفسه دون الركون إلى الرؤى القاصرة التي تفهم القول من خلال ما تريده هي، فتركز به إلى مزالق التأويل التي تخرج الخطاب القرآني من سياقه، وتبعده عن بواعث نزوله، وكل هذه المعطيات كان الإقرار بها في الجزئين المعانيين. إضافة إلى الاستنتاج بكامل الخطاب القرآني وحتى بالسنة والسيره اعتمادا عليها باعتبارها خطابا مساعدا ومكملا، ثم إيماننا بأن علم النص ومع التداولية خصوصا يتطلب تحليل معطيات علاقة اللغة بالمستعملين اعتمادا السياق النصي والخارج نصي. والسياق الخارج نصي هو كل المحيط الذي يحيط بجزأي "تبارك" و"عم"، من نص قرآني كامل ونص نبوي مكمل، ونصوص تفسيرية تابعة، ترتبط كلها أثناء المعينة بالأدوات والبنى النصية التي نبتغي قراءتها، وفي هذا المقام القراءة كانت في الفعل الكلامي المباشر.

كان الخطاب الإلهي خطابا أمريا إذن، والفعل الكلامي الذي أثبت تحقيق الإنجازية هو الدعوة إلى التوحيد من خلال الصدى الذي بعثه وتركه. وكان الأمر في جزأي "تبارك" و"عم" ينحصر في قطبين: أمر مباشر بملفوظ مباشر، وأمر غير مباشر ظهر من خلال الخطابات الجزئية التي استقرأناها سابقا.

### 2 - 1 - سلطة الأمر المباشر إقرارا لحق العبودية:

رأينا أن الفعل الكلامي الكلي في الخطاب القرآني كان فعلا أمريا، أمرا مباشرا في بعض المحطات، ومنضويا تحت لائحة الأفعال الكلامية غير المباشرة مع محطات وبنيات أخرى. وينبغي أن يكون المتكلم في وضع يسمح له بأمر مخاطبه، وهو مرتبط بشروط إنجاح الملفوظ ويتمثل ذلك على وجه الدقة في وجود نوع من العلاقات مخصوص بين المخاطب والمخاطب يسمح للأول بأن يتوجه بالأمر للثاني وأن يكون الثاني في

## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

وضع يسمح له بتنفيذ ذلك الأمر<sup>1</sup>، فالمعطيات هيأت لأن تكون السلطة قوية والفعل ناجحاً ولأن البنية الكبرى متعلقة كما رأينا ذلك في الفصل الأول بإقرار وحدانية الله فكذلك الفعل الكلامي يحيط بهذا المضمون ويبعث بهذا النداء، ومن البديهي أن المطلب سيكون أمراً بطرائق وملامح بيانية - بلاغية مختلفة. لكن يبقى أساس العلاقة بين المرسل والمتلقي ما يحكم علاقة المتحاورين و أقطاب التواصل. ومادامت الرتبة هي رتبة خالق بمخلوق، ومعبود بعباد، وقوي بضعيف، وعلوي سفلي فمن البديهي أن ينزل الخطاب من أعلى إلى أسفل، في خط شاقولي يبعث بخطاب إنجازي. والخطاب الإنجازي مع نظرية الفعل الكلامي تمثله السلطة الأمرية.

يقول "السكاكي" معرفاً سلطة الأمر: "الأمر في لغة العرب عند استعمالها أعني استعمال نحو: لينزل وانزل ونزال وصبه، على سبيل الاستعلاء ... ولا شبهة في أن طلب المتصور على سبيل الاستعلاء يورث إيجاب الإتيان على المطلوب منه، ثم إذا كان الاستعلاء ممن هو أعلى رتبة من المأمور استتبع إيجابه وجوب الفعل بحسب جهات مختلفة، وإلا لم يستتبعه، فإذا صادفت هذه أصل الاستعمال بالشرط المذكور أفادت الوجوب، وإلا لم تفد غير الطلب. ثم إنهما حينئذ تولد بحسب قرائن الأحوال ما ناسب المقام، إن استعملت على سبيل التضرع كقولنا: اللهم اغفر وارحم ولدت الدعاء، وإن استعملت على سبيل التلطف كقول كل احد لمن يساويه في المرتبة افعل بدون الاستعلاء ولدت السؤال والالتماس"<sup>2</sup>. ف "السكاكي" يؤكد أن فهم موقع الأمر في الخطاب متعلق بمعرفة مكانة المتخاطبين داخل السلم المؤسساتي، وهو المبدأ الذي يحتكم إليه الخطاب التداولي مع نظرية الفعل الكلامي، على أن تقوم وجهة الإنجاز في الأوامر Directifs - حسب رؤية "سيرل" - على حصول المتكلم بواسطتها على قيام المستمع بشيء ما.

<sup>1</sup> P. Larreya : Enoncés performatifs, Présuppositions, Élément de sémantique et de pragmatique, éditions Fernand NATHAN , 1979, P4.

<sup>2</sup> أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي: مفتاح العلوم، ضبط وتعلق: نعيم زرزور، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987، ص.ص 318، 319.

ويمكن لهذه الأوامر أن يكون منطلقها مجرد اقتراح لتصل فيما بعد إلى المطالبة الإيجابية<sup>1</sup>.

ومن البديهي أن الخطاب القرآني مطالبه إجبارية تقوم على واجب الالتزام بإخلاص العبادة لله وحده. أمر بالتوحيد، بإخلاص العبادة لله وحده، من أهم مسأله العقيدة الإسلامية\*. فالقرآن "كتاب في العقيدة يضع أصول الحياة ويوكئ إلى مظاهر الآخرة... والآيات المحكمات هي آيات العقيدة التي تدعو إلى وحدانية الله وتصفه بصفات القدرة والكمال. كما تناول الخطاب القرآني في موضوعاته الرئيسية بعثة الرسل ومعاناتهم الشدائد والأهوال حتى ينشروا كلمة التوحيد. فيستوجب على المسلم أن يؤمن بأن الله - جل وعلا - ليس بجسم مصوّر، ولا جوهر محدود مقدّر، وإنه لا يماثل الأجسام، لا في التقدير ولا في قبول الانقسام، وإنه ليس بجوهر ولا تحلّه الجواهر، ولا بعرض ولا تحلّه الأعراض، بل لا يماثل موجودا، ولا يماثله موجود "ليس كمثله شيء" ولا هو مثل شيء وأنه لا يحده المقدار ولا تحويه الأقطار، ولا تحيط به الجهات، ولا تكتنفه الأرضون ولا السماوات، وأنه مستو على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده، استواء منزلها عن الماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش والسماء، وفوق كل إلى تخوم الثرى"<sup>2</sup>. ويستوجب عليه الإيمان قبل هذا بأنه واحد أحد صمد، لم يلد ولم يولد وليس له شريك في الخلق أو الملك.

إن محور عقيدة التوحيد هو الأساس الذي يقوم عليه جزء المفصل، فلا إيمان إن لم يؤمن العبد بأنه لا إله إلا الله، مع تقرير حقيقة قوله تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(56)" الذاريات. منطلق كانت الأداة فيه حجاجية بتقنيات بيانية تؤدي بداهة إلى إذعان السامع إنه المنطلق لإقرار حقيقة

<sup>1</sup> فرنسواز أرمينيكو: المقاربة التداولية، ص67.

\* العقيدة هي مجموعة من قضايا الحقّ البديهيّة المسلمة بالعقل والسمع والفترة يعقد عليها الإنسان قلبه ويثني عليها صدره جازما بصحتها قاطعا بوجودها وثبوتها لا يرى خلافها أنه يصح أو يكون أبدا وذلك كاعتقاد الإنسان بوجود خالقه وعلمه به وقدرته عليه ولقائه به بعد موته ونهاية حياته، ومجازاته إياه على كسبه الاختياري وعمله غير الاضطراري. ينظر: أبو بكر الجابري: عقيدة المؤمن، ط1، مكتبة العلوم والحكمة، المملكة العربية السعودية، 2002، ص19.

<sup>2</sup> أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين، جزء1، ص. ص 133، 134.



## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

خلق الإنسان التي حددها القرآن الكريم في هذه الآية وفي العديد من الآيات تحديدا مباشرا أو من خلال الضمني من القول. وعليه نستنتج المبنى الرئيس للخطاب القرآني من خلال استقراء جزء المفصل الذي يبعث بأمر واضح وضمني يرسم عقيدة التوحيد. ظهر هذا النداء المباشر في سورتين كاملتين من الجزء المستقرا هما سورتا "الإخلاص" و"الكافرون"، كما ورد الأمر نفسه في آيات من سورة "البينة".

تناولت سورة "الإخلاص". وسميت في بعض المصاحف بسورة "التوحيد" لأنها تشتمل على إثبات أن الله تعالى واحد، وتسمى سورة "الأساس" لاشتمالها على توحيد الله وهو أساس الإسلام. تناولت السورة محور إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له. خطاب أمري صريح موجه إلى الرسول . صلى الله عليه وسلم . إذ هو الأول الذي يتوجب عليه الإيمان قبل جمهور المتلقين: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)". الإخلاص / الآية 4، 1. و"اللزْمَخْشَرِي" رؤية تفسيرية جميلة وعميقة لمعنى التوحيد من خلال هذه السورة التي تبعث بصوتها الواضح دون أن يكتنفه اختلاف رؤى أو وجهات نظر، ودون أن نخضع الصوت الأمري المباشر إلى متاهات التأويل التي يتطلبها الخطاب المتشابه، إن السورة تأمر بصيغة المباشرة أن يؤمن الخلق أن "الله واحد لا ثاني له، هو الله الذي تعرفونه وتقرون بأنه خالق السماوات والأرض وخالقكم، وهو واحد متوحد بالإلهية لا يشارك بها، وهو الذي يصمد إليه كل مخلوق لا يستغنون عنه وهو الغني عنهم. لم يلد لأنه لا يجانس حتى يكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا ولم يولد لأن كل مولود محدث وجسم وهو قديم لا أول لوجوده وليس بجسم ولم يكافئه أحد أي لم يماثله ولم يشاكله"<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> الزمخشري: الكشاف ج4، ص.ص 703، 704

تسمى هذه السورة في الغالب بسورة "الإخلاص" واشتهرت بهذا الاسم لاختصاره وجمعه معاني هذه السورة لأن فيها تعليم الناس إخلاص العبادة لله تعالى أي سلامة الاعتقاد من الإشراك بالله غيره في الإلهية.

أما "الطاهر بن عاشور" فيرى أنها سورة مكية جمعت أصل التوحيد، وهو الأكثر فيما نزل من القرآن بمكة، وهي السورة التي تثبت وحدانية الله، وأنه ينبغي ألا يقصد في الحوائج غيره، وتنزيهه عن سمات المحدثات وإبطال أن يكون له ابن، وإبطال أن يكون المولود لها<sup>1</sup>.

إنها الرؤية الشاملة والعمود الأساسي للعقيدة الإسلامية. الإيمان أنه لا إله إلا الله، وإلا فإن كل ما يأتي بعد ذلك من إقرار بالإسلام يكون هباء منثورا. وكان الأمر الذي تستهل به السورة أمرا مباشرا، يجسد حقيقة الفعل الكلامي في صورته المباشرة التي تحقق الإنجاز. ويتحكم في مدى تحقق هذه الإنجازية إقرار المرء بالسلطة القدسية للذات الإلهية العليا.

فالذي لا يلتزم بسلطة هذا الفعل الكلامي في أقوى صوت يبيته خطاب التوحيد فهو خارج عن الدائرة التي يفرضها خطاب الانتماء إلى دائرة الإسلام.

يحيط بسلطة الأمر الواضحة التي تندرج في لائحة أفعال التمرس فعل من أفعال التكليف وهو الوعد، وبعض من أفعال العرض كالتأكيد والإنكار والإجابة والتفسير\*، أما الأمر فله سلطة مضاعفة وقوة

<sup>1</sup> محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مجلد 12، ج 30، ص 609.

\* أحصى "أوستين" خمسة أصناف من الأفعال ويقدمها كقاعدة للنقاش بصفة مؤقتة وتأتي هنا في شكل تحديدات مستنسخة عن الإنجليزية والفرنسية وهي: "الحكمية" *verdictifs*: وتقوم عن الإعلان عن حكم تتأسس على بدهة أو أسباب وجبهة تتعلق بقيمة أو حدث. مثال: إخلاء الذمة، واعتباره مثلا كوعد ووصف وحلل وقدر ووصف وقوم وطبع.

- "التمرسية": *exercitifs* وتقوم على إصدار قرار لصالح أو ضد سلسلة أفعال مثال أمر وقاد ودافع عن وترجى وطلب وتأسف ونصح. وكذلك عين وأعلن عن بداية جلسة وأغلق ونبه وطالب.

- التكليف: *commissifs* ويلزم المتكلم بسلسلة أفعال محددة مثال: وعد، وتمنى، والترم بعقد، وضمن، وأقسم، والقيام بمعاهدة، والإندماج في حزب.

## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

كبرى - كما أسلفنا النظر - فهو يقوم على إصدار قرار لصالح أو لهدف تثبيت رؤية. أمر للرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم: "قل يا محمد إن الله واحد. ثبتها في ذهنك بدءاً ثم قل بما لغيرك"، ورغم غياب المأمور "الرسول - صلى الله عليه وسلم -" إلا أن السياق يثبت أن الخطاب في السورة كلها موجه للنبي - صلى الله عليه وسلم - ويتكرر الأمر كل مرة لكن بفعل أمر محذوف تقديره: "قل" والحذف كما رأينا ذلك مع مظاهر الاتساق إنما هو ظاهرة من الظواهر الأسلوبية ومن ظواهر لسانيات النص التي تحقق تماسك النص، ووجود بعض الفراغات النحوية يعطي دلالة للنص أقوى مما لو ذكرت، أما رؤيتنا التداولية إليه فتجعلنا نؤول وجوده العدمي حيث يتكرر ظهوره الضمني ثلاث مرات أخرى إضافة إلى ظهوره الصريح باللفظ والمعنى والقوة الإنجازية في مستهل السورة.

ومن خلال إمعان النظر في سياق القول نلاحظ أن فعل الأمر يحيط به فعل الوعد غير الظاهر الذي أدى إلى نجاح الفعل الكلامي، وهو وعد بإيصال السورة القرآنية، وعد بإيصالها إلى المتلقي الجمعي، ولكل المشككين بوجود الله. والوعد من أفعال التكليف فالرسول - صلى الله عليه وسلم - مُكَلَّف بحمل الأمانة وأداء الرسالة، وواضح أن الأمر في الخطاب القرآني مشروط بتحقيق وعد الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - الذي أكد أنه لو وضعت الشمس على يمينه والقمر على يساره على أن يترك أمر الإسلام ما تركه.

أما ما كان منها من أفعال العرض كالتأكيد فهو تأكيد على وحدانية الله من خلال وجود ضمير الشأن ومن خلال تكرار لفظ الجلالة "الله"، والتكرار هو فعل إثباتي تأكيد على مبدأ التوحيد. ثم إن

- العرضية: *expositifs* وتستعمل لعرض مفاهيم وبسط موضوع وتوضيح استعمال كلمات، وضبط مراجع. مثال: أكد، وأنكر، وأجاب، واعترض، ووهب، ومثل، وفسر، ونقل أقوالاً.

- السلوكيات: *comportementaux*: ويتعلق الأمر هنا بردود فعل تجاه سلوك الآخرين. والشكر والتهنة والترحيب والنقد والتعزية والمباركة واللعنة والنخب. وكذلك الاحتجاج. من هنا نسجل مع "سيرل" خطاباً بارزاً يعد كذلك علامة صعوبة إذلا يتعلق الأمر بمجرد تصنيف لأفعال الإنجاز بل بتصنيف أفعال إنجازية للغة خاصة كالإنجليزية أو الفرنسية ضمن عمل ما بمعادلات موضوعية ممكنة ومتقاربة بالضرورة. ينظر: فرنسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ص.ص 62، 63

التأكيد على وحدانية الله يقتضيه إنكار وجود الشريك ، أما فعل التفسير فاستوجبه مقام شرح ألوهية الله - سبحانه وتعالى، فنلاحظ كيف أن الخطاب القرآني في هذه السورة مترابط الأوشاج كل آية تدفع نحو الآية التي تليها وترتبط بها ارتباطا يفعل قوة الغرض من جهة وقوة الفعل الكلامي الأمري من جهة أخرى.

أمر قوي من مرسل أقوى لتعبير تعبيراً صريحاً عن عقيدة التوحيد التي يقوم عليها الخطاب القرآني، لهذا كان لها شأنها العظيم، فهي السورة الوحيدة في القرآن الكريم التي تعادل ثلث القرآن، ولهذا فقد قال فيها النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم: "من شاء أن يقرأ ثلث القرآن كل ليلة فليقرأ سورة الإخلاص. لأنها تحتوي على صفات الله تعالى وعدله وتوحيده"<sup>1</sup>. ثم إنه لا توجد أية سورة أخرى في القرآن الكريم جامعة لما في سورة "الإخلاص". فهي مميزة من كل النواحي، من حيث تشكيلة المبنى، سواء البنية الصوتية التي غلبت عليها الأصوات المجهورة، تفعيل للجهر بالقول التي تحمل هذا النبض القوي وهذا الموضوع المفرد في إثبات عقيدة التوحيد، وتبث صوتاً قوياً يدفع الأذهان إلى حمل الاعتقاد بالقول والفعل على أن الله واحد أحد صمد، ركن أساس من أركان الإيمان وأركان الإسلام، لا إله إلا الله.

أما السورة الثانية من جزء المفصل التي تحقق عقيدة التوحيد فهي سورة "الكافرون". وتسمى أيضاً سورة "الإخلاص" كما يقول "الطاهر بن عاشور" في "التحرير والتنوير"<sup>2</sup>.

قامت سورة "الكافرون" بدورها على دعامة التوحيد وواجب إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له منذ بداية السورة إلى نهايتها، وهذه السورة مميزة من ناحية النظم والأسلوب والفاصلة الموسيقية والإيقاع المناسب من خلال انتشار الفعل "أعبد" المكرر الذي يربط بنيات السورة، ومن خلال الخطاب الحوارية التمثيلية المتراوح ما بين الأنا والأنتم. هي سورة مميزة بالنظر إلى الفاصلة القصيرة والتكرار الذي يلبسها

<sup>1</sup> الزمخشري: الكشاف، ج4، ص 704

<sup>2</sup> الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ص 79

## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

ثوبا جماليا وبلاغيا وتأثيريا "والتكرير أبلغ من التأكيد وهو من محاسن الفصاحة"<sup>1</sup>، وبالنظر إلى قوة الخطاب في حد ذاته، فللسورة نبر مميز ونفي تقريري زجري إثباتي وتأكيدي: يقول الله سبحانه وتعالى: "قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)". الكافرون/ الآية 1، 6.

وفيما يرويه "الزمخشري" في "الكشاف" أن رهطا من قريش قالوا: يا محمد! هلم فاتبع ديننا وتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فقال: معاذ الله أن أشرك بالله غيره، فقالوا فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك، فنزلت (أي سورة الكافرون) فغدا (الرسول الكريم . صلى الله عليه وسلم) إلى المسجد الحرام وفيه الملاء من قريش فقام على رؤوسهم فقرأها عليهم فأيسوا"<sup>2</sup>. "واستهل خطابهم بالنداء لإبلاغهم، لأن النداء يستدعي إقبال أذهانهم على ما سيلقى عليهم، ونودوا بوصف الكافرين تحقيرا لهم وتأبيدا لوجه التبرؤ منهم وإيدانا بأنه لا يخشاهم إذا ناداهم بما يكرهون مما يثير غضبهم لأن الله كفاه إياهم وعصمه من أذاهم"<sup>3</sup>. وكما ورد في "الإتقان" إن النداء هو طلب إقبال المدعو على الداعي، ويصحب في الأكثر بالأمر والنهي"<sup>4</sup>. أما التحقير فـ "هدفه الازدراء بالمخاطب والتقليل من شأنه وقدراته"<sup>5</sup>.

كانت مناسبة النزول إذن رفض الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - الإذعان لمطالب كفار قريش الذين يحاولون أن يجعلوا لله شريكا، فرد عليهم بصوت السماء العليا: "لكم دينكم ولي دين" لكم شرككم ولي توحيدني، فأنا نبي مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة فإذا لم تقبلوا مني ولم تتبعوني فدعوني كفافا ولا تدعوني إلى الشرك"<sup>6</sup>. لقد كان الرد واضحا أن الله واحد أحد لا شريك له إما أن يعبد

<sup>1</sup> السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج3، ص 199.

<sup>2</sup> الزمخشري: الكشاف، ج4، ص 695.

<sup>3</sup> الطاهر بن عاشور: التريير والتنوير، مجلد12، ج30، ص 581.

<sup>4</sup> السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج3، ص 246.

<sup>5</sup> محمد سليمان ياقوت: علم الجمال اللغوي، ج1، ص 430.

<sup>6</sup> الزمخشري: الكشاف، ج4، ص 696.

## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

وحده وإلا فلا عبادة لأحد من دون الله أو مع الله. إن المبدأ الأساس والمنطلق الأول الذي تقوم عليه شريعة التوحيد الإسلامية أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

ومما هو معلوم أن أساليب التعبير تختلف حسب اختلاف مقامات الكلام، أو كما يقول "السكاكي" في "مفتاح العلوم": "لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يباين ويغايير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغايير مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغايير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر"<sup>1</sup>. وإن استخدام الأساليب الإنشائية في العرف البلاغي العربي والتي هي محطة من محطات الفعل الكلامي في تأديته الانجازية المتراوحة ما بين القوة والضعف حسب سلطة الفعل وحسب الموقع المؤسساتي الذي يحيط بالتأدية "يوشي بغلبة الأمر واقتداره"<sup>2</sup>، حيث ينتج عن هذه التأدية خطابان، "خطاب أمر مقتدر وخطاب مأمور مغلوب"<sup>3</sup>، فأما الأمر المقتدر فهو المرسل الأول الخالق. جل شأنه، وأما الخطاب المأمور فهو خطاب المتلقي المقصود بتوجه الخطاب.

استهلت السورة بالأمر ككل مرة، والسلطة الكلامية مع الفعل الإنجازي هي بث لخطاب التوحيد بإخلاص العبادة لله وحده. والسلطة أمرية في كلتا السورتين، لأن المقام ليس مقام استعطاف أو ترج أو تخيير، بل هو مقام إلزامي، ويجب الإذعان للأمر، فلا شيء يمكن أن يعوّض عقيدة التوحيد، ولا يوجد عمل مهما عظم شأنه في الطاعات يسبق الإيمان بالله وحده لا شريك له.

<sup>1</sup> السكاكي: مفتاح العلوم، ص 168.

<sup>2</sup> كميلة وتيكي: كتاب الإمتاع والمؤانسة بين سلطة الخطاب وقصدية الكتابة - مقارنة تداولية، ص 94.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم في سورة "الكافرون" أن يخاطب الكفار بخطاب تأكيدي يقرع الأسماع أنه - صلى الله عليه وسلم - لن يعبد ما يعبدون مهما كلفه ذلك، فالأمر إنما هو: قل يا محمد، "وافتاحها بـ"قل" للاهتمام بما بعد القول بأنه كلام يراد إبلاغه إلى الناس بوجه خاص منصوص فيه على أنه مرسل بقول يبلغه"<sup>1</sup>. فالأمر هنا كما هو في سورة الإخلاص أمر قوي، وتقوى سلطانه بمجيء النداء بعده، وهو نداء للبعيد "يا أيها" فأصل النداء بـ"يا" أن تكون للبعيد حقيقة أو حكماً، وقد ينادى بها للقريب لنكت منها إظهار الحرص، ومنها كون الخطاب المتلو معتنى به، ومنها قصد تعظيم شأن المدعو، ومنها قصد انحطاطه... وقد كثر في القرآن النداء بـ"يا أيها" دون غيره لأن فيه أوجه من التأكيد وأسباباً من المبالغة، منها ما في "يا" من التأكيد، وما في "ها" من التنبيه، وما في التدرج من الإبهام في "أي" إلى التوضيح، والمقام يناسب المبالغة والتأكيد<sup>2</sup>، لكنه يحمل أوجه التنبيه والتوضيح، حتى وإن كان التأكيد هو الغالب من خلال التكرار المكثف، والأمر الموجه في حزم وشدّة، لا ينزاح عنصر من التراكيب. هو قصد إلى تأكيد الخبر، مع العلم أن الخبر في الجملة العربية واقع بين ثلاثة أضرب فقد تستغني الجملة عن مؤكّدات الحكم ويسمى هذا النوع من الخبر ابتدائياً. وإذا ألقاها إلى طالب لها، متحير طرفاها عنده دون الاستناد، فهو منه بين بين، لينقذه من ورطة الحيرة، استحسن تقوية المنقذ بإدخال اللام في الجملة، أو "إن"، كنعو: لزيد عارف، أو إنّ زيدا عارف. وسمي هذا النوع من الخبر: طلبياً. وإذا ألقاها إلى حاكم فيها بخلافه، ليرده إلى حكم نفسه، استوجب حكمه ليترجح تأكيدا بحسب ما أشرب المخالف الإنكار في اعتقاده، كنعو: صادق إني لمن ينكر صدقك إنكاراً، وإني لصادق، لمن يبالغ في إنكار صدقك، ووالله إني لصادق على هذا، وإخراج الكلام في هذه الأحوال على الوجوه المذكورة يسمى إخراج مقتضى الظاهر وإنه

<sup>1</sup> الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مجلد 12، جزء 30، ص 580.

<sup>2</sup> السيوطي: الإتقان، ج3، ص.ص 247، 248.

في علم البيان يسمى بالتصريح"<sup>1</sup>، ورغم أن السورة لا تحمل هذه الأدوات التأكيدية ولم تعبر بسلطة القسم، لكن التأكيد واضح لكل منتبه عالم بأسرار اللغة العربية والتأدية الكلامية السياقية.

كما أن أسلوب السورة يقصد لأن يبين أن بين الكفار وبين الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام - مساحة تفصل بينهم، فمهما كان القرب الزماني والمكاني بين الطائفتين المؤمنة الكافرة فإن اختلاف الديانة يقف حاجزا فاصلا بين الزميتين. فمقياس القرب بين بني البشر في الإسلام هو مقياس ديني أكثر من أي شيء آخر. إن الحب يكون في الله وحده والأخوة لا تكون إلا في الله وحده. دين يقرب بين المتباعدين إن آمنوا واتقوا، ويباعد بين المتقاربين إن آمن الواحد وكفر الآخر. وعلى هذا الأساس كان المؤمن الحق القريب من الله ومن رسول الله، أقرب إلى الله من جبل الوريد، والكافر بعيد عن الله وبعيد عن الرسول الكريم بعده عن الحق وبعده عن الاعتراف بأن الله واحد أحد.

وكما هو الشأن مع سورة الإخلاص فالخطاب موجه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن خلال السياق الذي يقتضي في هذه الحالة النظر إلى مناسبة النزول نعلم أن المخاطب المقصود هو الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام - دون أن نشك في غيره. والنداء: "يا أيها"، بمقصد قول يحيط دائما بدائرة مبدأ العقيدة بتعبير ضمني مفاده أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له. "وكما يقول "أبو حامد الغزالي": "لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد، فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلا. وإن أراد أن يكون من سالكي طريق الآخرة، وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل، ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى وانشغل بالرياضة والمجاهدة، انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهي يقذف في قلبه"<sup>2</sup>. وهذا ما أقره الإسلام منذ

<sup>1</sup> السكاكي: مفتاح العلوم، ص.ص 170، 171.

<sup>2</sup> أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، جزء 1، ص.ص 139، 140.



بداية الدعوة: توحيد الله، مجاهدة النفس وترويضها كي تقبل الحقيقة الكبرى.. حقيقة وجود إله واحد لهذا الكون، إله تعالى عن الشريك والشبيه والصاحبة والوالد والولد.

إن سورة الإخلاص تعادل ثلث القرآن بإقرار النبي - صلى الله عليه وسلم - وسورة الكافرون تعادل ربع القرآن بإقرار النبي - صلى الله عليه وسلم - وإنه لفضل للسورتين لا نجد له فضلا في بقية السور القرآنية، وإن كان لكل سورة من سور القرآن فضلها، لكن أن يقاس بما يعادل ثلث القرآن فهذا إقرار ضمني بأن للسورتين مكانتهما المميزة. وإنما كان لهما هذا الفضل لما اشتملتا عليه من أسس وأغراض تصب كلها في مصب التوحيد وهو أساس العقيدة الإسلامية، وجزء أساسي من تشكيلة الخطاب القرآني. وكل الأغراض التي يتناولها القرآن الكريم، كل موضوعاته إنما هي تابعة للموضوع الرئيس، وكل محاوره إنما هي جزء من محوره الأساس الذي هو خطاب التوحيد. علما أن التوحيد "ثلاثة أقسام: توحيد في الذات، والأسماء والصفات، وتوحيد في الربوبية، وهي اختصاصه تعالى، وتفرد به بالخلق، والرزق، والتدبير لسائر الخلق والملكوت، وتوحيد في الألوهية أي في العبادة، وهو اختصاصه تعالى بسائر العبادات، وتفرد به دون سائر مخلوقاته، سواء من كمل منهم وشرف كالملائكة والأنبياء والصالحين، أو كان دون ذلك من سائر الناس والمخلوقات"<sup>1</sup>.

إنه مبدأ يقرّ ثم يدعو إلى إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له . توحيد لذات الله جل وعلا. و"بعض الآيات تشير إلى حقائق لا تقبل الجدل والنقاش وهي حجج سافرة وأدلة باهرة"<sup>2</sup>. ليظهر خطاب التوحيد مرة أخرى في آية من سورة "البينة". يقول تعالى: "وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ (5)". فجميع الأنبياء والمرسلين أمروا كما أمر

<sup>1</sup> أبو بكر جابر الجزائري: عقيدة المؤمن، ط1، مكتبة العلوم والحكمة، القاهرة 2002، ص53.

<sup>2</sup> عبد العال سالم مكرم: تدريبات نحوية ولغوية - ضلال النصوص القرآنية، ط2، عالم الكتب، القاهرة 2002، ص 622.

## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - في التوراة والإنجيل بالتزام الدين الحنيف. أن يعبدوا الله لكنهم حرفوا وبدّلوا<sup>1</sup>. إن غاية ما أمرهم بهم الله ورسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم. هو أن يؤمنوا بالله ويعبدوه مخلصين والإخلاص هو التصفية والانتقاء، أي غير مشاركين في عبادته معه غيره وحنفاء والحنيف هو الذي يؤمن بالله وحده دون شريك، أو المائل عن الباطل إلى الحق.

شكلت طروحات "جاكسون" في معالجته لقضية اللغة والاتصال نقطة مهمة جدا في تطور الدراسات التي تجسد الربط بين علم اللغة والنصوص الأدبية. واللغة عنده تقوم بستة وظائف تجسد عملية الاتصال في دوائرها المختلفة، فالوظيفة الانفعالية التي ترتبط بالمتكلم من خلال استخدامه لأسلوب النداء، والوظيفة الإدراكية أو الإفهامية ترتبط بالمتلقي من خلال جعل الأمر. وجعل الأمر نراها واضحة في سورة البينة وإن كان أمرا مضمنا بفعل كلامي غير مباشر بأسلوب يظهر وكأنه خبري.

ما يميز سورة البينة أنها مدنية تناولت الحديث عن موقف أهل الكتاب من رسالة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - والإخلاص في العبادة. فالآية إقرار بأن حتى أهل الكتاب تشملهم الدعوة ويمسهم الكتاب الكريم. وإنهم لمأمورون بإخلاص العبادة لله وحده فيقيموا الصلاة ويأتوا الزكاة. ارتسمت صورة الآية إذن بأسلوب خبري غير أن المقصد المنطوي تحت هذا الأسلوب والمستقرأ من خلال مفاهيم السياق وبالنظر إلى استمرارية رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - وصلاحها لكل زمان ومكان أن من لا يخلص العبادة لله وحده لا شريك له ولا يعتقد اعتقادا جازما أن الإسلام هو دين الحق فهو من الخاسرين، ولن يشملهم لطف الله ورحمته. بفعل كلامي إقراره التزموا عقيدة التوحيد يا أهل الكتاب وآمنوا بالله ورسوله المبعوث بالحق المبين. كانت هذه آية واحدة من سورة بها سبع آيات شملت فعلا كلاميا إلزاميا هو الأمر الذي اكتسى ثوب الخبري بقوله: "وما أمروا إلا...". أي أمركم والأمر سلطة تنفيذية تستوجب التنفيذ.

<sup>1</sup> الزمخشري: الكشاف، ج1، ص 672.

الأسلوب الحقيقي في القرآن الكريم لا يقصد فيه إلى المعاني الأولى فقط، ولكن هذه المعاني الأولى قد تكون ماثرا لدلالات ثانية مبعثها تآلف الكلمات في اتساق حسن وتأليف بديع فتجيء الحقيقة محددة واضحة صحيحة في ثوب أدبي جميل يوحي بالعظمة والتأمل ويضمن لهذه الحقيقة خلودها على مر الزمن<sup>1</sup>.

خصص "سيرل" جزءا كبيرا من أعماله لحصر ما يميز الفعل المباشر عن الفعل غير المباشر. فيرى أن المعنى الحقيقي *littéral* ينتصب وجوده متى كان هناك تطابق بين معنى الجملة والمعنى الذي يقصده المتكلم وما يفهمه المستمع. أما الفعل الكلامي غير المباشر فإنه على عكس ذلك قد يقال بقول معين ولكنه ينطوي على فعل غير الذي قاله. ففي قولك لصديق يجلس إلى جانبك على طاولة الغذاء (وهذا بدوره من الأمثلة التي تتكرر لقربها إلى الإفهام) "هل بإمكانك أن تناولني الملح" فإنك في الحقيقة لا تستفهم إنما تطلب منه أن يناولك الملح. وكذلك قول الأم لولدها وهو ذاهب إلى المدرسة: إن السماء مغيمة، هل أخذت معك المطرية؟ فهي في الحقيقة لا تستفهم إنما تطلب من ولدها أن يحمل معه مطريته. وهذا النوع من الأفعال يندرج في سلك الأفعال الكلامية غير المباشرة في عرف "سيرل" ومن تبعه من الباحثين. "فقد عني العديد من اللسانيين بهذه الأفعال غير المباشرة وانصب الاهتمام أساسا على البحث عن تحديد وحصر وسائل وشروط إنجاز مثل هذه الأفعال"<sup>2</sup>.

ومن هذا المنظور نجد الآية "وما أمرؤا" ليست نفيًا بل هي أمر يفرض تحقيق الإنجاز القولي بمجرد التلفظ أمام حتمية الخطاب الذي يمتلك قوة القداسة من كل جوانبه.

اهتم "سيرل" بهذه النقطة ومن منظوره اللغوي . الفكري والفلسفي فالمشكل الذي تطرحه اللغة غير المباشرة هو التالي: كيف يمكن لتكلم أن يقول شيئًا ويريد أن يقول هذا الشيء ويريد قول شيء آخر؟

<sup>1</sup> فتحي أحمد عامر: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، ص65.  
<sup>2</sup> الجليلي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص30.

وكيف يمكن لمستمع فهم فعل اللغة غير المباشرة بينما ما يقصده يدل على شيء آخر؟ ويصبح المشكل أكثر حدة عند "سيرل" بحكم أن بعض الجمل مستعملة بشكل عادي وعرفي للتعبير عن مطالب غير مباشرة<sup>1</sup>.

يرى "بريخت شيلين لانج" R.S Lange أن الأفعال اللغوية المباشرة هي نقيض الأفعال غير المباشرة، إذ تنتمي الأفعال المباشرة إلى عالم الاصطلاحات والتواضعات بقصد اصطلاحها بوظيفتها بفعالية وتخلص إلى اطراد استخدام هذه الأفعال في مجتمع ما يفضي إلى الافتراض بوجود إمكانية كبرى لـ "التمثيل الذاتي" auto - représentation والحال أن تواتر استخدام الأفعال المباشرة دليل على أن المجتمع مؤسس أيما تأسيس<sup>2</sup>.

أي إنكم مأمورون أن تعبدوا الله وحده لا شريك له، ثم تأتي العبادات المرتبطة به بإخلاص العبادة لله من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وإلا فإن إقامة وإيتاء الزكاة دون إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له فإن أعمالكم كلها تذهب هباء منثورا.

كان الفعل الكلامي الكلي كما تبين من الاستقراء التداولي لسورتي "الإخلاص" و"الكافرون" وآية سورة "البينة" هو الأمر، أمر واضح مباشر بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له.

### 2 - 2 - الفعل الكلامي الكلي المضمرة رسالة في التوحيد:

إن علم لغة النص ينظر إلى أن أعلى وحدة لغوية وأشدّها استقلالاً ليست الجملة بل النص، فالتحليل اللغوي توجه بصورة أقوى إلى النص، وهذا يعني الاهتمام بالكفاءة اللغوية، والنظام لا يهتم ببناء

<sup>1</sup> فرنسواز أرمينيكو: المقاربة التداولية، ص71.  
<sup>2</sup> الجليلي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص31.

الكلمة والجملة أولاً، وإنما يوجه الاهتمام إلى بناء النص، أي تكوين النص ويؤسس على أوجه اطراد عامة يفسرها النظام اللغوي<sup>1</sup>. كما أن الاستعمال والتأثير والتفاعل والاتصال والنظام والواقع اللغوي والواقع الخارجي، والبنية الكبرى، والبنية الصغرى، والسياقات، والمقامات، والاستراتيجيات هي مرتكزات أساسية في البحث النصي، وتشكل خصوصيات أي نص<sup>2</sup>. ومن البديهي أن تلتقي هذه الخصوصيات كلها في النص القرآني.

أما القول المضمر فله نظرية خاصة به، وهو في هذا المقام استشفاف للضماني من الفعل الكلامي، فالقول المضمر هو كتلة المعلومات التي يمكن للخطاب أن يحتويها، ولكن تحقيقها في الواقع يبقى رهين خصوصيات سياق الحديث<sup>3</sup>. وإذا كان الفعل الكلامي الكلي المباشر المستنبط من القرآن الكريم من خلال سور جزء المفصل هو الأمر، والمتعلق بأمر المتلقي في كل الأزمنة والأمكنة بان يخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، فإن الفعل الكلامي المضمر كذلك يتعلق بهذا الغرض ويبث هذا الفكر، ويرسي العقيدة ذاتها. إنها دعوة إلى التوحيد. وإذا كان شكل الفعل الكلامي المباشر هو التوجه والمباشرة بالخطاب في قالب صريح، فإن الفعل الكلامي غير المباشر شأنه أيضاً هو شأن القرآن المكّي في عمومته، وشأن القرآن الكريم في وحدته الكلية التي تأمر الخلائق بالإيمان، إقرار لوحداية الله، لكن بطريقة ضمنية، غير مباشرة. اعتماداً على الفعل الكلامي غير المباشر، فقد "كانت عقيدة التوحيد هبة خالصة من الله للبشر، عرفها لهم عن طريق الرسل، ولم تكن من صنع هؤلاء البشر، ولا هم تدرجوا في كشفها حتى كشفوها... فقد جاءتهم الرسالات السماوية من فجر التاريخ كاملة حاسمة"<sup>4</sup>

إن التوحيد أهم مبدأ وعماد يقوم عليه الخطاب الضمني القرآني، وكما ورد في قاموس "غريماس"

<sup>1</sup> فايز الكومي: تحليل البنية النصية من منظور علم لغة النص - دراسة في العلاقة بين المفهوم والدلالة في الدرس اللغوي الحديث، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، عدد 25، أيلول 2011، ص 208.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، 109.

<sup>3</sup> C.K.Orecchéoni : l'implicite, P39

<sup>4</sup> سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، ص 99.

و"كوتاس" أن الخطاب مجموعة من النوايا التي تتحقق بواسطة اللغة<sup>1</sup>، وعلى المحلل والقارئ أن تكون له نباهة ودراية وفتنة لغوية مدركا لقوانين اللغة ولعبتها كي يستنبط هذه النوايا في القرآن كتاب ديني له طريقة خاصة في التعبير ستظل متعلقاتها مناط الإعجاز حتى يشاء الله، وكل معانيه تلتقي في دائرة التوحيد<sup>2</sup>، نية عليا، سند رئيسي، ومبدأ أساسي لكن هناك مبادئ أخرى متعلقة بركن التوحيد تحيط به وتحوم حواليه. إنها محاولة لصنع إنسان جديد من خلال اللغة التي تجسد سلطة الخطاب التعجيزي والإعجازي في أسمى معانيه.

إن غاية اللغة إيصال معلومات، وفرض سلوك معين على المخاطب تجاه المتكلم لغويا واجتماعيا، وتحديد العلاقات بين المتخاطبين، وتغيير معتقداتهم، ويتوقف ذلك على ما لسياق الخطاب من قوانين ومعطيات ترتبط بالأعراف الاجتماعية وأعراف الكلام<sup>3</sup>، والتزام المستمع سلوكا معيناً يتبعه الالتزام بمبدأ معين، فعادة ما تكون سلطة الفعل الكلامي أكبر وأكثر من أن تتحدد بموقع الفعل في أنه لاسيما حين يتعلق الأمر بالخطابات المهمة وعلى الخصوص حين يكون الخطاب قرآنياً، فهو يحمل أغراضاً أقوى من أن تقولها البنية الجمالية وأكبر من أن تتحدد بمفهوم آني لأنه خطاب متواصل مع الزمن، مستمر مع الأيام يحكمه نمط السيرورة الدلالية المتواصلة.

هناك مجموعة من الشروط تضمن نجاح المتكلم في تحقيق أفعال الكلام بمجرد التلفظ بها أسمائها "سيرل" القواعد التأسيسية، لذلك فإن المتكلم قبل أن يصدر قولاً يطرح على نفسه مجموعة من الأسئلة تقرر له من يكون ضمن هذه المؤسسة لكي يقول ويكون قوله فعلاً.

<sup>1</sup> A.J. Greimas, J.Couttes : Sémantique dictionnaire raisonnée de la théorie du langage, Hachette, Paris, P 390

<sup>2</sup> فتحي أحمد عامر: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، ص22.

<sup>3</sup> عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي، ص178.

وإضافة إلى شروط تحقيق الفعل في الخطابات فهناك مفهوم القداسة الذي يحيط بالخطاب القرآني من كل جوانبه، ومفهوم القداسة ثابت في تاريخ البشرية لا يتبدل ولا يتحوّل، ومن المؤكّد أن الخطاب القرآني جاء ليثبت عقيدة واحدة ويرسخ مبدأ مقدّساً ويغيّر مفاهيم الضلالة التي كانت منتشرة في الجاهلية. ولما اختار المولى تعالى العرب لأن تكون آخر رسالة سماوية فيهم، فهي حظوة عظيمة، دفعت إليها ضلال كبير وخطير وهي الشرك بالله المتمثل في عبادة الأصنام، اعتقاداً أنها تقربه إلى الله زلفى، ومنهم من يرى فيها الخالق الرازق، ومنهم من يرفض الإيمان بما لا يُرى، فصنعوا لأنفسهم صورة مجسمة اعتقدوها صورة عن الله، ومنهم من يعبد الأصنام لأنه وجد آباءه كذلك يفعلون، فمهما كانت الرؤية والقناعة كان عرب الجاهلية مشركين، وعليه فأول ما دعا إليه الخطاب الرباني أن يكفوا عن تلكم الفعلة وينظروا بعين العقل لا عين التعصب والعصبية، أمرهم الله في أول ما أمرهم وأهم ما أمرهم أن يخلصوا العبادة لله وحده. إنها عقيدة التوحيد. ومدار القرآن كله على التوحيد ومن تأمل في كتاب الله جيداً وجد مصداق هذه الآية فيه فالقرآن كله دائر حول هذه القضية وكل ما أوحاه لرسوله - صلى الله عليه وسلم - داخل في هذه المسألة. فالقرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وإما دعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما يعبد دونه<sup>1</sup>. وفي هذا الصدد يذهب "أمبرتو إيكو" إلى اعتبار التداولية بمثابة المعرفة العميقة بدلالة الكلمات والمفاهيم، ومعرفة عميقة بالماضي والحاضر، ومعرفة عميقة بالعلاقات القائمة بين الأشياء والظواهر والأفكار والأحداث والوقائع ومعرفة عميقة بالقضايا العلمية كانت أو فنية أو سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية ومعرفة عميقة بعلاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بالعالم<sup>2</sup> ولا يتحقق فعل التوحيد خالصاً لله إلا

<sup>1</sup> عمر سليمان الأشقر: التوحيد محور الحياة، ط2، دار النفائس - مكتبة الفلاح، الأردن - الكويت 1991، ص28.

<sup>2</sup> O.Ecot : Les limites de l'interprétation, Grasset, Paris, 1992, P302

## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

إذا عُرِفَ الله "إن معرفة الله والعلم به، والتوجه إليه، هي نقطة البداية الصحيحة في المسيرة الإنسانية، إن الإيمان بالله قاعدة يبني عليها بناء هائل وأصل لا يغني عنه غيره"<sup>1</sup>.

كانت الأفعال الكلامية الجزئية التي تجسد سلطة الإلزام كما رأيناها من خلال سلطة الفعل الكلامي الذي كان في معناه اللغوي أمر بالتأمل في عظمة خلق الله، ثم أمر بإقرار حقيقة البعث، ثم أمر بالتزام الأخلاق الفاضلة. إن قراءتنا للفعل الكلامي في جزء المفصل، هي قراءة لفعل كلامي أكبر وأشمل وهو الفعل الكلي الذي شكلته بصفة ضمنية الأفعال الصريحة (المباشرة وغير المباشرة) التي تناولت جزئيات الموضوع.

إن التوحيد يقتضي الإيمان الخالص، ومن سبل الإيمان التي دعا إليها ربنا عز وجل عبادة التأمل، يقول المولى - عز وجل - : "هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (11)". لقمان. ويقول إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3) الرعد.

وإن من أعظم ما يفكر فيه العبد ويتأمله هو كيف خلق؟، متذكراً أنه خلق من ماء مهين. ثم يتفكر في كتاب ربه سبحانه وتعالى، والأمر الذي خُلق الإنسان من أجله، والنعم الكبرى التي وهبه الله إياها والأرزاق التي حباه بها: "وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا" إبراهيم/ الآية 34. إنه دائماً شد الأبصار إلى الحقيقة الكبرى في هذا الكون وهي حقيقة وجود خالق. أما الحقيقة التي يلزم الله عباده فهي حقيقة لا إله إلا الله.

إن التفكير في خلق الله تعالى كما يقول العلماء يوقف الإنسان على حقيقة بديعة هي متانة الخلق والتدبير في كل مفردات الكون وأجزائه. أن التفكير عبادة لله عز وجل بأسمائه وصفاته وأفعاله، والانقطاع

<sup>1</sup> عمر سليمان الأشقر: التوحيد محور الحياة، ص 15.



إليه تعالى عن غيره، وهذا التأمل الذي يكسب اليقين في الله سبحانه وتعالى إنما يكسبه الثقة أن ما جاء به ليس هراء، وأنه هو الحق جل وعلا، وأنه هو وحده الذي ينبغي أن يخلص له بالعبادة جل شأنه، إنه إقرار إخلاص العبادة لله وحده.

هناك فريق من العلماء يقول إن النص لا هو ذو معنى واحد، ولا هو حامل لما لا نهاية له من المعاني الممكنة، إنما يتقيد فهم النص وفهم معانيه بقيود معينة تستدعي تعددية معنى النص لا وحدته، غير أن هذه التعددية لا تستمر إلى ما لا نهاية فلغة النص تقيد معانيه<sup>1</sup>.

إن المحور الذي يدفع الأبصار والأذهان داعيا وفارضا على المتلقي أن يؤمن بإيماننا ثابتا، بيقين لا يتزعزع أن البعث حق وأن القيامة حق وأن الجنة حق والنار حق. هو الخطاب الذي حورته سلسلة أفعال كلامية انبنت على قوة مؤسساتية ضخمة جسدها السلطة القائلة بأفعال كلامية قوية في ذاتها فكان القسم وكان الأمر، وكان الاستفهام الإنكاري الذي يعطي صوتا للتهديد والوعيد وآخر اللوم والعتاب. محطات تدفع إلى تقوية الإيمان، لكنها تدفع أيضا وبجزم أكثر إلى إخلاص العبادة لله وحده. إنه النداء المبطن، وإثارة الدعوة التي يحملها الفعل الكلامي الضمني، فعَلته أيضا سلطة المخاطب الذي يستهل معظم الآي بالأنا العاملة أو الفاعلة كقوله تعالى: " لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4)". إن ضمير الخطاب الأنا "أنا أقسم". لا أقسم ليس نفيا بل إثبات بفعل غير مباشر يقول "إني أقسم". وربما يلتبس هذا الفعل مع غيره من الأفعال، لذا نجد أن الرائد في تمييز هذا الصنف من الأفعال الكلامية "سيرل" يؤكد في كل مرة أن المشكل الذي تطرحه اللغة غير المباشرة هو التالي: كيف يمكن متكلم أن يقول شيئا، ويريد أن يقول هذا الشيء، ويريد كذلك قول شيء آخر؟ وكيف يمكن لمستمع فهم فعل اللغة غير المباشرة بينما ما

<sup>1</sup> علي رضا قائم بنا: ابستمولوجيا النص، مجلة المحجة، عدد6، 2003.

يقصده يدل على شيء آخر؟ ويصبح المشكل أكثر حدة عند "سيرل" بحكم أن بعض الجمل المستعملة بشكل عادي وعرفي تعبر عن مطالب غير مباشرة.

لذا فيقترح "سيرل" افتراضا تفسيريا لمقصد الجمل المعنية. ويشير هذا الافتراض إلى أن شرطا من الشروط يتم إنجازها، إما بالتأكيد أو بالتساؤل. فيكون طلبي من جاري الذي يجلس إلى جانبي في الطاولة بمدى بشيء معين طلبا مميزا، - وهنا تحضر قاعدة التأدب التي تحدث عنها "غوايس": كن مؤدبا - فبدل أن أطلب بشكل مباشر وفظ، يمكن أن أستفهم عن حالة الحدث الذي يجعل طلبي السابق ممكنا. ويكمن الافتراض الجديد، الذي يقدمه "سيرل" السابق الذي يبلِّغ المتكلم المستمع، في أفعال اللغة غير المباشرة وبما فيه الكفاية، بأن ما يقوله فعلا، يعتمد على خلفية إخبار متبادل ومتقاسم، وإخبار لساني وغير لساني، وعلى قدرة استدلال عقلي للمستمع، فالجهاز النظري المطلوب لتفسير الجزء غير المباشر لأفعال اللغة غير المباشرة، يقوم على النظرية العامة لأفعال اللغة، وعلى المبادئ العامة للتعاون العرفي (كما قعد "غوايس" لذلك)، وعلى خلفية إخبار متقاسمة بين المتكلم والسامع<sup>1</sup>.

لقد راعى القرآن الكريم نفسيات المتلقين فتجده يخاطبهم بحسب عقولهم ومداركهم، فهو لم يكلف الإنسان فوق طاقته، يتضح هذا من خلال اللغة التي يخاطب بها، من خلال أساليبها وبيانها، ومن خلال قوانين تفهم إدراكيا أنها قوانين اللعبة اللغوية التي تراعي قواعد المشاركة في الخطاب، فرغم أهمية الرسالة التي يبثها ورغم خطورة المضامين التي يتناولها فإنه لم يخرج عن العرف اللغوي التعبيري، لذلك نجده يراوح خطابه ما بين المباشرة واللامباشرة في توجيه الأمر. وأهم التمفصلات الدلالية في سورة "البينة" تبنى على الفعل الكلامي غير المباشر وهي تتناول - شأن مجمل القرآن المكي - أمورا في العقيدة من توحيد، وإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، "ليظهر في الإنسان جانبه النفسي وتثع منه أضواء

<sup>1</sup> فرنسواز أرمينيكو: المقاربة التداولية، ص.ص 71، 72.

الروحانية على سلوكه وعمله في الحياة الدنيا، فيكون ذلك سندا له في الحياة الآخرة"<sup>1</sup>.

لقد اهتم الدارسون - ومن بينهم "بنفست" - بدراسة هذا النمط من الخطاب في تداولية الدرجة الأولى التي تتناول بالاستقراء نظريات الحديث ويدخل في مظان دراستها: المتخاطبون، الزمان، المكان. إنه فعل كلامي إنجازي يثبت مقولة القسم بكل ما يحمله القسم من تأدية وقوة وتأثير وتذكير وتنبية على قوة الله الخالق عز وجل، وخطاب القسم أرسل ببعده القوي والعميق خطاب التوحيد، بلغة ضمنية ترسل بدورها نداء قويا مفاده أن الذي له هذه القدرة على الخلق والبعث، وقدرته محاطة بمحالة لا ند لها ولا نهاية فإنه هو الإله الواحد الذي لا يطلب الشرك والشريك، وهو وحده المستحق للعبادة وما يأمر به واجبنا الامتثال له. هي اللغة المبطنة والمعنى المقصود والقصد المرسل التلميح، تبطين لخطاب التوحيد، مع الإقرار أن للقرآن ظاهرا وباطنا، معنى ومعنى المعنى أو ما يسمى في عرف التداولية وعلم النص بالمقصدية ولا تختلف النظرة الحدائية في هذا المضمار مع النظرات المتقدمة للبلاغيين والعلماء المسلمين. يقول في هذا الصدد "أبو حامد الغزالي": "اعلم أن انقسام العلوم إلى جلية وخفية لا ينكرها ذو بصيرة وإنما ينكرها القاصرون الذين تلقفوا في أوائل الصبا شيئا، وجمدوا عليه، فلم يكن لهم ترق إلى شأو العلا، ومقامات العلماء والأولياء، وذلك ظاهر من أدلة الشرع. قال . صلى الله عليه وسلم: "إن للقرآن ظاهرا وباطنا وحدًا ومطلعا"<sup>2</sup>. ويستشهد الغزالي بقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - مؤكداً أن الخطاب القرآني نزل بلسان عربي مبين.. والقرآن لغة ومادام كذلك فإنه يحكمه ما يحكم اللغة العربية من إظهار وإضمار، من تصريح وتلميح، من معنى جلي ومعاني خفية، من معنى سطحي واضح ومعاني مبطنة لا يفهمها إلا من أوتي الملكة والفهم بأسرار البلاغة العربية، ومن له دراية بكل متعلقات الخطاب القرآني، من نص ونص تابع مع الإحاطة بالسياق بكل دقته. إن ما يثبت أن الفعل الكلامي في الآية السابقة لم يكن دوره فقط إرسال

<sup>1</sup> فتحي أحمد عامر: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، ص21.

<sup>2</sup> أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين، جزء1، ص146.

فعل القسم لإثبات القدرة على الخلق، إنما يظهر أيضا وجه التفرد بالوحدانية ينطوي على أمر بإخلاص العبادة لله وحده. ويحيط بالقسم استفهام إنكاري في الآيات التابعة: "أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4)". وهذا الاستفهام الإنكاري دوره تثبيت وتأكيد فعل القول الذي يأتي بعد وهو القدرة على إعادة الخلق من جديد وتثبيت هذه القدرة له وحده جل وعلا. و"قادرين" بالذات إثبات على أنه جل وعلا هو وحده الواحد الأحد وإن كان اللفظ للجمع لكنه إظهار مدى القدرة، وهذه القدرة على الفعل ورد الفعل وإعادة الفعل في الخلق والنشأة لا يستطيعها إلا من له الحكم الأزلي وله مطلق الفعل، والذي يكون هذا شأنه فلا ضير أنه يستحق الإيمان به وإخلاص العبادة له والإقرار بأنه هو الواحد الصمد.

إن الخبر الذي يحمله الخطاب القرآني حملا واضحا وضمنيا هو الذي يكفل السعادة والراحة للبشرية بما له من تشريعات سياسية وقانونية وأسرية. والخبر حسب "سيرل" يندرج في التقريرات، والتقرير هو إدراج لمسؤولية المتكلم عن صحة ما يتلفظ به<sup>1</sup>، والمتكلم هو الله - جل وعلا -، ولاشك أن اعتبار الخطاب القرآني خطابا حجاجيا كفيل لوحده بإثبات صدق ما يورده المتكلم، كما أن الأدلة الواضحة التي يبثها خطاب النداء بالتأمل في عظمتهم وقوته وقدرته كفيل لوحده أن يكون الدليل على هذه المسؤولية، وإن كان الخطاب الرباني في كل الأحوال لا ينظر إليه تلك النظرة التي نتفاعل بها مع بقية الخطابات البشرية.

إن الاستفهام في بداية السورة القرآنية "ألم تر" إنما بث لخطاب آخر هو فعل كلامي أمري بمعنى:

"أنظر"

إن التقويم العام لوظيفة الأفعال غير المباشرة المؤسسة على مبدأ الكياسة يلتقي بمفهوم "حكم

J.Searle : Sens et expression, p52 <sup>1</sup>

الحديث " maximes conversationnelles التي اقترحها "غرايس" Grice والتي وجد فيها معظم اللسانيين ضالتهم حيث اعتمدوها كمنطلق لشرح نمط اشتغال الفعل الكلامي غير مباشر<sup>1</sup>. فحكم الحديث الغرايسية تستمد مفهومها من مواضع اجتماعية تجعل قاعدة التعاون بين المرسل والمتلقي أساس نجاح فعل التواصل وتحقيق المقاصد التداولية، وهي تطور وإضافة لنظرية الفعل الكلامي.

رغم أن الفعل الكلامي بمجرد التلفظ به يكون ناجحا حين تتحقق المواصفات في وضعية محددة، أو أن الوضعية هي التي تستلزم تحول القول إلى فعل، لكن بالنظر إلى مدى التأثير فإن الفعل الكلامي ناجح بالنظر إلى ما حققه الخطاب القرآني من ثورة على المجتمع العالمي، وما أعطاه للبشرية من حضارة لم يكن لها وجود، ومن تراث وعلم ومعارف لم يكن يحلم بها المجتمع العالمي، "وإذ عرف المسلمون الله أفضل المعرفة بقلوبهم وعقولهم، لم يجادلوا في علمه، وعدله وحكمته وشريعته بل استقبلوا رسالته بالتصديق والرضى والخضوع الكامل والإتياع الجاد. وإذ قد عرف المسلمون رسولهم حق المعرفة بقلوبهم وعقولهم، فقد اعتبروه أتمودج الكمال البشري علما وعدلا ورحمة وأمانة وكمال نفس"<sup>2</sup>.

فعل ناجح لأنه قرآن ناجح. قرآن نفخ الإيمان في الكبار والصغار نفخا وبثه روحا عاما، وأشعر النفوس بما جاء فيه إشعارا، ودفعها إلى التخلي عن موروثاتها ومقدساتها جملة، وحملها على التحلي بهديه الكريم علما وعملا، على حين أن الذي أتى بهذا القرآن رجل أمي، لا دولة له ولا سلطان، لا حكومة له ولا جند، ولا اضطهاد ولا إجبار إنما هو الاقتناع والرغبة والرضا والإذعان "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي(256)"البقرة.

إن فهم قول معين حسب "أوركينيوني" يعني أن نعرّف بمحتواه وتوجهه التداولي، أي التعريف

<sup>1</sup> الجبالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص31.

<sup>2</sup> عبد الملك بومنجل: جدل الثابت والمتغير في النقد العربي الحديث، ج1، ص.ص 25، 26.

بقيته وقوته الكلامية<sup>1</sup>، هذا ما يجعل القول في حقيقة الرسالة الدعوية للقرآن والرسالة التغييرية التي حملها على عاتقه والتي مست الفرد والجماعة من صميم البحث التداولي ومن صميم البحث في المقاصد التي يبثها الفعل الكلامي، حديث عن الأساس الذي وضعه القرآن وهو وحده سر نهضته ونار ثورته، ونور هدايته، والروح الساري لإحياء العالم بدعوته، وذلك عن طريق أسلوبه المعجز الذي هزّ النفوس والمشاعر، ومملك القلوب والعقول، وكان له من السلطان ما جعل أعداءه منذ نزوله إلى اليوم يخشون بأسه وصولته ويخافون تأثيره وعمله، أكثر مما يخافون الجيوش الفاتحة والحروب الجائحة لأن سلطان الجيوش والحروب لا يعدو هياكل الأجسام والأشباح أما سلطان هذا الكتاب فقد امتد إلى حرائر النفوس وكرائم الأرواح بما لم يعهد له نظير في أية نهضة من النهضات<sup>2</sup>. وهذا ما يؤكد نجاح الفعل الكلامي ونجاح دوره في التأثير على غيره سواء من المتلقي الإيجابي أو السلبي. فيكفي أن يحمل القرآن الكريم قوة محولة غيرت صورة العالم، ونقلت حدود الممالك عن طريق استيلائها على قلوب المخاطبين به لأول مرة استيلاءً أشبه بالقهر وما هو بالقهر، وأفعل من السحر، وما هو بالسحر سواء في ذلك أنصاره أو أعداؤه، ومخالفوه ومخالفوه<sup>3</sup>.

إن الفعل الكلامي والخطاب المقاصدي يدفع إلى التأثير على النفوس والقلوب، كما يدفع إلى التغيير. تغيير في المعتقد، والتفكير، والحياة، والمعاملات بخطاب ترغيبي أدواته الفعل اللين، وخطاب ترفيهي له من القوة ومن الشدة ما يدفع إلى الالتزام التام، وكما يقول "سورل" قد تتشابه جملتان في الغرض المتضمن في القول ولكن تختلفان في درجة الشدة<sup>4</sup>، ويتحكم في شدة الفعل الكلامي وقوته مقارنة بغيره بالنظر إلى الموقع المؤسساتي وبالنظر إلى صاحب القول وبالنظر إلى المقام الذي قيل فيه الخطاب، وإن كنا نعتقد أن الأفعال الكلامية في القرآن الكريم الصادرة من الله سبحانه وتعالى سواء كانت قوية أو أقل قوة بالنظر إلى

<sup>1</sup> C.K.Orcchioni : L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Armand Colin, Paris, 2009, P185

<sup>2</sup> محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ج2، ص 398.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ج2، ص 398.

<sup>4</sup> J. Searle, Sens et expression, P52 .

## الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

المواقف التي قيلت فإنها كانت دوما تحمل رسالة التزام، لذلك تحقق لها ذلك النجاح المنقطع النظير. فلو قارنا رسالة القرآن وهدى الإسلام مع ما سبقه من رسالات لعرفنا الفرق الواسع الشاسع، إذ إنه قد وُجد قبل الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنبياء ومصلحون، وعلماء ومشرعون وفلاسفة وأخلاقيون، وحكام ومتحكمون فما تسنى لأحد هؤلاء بل ما تسنى لجميعهم أن يحدثوا مثل هذه النهضة الرائعة التي أحدثها "محمد" - صلى الله عليه وسلم - في العقائد والأخلاق وفي العبادات والمعاملات وفي السياسة والإدارة وفي كافة نواحي الإصلاح الإنساني، وما كان لمحمد ولا لألف رجل غير محمد أن يأتوا بمثل هذا الدستور الصالح الذي أحيا موات الأمة العربية في أقل من عشرين سنة، ثم نفخ فيهم من روحه فهبوا يفتحون العالم بعد وفاته وينقذونه من الضلال. فخفقت رايتهم على نصف المعمورة في أقل من قرن ونصف قرن من الزمن<sup>1</sup>.

نفهم من خلال اللغة الضمنية حضور ركنين اثنين يتحكمان في الفعل الكلامي الكلي غير المباشر من خلال الدلالات الضمنية المتعلقة بالخطاب القرآني، وهما العبادات والمعاملات: عبادة الله وحده لا شريك له، التأمل في عظيم خلقه، فهم أسرار كونه، معرفته ومعرفته أسمائه وصفاته. إيمان بقدسية الخطاب الموجه نحوهم، ثم إصلاح ما بين الإنسان والإنسان، توجيه نحو تحقيق السعادة في الحياة الدنيا ثم في الآخرة.. تربية وتهذيب، تحقيق لكل أخلاقيات المجتمع الواقعي الذي يحيا في واقع أشبه ما يكون بالمثالية.

إن الفعل الكلامي الضمني يحمل طابع الوصف، أو الاستفهام الإنكاري، وربما طابع التأكيد والإثبات، كل هذا والمقصد واحد. حسب "أوركينيوني" يجب إعطاء الخبر بأقصى ما يحتويه من معلومات ولكن في حدود الإفادة مع تجنب إعطاء كل شيء لأنه قد يؤدي إلى إحداث أضرار لا حاجة للمتخاطبين

<sup>1</sup> محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ج2، ص 401.

بها، وبهذا نتجنب السقوط في متاهات الحشو الذي يضر الإفادة<sup>1</sup>.

ذكر "الرماني وأبو بكر الباقلائي" أن التضمن هو حصول معنى في الكلام من غير ذكر له باسمه أو صفة هي عبارة عنه ويدل الكلام عليه دلالة أخبار أو دلالة قياس ويقسم قسمين: ما يفهم من البنية وما يفهم من معنى العبارة من حيث لا يصلح إلا به كالصفة. وقد استعملت هذه الدلالة للتضمن في الكتب البلاغية منذ عهد مبكر وصار هذا الاستعمال مشتركا بين اللغويين والبلاغيين وبعض المفسرين<sup>2</sup>. فالتضمن ليس مبحثا تداوليا فحسب إنما له وجود في الكتب البلاغية واللغوية العربية. وهو دعامة يستند إليها في تفسير القرآن الكريم، لأن اللغة العربية هي لغة مجاز، ولغة الضمني من القول، لها جانب سطحي وجانب عميق يعبر عنه بمعنى المعنى، وهذا الجانب العميق أثبت نجاح رسالة الإسلام واستمرار نجاحها دوما مهما كانت الظروف التي تحيط بالمتلقي مادامت قيمة نجاح نشاط وفعل وحركة هو ديناميته وحركتها وفعاليتها ومنطقية أسسها ومبادئها ثم سعة تلقيها، إيمانا واعترافا وقبولاً لخطاب له خصوصية حيث ينظر إلى المصلحة العامة، وينظم أركان المجتمعات وفق وضع قاعدة تقيد الشهوات، وتضع حدا للحشع الذي يسكن أغلب النفوس البشرية في حبهما للتملك والبذخ، ووقوعها في الرذائل والخطيئة، وكانت سورة النصر إشادة بنجاح الفعل الكلامي الضمني الذي يؤكد نجاح رسالة الإسلام ونجاح رسالة القرآن: "إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3)". سورة النصر.

ومن أواخر ما أنزل من القرآن الكريم ما يؤكد تمام بناء الصرح من خلال فعل كلامي له قوة في الإشادة بنجاح رسالة التوحيد، ينقلها المرسل الواقعي النبي الكريم - عليه الصلاة والسلام - في يوم عظيم،

<sup>1</sup> C. K.Orecchioni : L'implicite , P220

<sup>2</sup> طالب محمد اسماعيل الزويبي: من أساليب التعبير القرآني - دراسة لغوية وأسلوبية في ضوء النص القرآني، ط1، دار النهضة العربية، بيروت 1996، ص.ص 15، 16.



### الفصل الثالث: الفعل الكلامي وبناء المقصدية التداولية

وفي مكان عظيم، وفي موقف عظيم - سياق خارج نصي - ففعل قوة الخطاب، وفعل سلطة تأكيد نجاح

رسالة الدعوة المحمدية، ونجاح النداء الأزلي بوحداية الله والذي يقول: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ

عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا". المائدة/ الآية 3.

# خاتمة

## خاتمة

أفضت بنا الدراسة إلى استخلاص مجموعة من النتائج أهمها:

- إن الاقتراب من النص القرآني اعتمادا على إجراءات وأدوات تحليلية ومناهج نقدية غربية لا يعني البتة التعدي على قداسة القرآن الكريم، ولا يعني النظر بالنقص في الذات الإلهية.
- هذا العمل هو محاولة لاستخدام منهج نقدي - لساني حديثي وهذا لا يعني أننا ندخل في صدام مع القراءات التراثية، لأن ذلك جهد بشري معترف به، وهذا أيضا جهد بشري له قيمته. بل حاولنا - من خلال جهدنا المتواضع هذا - دحض الرؤى التي تعتقد أن المناهج الغربية إنما هي ثورة على الدين والعرف والمعتقد والتراث. ورحنا نؤكد من خلال استنطاق النص القرآني أن العلوم والمناهج النقدية حتى وإن كانت غربية ومن إنتاج باحثين غربيين لا يمتون لمعتقدنا وتراثنا بصلة إلا أن العلم لا يخدم الأهواء، ويظل جهدهم جهدا علميا. وإن تلك النداءات التي يصل إليها أهلها مدعين بأن المناهج الغربية هي التي توصل إلى نتائج تهدم تراث الآخر ودين الآخر نظرة قاصرة ويستوجب إعادة النظر فيها، فالمعتقدات هي التي تتحكم في نتائج هؤلاء الباحثين فضلا عن إيديولوجياتهم، أما العلوم فتظل علوما وهي بريئة من التوجهات الفكرية للذين يعادوننا فكريا وعقائديا.

- ربط الدراسات العربية بالدراسات الغربية يفتح مجال القول بأن العلوم يكمل بعضها

بعضها ولا يعاديه.

- علم النص منهج إجرائي يحاول الانفتاح على كل ما هو مغلق، ويسبر أغوار كل ما هو معقد، ويعتمد على معطيات علمية - لسانية - منهجية تحيط بكل جزئيات الخطاب المعين.

- لم يعط التراث العربي لمثل هذه الدراسات حقها، رغم قدراتهم الفكرية والنقدية التي تظهر واضحة في ما خلفوه من إرث زاخر. ووحدها البلاغة من امتلكت في صميمها مفاهيم نظرية نصية كاهتمامها بالوصل والفصل ومختلف أدوات الربط والتكرار والحذف، مع حديثها عن الأفعال التي تحول القول إلى فعل في مفاهيم الخبر والإنشاء.

- أسلوب القرآن متقن، جرسه الموسيقي مميز، شحناته التأثيرية تجعل الألفاظ تتفجر والجمال تشع، كل سورة هي تنمة للسورة التي تسبقها، وكل موضوع هو ارتباط بالتشكيلة الكلية للخطاب القرآني. أما وحدات النص القرآني فيشد أزر بعضها البعض في انسجام واتساق واضحين، مع اختلاف أدوات كلا العمدين. وحتى السور التي تحوي على موضوعات عدة إنما هي في الأصل لحمة واحدة وشحمة متحدة، عكس ما تقول به الدراسات الإستشراقية التي ترى أن القرآن كتاب غير منسجم، لا تتحقق فيه النصية.

- أعاد علم النص الاعتبار للمرسل باعتباره صاحب الصوت، مكسرا النظرية البنوية في ندائها بموت المؤلف. فقيمة الخطاب إنما هي بقيمة مرسله. كما لا يغفل علم النص دور المتلقي الذي يساهم في تفعيل دورة الكلام بالاستجابة الإيجابية أو السلبية، فالرسول - عليه

الصلاة والسلام- متلق من الدرجة الأولى، حمل على عاتقه رسالة الله -جل وعلا - بالقول والفعل من أجل أن يقيم شرعه على أرضه، أما المتلقي من الدرجة الثانية، فهو الجمهور الحاضر وقت البعثة، لتصل الرسالة في توجهها العالمي نحو الجمهور الكوني وهو المتلقي من الدرجة الثالثة. وكل متلق يتحول إلى مرسل أمام خطاب إلزامي نحو الدعوة إلى الإيمان بالله وحده. كما يكتسي الخطاب القرآني وضعية إستراتيجية، تتفعل بالنظر إلى السياق، ويقصد به أسباب النزول التي توجه الدلالات، فمن أهم الأطروحات الجديدة التي جاء بها هذا المنهج إعادة الاعتبار للسياق الذي أغفل في معظم المناهج النقدية الحديثة.

- إن أقطاب الإرسال وصورة الخطاب وموضوعه يشكل الدائرة النصية المنفتحة على مسار الحثيات التي أدت إلى تفعيل الخطاب القرآني مع محيط التلقي والتفاعل في إطار استراتيجية نصانية محددة.

- إن الموضوع العام لأي خطاب مهما كان يتحدد من خلال البنيات الكبرى للخطاب المتعامل معه، وفي الخطاب القرآني تعلقت البنيات الكبرى بعنوانين السور، فهي تعبر عن محتواها بدقة. ولأن البنيات الكبرى تطلب الاختزال قدر المستطاع فقد قمنا باستخلاصها من خلال أربعة عناصر: تحديد البنية الكبرى لكل سورة، تحديد البنية الكبرى لكل حزب، تحديد البنية الكبرى لكل جزء، وأخيرا تحدي البنية الكلية الشاملة وهي اختزال للموضوع العام للخطاب القرآني. أما البنية الفوقية فهي بنية حجاجية، اعتبارا من أن القرآن الكريم خطاب

حجاجي من الدرجة الأولى، وحجاجيته - في الجزئين المعانيين - تحققت من خلال عنصرين أساسيين هما: الانزياح، والقصص القرآني.

- إن الانسجام أعمق من الاتساق لأنه يمثل قاعدة لتربط البنى الكبرى. وقد تحقق الانسجام الخارجي من خلال ظاهرة العنوان والمعرفة الخلفية والتجاور. وتحقق الانسجام الداخلي من خلال الاستدلال والربط بين الأفكار، والتكرار، والتدرج في المواضيع. أما الاتساق فدوره الربط بين البنى الصغرى، وهو ثلاثة أنواع: دلالي، تركيب، معجمي. وقد لاحظنا من خلال إجراء تطبيقي قام على الإحصاء أن أكثر أنواع الاتساق بروزا الإحالة خاصة القبليّة منها، وهي شكل من أشكال الاتساق الدلالي.

- يؤدي الخطاب القرآني وظيفة الإنجاز بمجرد التلفظ بالقول، والإنجازية تشمل جميع السور القرآنية، وتحتويه أغلب الآيات، ويتراوح خطاب الفعل الكلامي بين التوجه المباشر وغير المباشر، يتحقق الفعل المباشر من خلال الأمر والنهي والاستفهام والدعاء، وتتداخل الأفعال الكلامية المباشرة مع الأفعال الكلامية غير المباشرة، وتنضوي جميعها تحت لائحة فعل كلامي كامل هو الأمر، ومن خلال سلطة الأمر التنفيذية يتفعل خطاب الترغيب والترهيب، دعوة إلى إخلاص العبادة لله وحده، وهو محور الفعل الكلامي الكلي.

- إن وحدة الخطاب القرآني العامة وبنيته الرئيسية تتمحور حول موضوع التوحيد، والشارة التوحيدية تتعلق برسالة ظاهرة وضمنية متعلقة بإعادة رسم خارطة التفكير البشري.

وختاما نؤكد أنه ورغم الجهد الذي بذلناه في القراءة إلا أننا تجنبنا الوقوع في الوثوقية العمياء والصدق المطلق، فنحن لا ندعي الكمال، ولا ندعي امتلاك الحقيقة، فعملنا قابل للتعقيب والمناقشة والنقد البناء بهدف الإثراء وتوسيع المدارك، وهذا كله من ميزات أية مقارنة جديدة تحاول تفادي الاجترار. ولكل شيء إذا ما تم نقصان.

والله المستعان وعليه قصد السبيل والحمد لله رب العالمين.





# قائمة المصادر والمراجع

## قائمة المصادر والمراجع:

أ. قائمة المصادر:

المصدر الرئيسي:

- القرآن الكريم: رواية حفص عن عاصم.

المصادر الأخرى :

1- إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي أبو إسحاق الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، ضبط:

إبراهيم رضوان، ط7، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2010.

2- برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دط، دار

الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1984.

3- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحق: أبو الفضل الدمياطي، دط، دار

الحديث، القاهرة، 2006.

4- الحافظ جلال الدين السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دط، المكتبة

العصرية، بيروت، لبنان، 2008.

5- أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ط1، دار قتيبة، دمشق، 1992.

6- الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، دط، الدار التونسية للنشر. الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع

والإعلان.

- 7- عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، تحق: هاني الحاج، ج1، دط، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، دس.
- 8- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تقد علي أبو زقية، مؤسسة موفم للنشر، الجزائر، 1991 .
- 9- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة: الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، تحق وتعلق إبراهيم عطوة عوض، ط1، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1962.
- 10 أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي: مختصر تفسير ابن كثير، تعق: العز بن عبد السلام وآخرون، ج3، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2005.
- 11- أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، شرح وضبط يوسف الحمادي، ط1، مكتبة مصر، القاهرة. 2010.
- 12\_ أبو محمد محمد عبد الملك بن هشام المعافري: السيرة النبوية لابن هشام، نقد وتعق طه عبد الرؤوف سعدة، دط، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، دت.
- 13- محمد الرازي فخر الدين: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، مجلد32، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1981.
- 14- وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت . دار الفكر، دمشق، 1991.
- 15- أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي: مفتاح العلوم، تحق نعيم زرزور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983.

ب - قائمة المراجع :

أولاً: المراجع العربية والمترجمة:

أ - الكتب :

- 16- إبراهيم خليل: في اللسانيات ونحو النص، ط1، دار المسيرة، عمان، الأردن 2007.
- 17- أحمد رحمان: التفسير الموضوعي، دط، منشورات جامعة باتنة، دس.
- 18- أحمد عمر أبو حجر: التفسير العلمي للقرآن للميزان، ط1، دار قتيبة، بيروت . دمشق، 1991 .
- 19- أحمد مداس: لسانيات النص - نحو منهج متكامل، ط1، عالم الكتب الحديث، اريد، الأردن 2007 .
- 20- أحمد يوسف: الدلالات المفتوحة - مقارنة سيميائية في فلسفة العلامة، ط1، منشورات الاختلاف- المركز الثقافي العربي - الدار العربية للعلوم، الجزائر - المغرب - بيروت، 2005.
- 21- الأزهر زناد: نسيج النص - بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت . الدار البيضاء، 1993.
- 22- إسلام محمود درباله: موسوعة علوم القرآن وآداب حملته وآداب حملته، ط1، مكتبة الإيمان، المنصورة، 2007.
- 23- أبو بكر جابر الجزائري: عقيدة المؤمن، ط1، مكتبة العلوم والحكمة، القاهرة 2002 .
- 24- الجيلالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، تر محمد يحياتن ، دط ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992.
- 25- بسام موسى قطوس: سيمياء العنوان، ط1، وزارة الثقافة، الأردن، 2001.

- 26- تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، دط، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1994 .
- 27- — : البيان في روائع القرآن، ج1، ط2، عالم الكتب، القاهرة 2000 .
- 28- جمعان عبد الكريم: إشكالات النص - دراسة لسانية نصية، ط1، النادي الأدبي بالرياض - المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء . بيروت، 2009.
- 29- جوليا كرسيفا: علم النص، ترح: فريد الزاهي، مرج: عبد الجليل ناظم، ط2، دار طوبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1997 .
- 30- جون لاينز: اللغة والمعنى والسياق، ترح عباس صادق الوهاب، مرج: بوئيل عزيز، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، 1987.
- 31- ج. ب. براون، ح. بول: تحليل الخطاب، تروغ محمد لطفي الزليطي، منير التريكي، دط، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود. دس.
- 32- حسام أحمد فرج: نظرية علم النص - رؤية منهجية في بناء النص النثري، ط2، مكتبة الآداب، القاهرة، 2009.
- 33- حسين خمري: نظرية النص - من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون - منشورات الاختلاف، لبنان - الجزائر، 2007 .
- 34- خالد عبد الرحمن العك: تاريخ توثيق النص القرآني، مرج: حسين خطاب، ط2، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1986 .
- 35- خلود العموش: الخطاب القرآني - دراسة في العلاقة بين النص والسياق، ط1، عالم الكتب الحديث - جدار للكتاب العالمي، إريد - عمان، 2008.

- 36- روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، تر تمام حسان، ط2، عالم الكتب، القاهرة، 2007 .
- 37- زتسيسلاف ووارزنايك: مدخل إلى علم النص - مكلمات بناء النص، ترح وتعق: سعيد حسين البحيري، ط1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003 .
- 38- سعيد حسن بحيري: علم لغة النص - المفاهيم والإجراءات، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، 1997.
- 39- — : إسهامات أساسية في العلاقة بين النص والنحو والدلالة، ط1، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، 2008 .
- 40- سعيد كموني: الخطاب القرآني - القرآن مرجعية للخطاب النهضوي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، 2008 .
- 41- سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، ط5، دار الشروق، مصر، 1997.
- 42- صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ط1، مكتبة لبنان ناشرون- الشركة العالمية للنشر، مصر - لبنان، 1996 .
- 43- — : مناهج النقد المعاصر، ط1، دار أطلس، القاهرة، 2011 .
- 44- طه عبد الرحمان :اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2006 .
- 45- طالب محمد إسماعيل الزوبعي: من أساليب التعبير القرآني - دراسة لغوية أسلوبية في ضوء النص القرآني، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1996 .

- 46- \_\_\_\_\_ : في أصول الحوار و تجديد علم الكلام، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، 2000.
- 47- عبد الجليل مرتاض: في عالم النص والقراءة، دط، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، دت.
- 48- عبد الرحمن بودرع: الخطاب القرآني ومناهج التأويل - نحو دراسة نقدية للتأويلات المعاصرة، ط1، مركز الدراسات القرآنية - الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، المغرب 2013.
- 49- عبد العال سالم مكرم: تدريبات نحوية ولغوية في ظلال النصوص القرآنية والأدبية، ط2، عالم الكتب، القاهرة 2002.
- 50- ابن عبد الله شعيب: الميسر في البلاغة العربية، دط، دار الهدى، الجزائر.
- 51- عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط2، دار الفرابي، بيروت، لبنان، 2007 .
- 52- عبد الملك أشهبون: العنوان في الرواية العربية، ط1، محاكاة للدراسة والنشر والتوزيع، دمشق، 2011 .
- 53- عبد الملك بومنجل: جدل الثابت والمتغير في النقد العربي الحديث . مساءلة الحداثة، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، 2010 .
- 54- عبد المنعم خليل: نظرية السياق بين القدماء والمحدثين - دراسة لغوية، نحوية، دلالية، دط، دار الوفاء، 2007.

- 55- عبد الواحد حسن الشيخ: التنافر الصوتي والظواهر السياقية، ط1، مكتبة وطبعة الإشعاع الفنية، مصر، 1999.
- 56- عبد الواسع الحميري: في آفاق الكلام وتكلم النص، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 2010.
- 57- عثمان أبو زنيد: نحو النص، إطار نظري ودراسات تطبيقية، ط1، عالم الكتب الحديث، 2009 .
- 58- عزة شبل محمد: علم لغة النص . النظرية والتطبيق، ط2، مكتبة الآداب، القاهرة، 2009 .
- 59- عمارة ناصر: اللغة والتأويل، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2007.
- 60- عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003.
- 61- عمر سليمان الأشقر: التوحيد محور الحياة، ط2، دار النفائس، مكتبة الفلاح، الأردن . الكويت، 1991.
- 62- عمر محمد أبو حرمة: نحو النص، نقد النظرية وبناء أخرى، ط1، عالم الكتب الحديث، اريد، الأردن، 2004 .
- 63- غانم قدور الحمد: محاضرات في علوم القرآن، ط1، دار عمان للنشر والتوزيع، عمان، 2001 .
- 64- فالخ نسيب العمحي: النص والخطاب والحياة، ط1، جداول للنشر، بيروت، لبنان، 2013.
- 65- فان دايك: النص و السياق - استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي, ترح عبد القادر قنيني، دط، أفريقيا الشرق، المغرب، 2013.



- 66- — : علم النص . مدخل متداخل الإختصاصات، ترح وتعلق: سعيد حسن بحيري، ط1، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، 2001.
- 67- فاطمة الشيددي: المعنى خارج النص، دط، دار نينوى، دمشق، سوريا، 2011.
- 68- فايز الكومي: تحليل البنية النصية من منظور علم لغة النص دراسة في العلاقة بين المفهوم والدلالة.
- 69- فتحي أحمد عامر: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، دط، منشأة المعارف، الإسكندرية، دس.
- 70- فرانسوا راستي: فنون النص وعلومه، ترح: إدريس الخطاب، ط1، دار طوبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2010.
- 71- فرنسواز أرمنيكو: المقاربة التداولية، تر سعيد علوش، دط، مركز الإنماء القومي، الرباط.
- 72- كريم حسين ناصح الخالدي: الخطاب النفسي في القرآن الكريم - دراسة دلالية أسلوبية، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2007.
- 73- كلود حجاج: بناء اللغة، ترح: الأزهر زناد، مرج: عبد السلام لحبيب، ط1، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010.
- 74- كميلة وايتيكي: كتاب الإمتاع و المؤانسة لأبي حيان التوحيدي بين سلطة الخطاب وقصدية الكتابة - مقارنة تداولية، ط1، دار قرطبة للنشر والتوزيع، المحمدية، 2004.
- 75- محمد بازي: العنوان في الثقافة العربية - التشكيل ومسالك التأويل، ط1، منشورات دار الأمان- منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الرباط - الجزائر - بيروت، 2012.
- 76- محمد خان: لغة القرآن الكريم . دراسة لسانية تطبيقية للحملة في سورة البقرة، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004.

- 77- محمد خطابي: لسانيات النص - مدخل إلى انسجام الخطاب، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، 1991 .
- 78- محمد الديدوي: الترجمة والتواصل - دراسة تحليلية عملية لإشكالية الاصطلاح ودور المترجم، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب - لبنان، 2000 .
- 79- محمد سالم أبو عفرة: السبك في العربية المعاصرة بين المنطوق والمكتوب، ط1، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2010.
- 80 - محمود سليمان ياقوت: علم الجمال اللغوي (المعاني ، البيان- البديع)، دط، دار المعرفة الجامعية، 1995 .
- 81- محمد الشاوش: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، ط1، المؤسسة العربية للتوزيع، بيروت - تونس، 2001 .
- 82- محمد شطاح، نعمان بوقررة: تحليل الخطاب الأدبي والإعلامي بين النظرية والتطبيق، ط1، مكتبة الآداب، 2006 .
- 83- محمد مفتاح: دينامية النص . تنظيم وإنجاز، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2006 .
- 84- مريم فرانسيس: في بناء النص ودلالته - محاور الإحالة الكلامية، دط، وزارة الثقافة، دمشق، 1998.
- 85- مسعود صحراوي: التداولية عند علماء العرب - دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ط1، بيروت، لبنان، 2005.

- 86- مصطفى صادق الرفاعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط8، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005
- 87- مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، ط3، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 2000.
- 88- نصر حامد أبو زيد: مفهوم النص - دراسة في علوم القرآن، ط4، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1998.
- 89- نعمان بوقرة: الخطاب الأدبي ورهانات التأويل - قراءة نصية تداولية حجاجية، ط1، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، 2012.
- 90- نوال خلف: الانسجام في القرآن الكريم - سورة النور أنموذجا، تقد بركاهم العلوي، دط، كنوز الحكمة، الجزائر، 2012.
- 91- هناء محمود إسماعيل: النحو القرآني في ضوء لسانيات النص، تقد: كريم حسين ناصح الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012
- 92- وجيه قانصورة: النص الديني في الإسلام . من التفسير إلى التلقي، ط1، دار الفرايبي، بيروت، لبنان، 2011.

#### ب - المقالات :

- 1- عبد الله القطب مصطفى مسلم: المناسبات وأثرها على تفسير القرآن الكريم، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، مجلد2، عدد2، جوان، 2005.
- 2 - علي رضا قائم بنا: ابستمولوجيا النص، مجلة المحجة، عدد6، 2003.
- 3- فايز الكومي: تحليل البنية النصية من منظور علم النص . دراسة في العلاقة بين المفهوم والدلالة في الدرس اللغوي الحديث، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، عدد25، أيلول 2011.

ج . الرسائل الجامعية:

مفتاح بن عروس: الاتساق والانسجام في القرآن، رسالة دكتوراه دولة مخطوط، جامعة الجزائر، 2007.

ثانيا: المراجع الفرنسية:

- 1- A.J . Greimas, J.Couttes: Sémantique dictionnaire raisonnée de la théorie du langage, Hachette, Paris.
- 2- C.K.Orecchioni: l'implicite, 2<sup>ème</sup> édition, Armand colin, Paris, 1998.
- 3- C.K.Orcchioni : L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Armand Colin, Paris, 2009.
- 4- D.Mainguenau: éléments de linguistique pour le texte littéraire, Bordas, Paris, 1990.
- 5- D. Maingueneau: Pragmatique pour le discours littéraire, Armand Colin , Paris, 2005.
- 6- D. Sperber et D. Wilson: La pertinence – communication et cognition, Minuit, Paris , 1989.
- 7- E.Benveniste: Problème de linguistique générale, Gallimard, Paris , 1966.

- 8- J. H. Robert: Pour une esthétique de la réception, Galimard, Paris, 1978.
- 9- J.C Anscombe et O.Ducrot : L'argumentation dans la langue, édition Mardaga, Liège- Bruxelles, 2ème édition, 1988
- 10- J. F. Jeandillou: L analyse textuelle, Armand Colin, Paris, 2006.
- 11- J.L.Oustin: Quand dire c'est faire, introduction : Gilles Lane, Editions du Seuil, 1970.
- 12- J.M.Adam: élément de linguistique textuelle, Mardaga, Bruxelles, 1995.
- 13- J. M. Adam : les textes : types et prototypes, Armand Colin, Paris, 2011.
- 14- J. Searle: les actes de langage, Hermann, Paris, 1972.
- 15- J. Searle: Sens et expression étude de théorie des actes de langage, Minuit, Paris, 1982.
- 16- L.Hyelslev : Le langage, Edition, Paris, 1966 .
- Meyer Michel, La problématique, Bruxelles, Mardaga , 1986.
- 17- O. Ducrot: Dire et le dit, Minuit, Paris, 1984.

- O.Ducrot: Dire et ne pas dire , Principes de sémantique

linguistique, Hermann, Paris, 2005.

18- O.Ecot: Les limites de l'interprétation, Grasset, Paris, 1992.

19- Paul Larreya: Enoncés performatifs, Présuppositions, Elément de sémantique et de pragmatique, éditions Fernand NATHAN, 1979.

20- Perlman et Tyteca : traite de L argumentation, La nouvelle rhétorique, éditions de l'université de Bruxelles, 5ème édition, 1992.

# فهرس المحتويات

## فهرس المحتويات

أ	مقدمة
02	مدخل
03	1- لسانيات النص: التجاوز والشمولية
19	2- لسانيات النص: البديل للاستقراء النصي

### الفصل الأول:

#### النظام النصي القرآني كخطاب تواصلي

36	تمهيد
37	1- السياق القرآني والوحدة النصية العامة
40	1-1 صورة الخطاب
49	1-2 أقطاب الإرسال
66	1-3 الموضوع العام (المقاصد المباشرة)
73	2- تحديد بنيات النص القرآني وترسيمة توزعها
74	2-1 توزع البنيات الصغرى
96	2-2 تحديد البنيات الكبرى
103	2-3 استخلاص البنية الكلية
105	2-4 البنية الفوقية وهيكله النص

### الفصل الثاني:

#### انسجام واتساق النص القرآني وتجلي النصية

110	تمهيد
113	1- الانسجام وقواعد ترابط البنى الكبرى
116	1-1- الانسجام كمحيط نصي



- 134----- 2-1- الانسجام الداخلى نصي
- 168----- 2- الاتساق وترايط البنى الصغرى
- 171----- مظاهر الاتساق فى النص القرآنى
- 171----- 1-2- الاتساق الدلالى
- 179----- 2-2- الاتساق التركيبى
- 195----- 3-2- الاتساق المعجمى

### الفصل الثالث:

### الفعل الكلامى وبنى المقصدية التداولية

- 208----- تمهيد
- 214----- 1- الأفعال الكلامية الكلية وتجسيد سلطة الإلزام
- 216----- 1-1- التأمل فى عظمة خلق الله
- 232----- 2-1- إقرار حقيقة البعث
- 251----- 3-1- الفعل الكلامى وميزان الأخلاق الفاضلة
- 260----- 2- الفعل الكلامى الكلى وإخلاص العبادة لله وحده
- 264----- 1- 2- سلطة الأمر المباشر إقرار لحق العبودية
- 278----- 2-2- الفعل الكلامى الكلى المضمرة رسالة فى التوحيد
- 293----- خاتمة
- 299----- قائمة المصادر والمراجع
- 313----- المحتويات

علم اللغة النصي منهج لساني حدائي، وفرع معرفي يهدف إلى الانتقال من تحليل الجملة إلى تحليل النص، باعتباره الوحدة اللغوية التي تقوم على التفاعل بين الأفراد والتي تحقق فعل التواصل، كما يهدف المنهج إلى وضع نحو واسع يتجاوز نحو الجملة ويضع نحو للنص يكون علميا ودقيقا ومشاركا بين كل اللغات العالمية.

رصدنا في هذا البحث مسائل مهمة تتعلق بقراءة القرآن الكريم في جزئيه الأخيرين من زاوية نظر علم النص، فرصدنا العلاقات التماسكية بين سور القرآن الكريم وآياته وقوفا عند جمالية تماسكه وانسجام عناصره ما يجسد ائتلافا رائعا بين ألفاظ النص القرآني ومعانيه.

إن التحليل النصي القرآني يستلزم رؤية شاملة تتحقق فيه كل عناصر النصية سبرا لأغواره واستنطاقا لأنموذجه التواصلية القائمة على البعد التداولي في استنطاقه للفعل الكلامي. مع اختزال البنيات الصغرى في بنيات كبرى، واختزال البنيات الكبرى في بنية كلية.

عمد البحث إلى استقراء المعاني الكلية للنص القرآني من خلال تتبع البنيات الصغرى التي تختزل بدورها في بنيات كبرى، لتلتحم في بنية كلية اختزلت الرسالة المحورية للنص القرآني في أهم مضامينه التي هي إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وهي ذاتها صورة الفعل الكلامي الكلي المدروس في هذا البحث المحقق للمقصدية التداولية.

## Résumé

La linguistique textuelle est une nouvelle méthode qui s'inscrit dans le contexte de la modernité, c'est une branche de la connaissance humaine qui vise à passer de l'analyse de la phrase à l'analyse du texte, ce dernier est concéderai comme une unité linguistique, qui est basé sur l'interaction entre les individus et qui assure un acte de communication, ce procédé vise à réaliser une syntaxe plus étendu qui dépasse le niveau de la phrase, pour arriver à un niveau plus élevé qui concerne le texte comme objet d'étude syntaxique scientifiquement approuvable, exacte et commune entre toutes les langues internationales.

Cette recherche présente les interrogations importantes relatives à la lecture du Coran selon l'approche de linguistique textuelle, on essayant de trouver les liens cohérents entre le Coran et ses versets et on a signalé l'homogénéité des éléments constitutifs de ce livre sacré et l'harmonie entre le texte coranique et son sens esthétique.

L'analyse textuelle du Coran nécessite une vision globale dans laquelle tous les éléments de texte doivent être interpréter entant qu'un model communicatif, en découvrant la dimension pragmatique a travers l'interrogatoire de l'acte de langage, avec la réduction des micro-structures dans les grandes structures, et la réduction des structures majeures dans la structure totale.